

# العالية

لماذا لم تكن لي أختٌ صغرى؟ كنت على الأقلّ سأقلب السماءَ وأضعها على المائدة، وأقول لها: «هنا الله وهنا الجنّةُ وهنا الملائكةُ» كنتُ على الأقلّ سأمسك كفّها المبلولة بعد أن تقع في الحفر، وأضع جسمها كله في منتصف السرير، وأغطيها، ولا أجرؤ أن أغني، كنت على الأقلّ تفاديت أن أرى الرجل العابر، الذي يكاد أن يكون فمه في اتجاهين، الذي لا يعبأ إن كانت أرض الله حقًا واسعةً أم ضيّقةً، كنت على الأقلّ تفاديتُ أن أرى أختي الكبرى تحته تشهق، وتلهث مثل أي حنان مقلوب على ظهره، لماذا لم تكن لي أخت صغرى، كنت على الأقل علّمتها كيف صنع الله الشجرة، كيف رسمها على هيئة امرأة شعرها مفكوك وساقاها فوق الأرض ورأسها في السماء، كنت علّمتُها، كيف لها أن تستقيم في الهواء، أن ينام تحتها الرجل، أن يفرك العناقيد كلّها حتى تبلغ سنّ الرُّشد، أن يستريح في الخاتمة، كنت على الأقلّ علّمتها كيف لجذعها أن يهبط، أن تستند على ركبتيها، أن تدسُّ الردفين في اتجاه الجاذبية في اتجاه ما لا تتوقف عنه الأصوات المحمولة دون عناء، أن تنخل الهواء برئتيها قبل أن تنعَّ مثل غائلة، حتى يختلط الخيط الأبيض بالخيط الأسود من الليل، ثم كيف لبئرها أنْ تشفط الماء من العصا، تلك التي سوف تلين، والتي بعدها سوف يمشي الإثنان نحو الظل، التي بعدها سوف ينامان، لماذا لم تكن لي أُخت صغرى، كنت على الأقل انتصرت على الجدران، ورسمتُ صورتها فوقها، وسمّيتُها: العالية.



<< عبد المنعم رمضان، ٢٠٠٣ / عدسة: طارق الطيب

# العاشقات

عندما شهدت إستير على أحزانها
عندما سقطت أتالي في حُبّ الوقت
عندما ضيّقت رفقة عينيها فامتلكت لسانها
عندما اصطحب الله أبناءه جميعاً إلى أرضٍ خلف الماء
عندما أخذت تامار العجين وعجنت وعملت كعكاً
عندما استردّت شولميت ثوبها المحلول
عندما غسلت كاثرين قلبي بماءٍ باردٍ
كان سائق التاكسي هو داود
وكان زكريا في المحراب
كانت المزامير في أيدي الطيّارين تحصد الريح
وكان الماء على استعداد لأن ينكمش
وكان قلب فوسيل قشعريرة تصل بين النور الذي تحت الجلد والنور الذي فوق
وكان الباقون دشّنوا بيت الله هذا الفرح
وكان أن اكتشفت أن أولاً يستيقظ الخوف
بسبب الليل النائم في حضني
وبسبب أظافر إليسا بن لولو
وبسبب اكتمالي خلف عيون البرج
وبسبب ليلى مراد
وبسبب مجرى الشهوة الذي شربت منه جوديت
فأصبحت متزوجة جداً
وأصبحت وحيدة جداً
وأصبحت تغنّي في الشرفة
إذا اكتفى غيري بالبيديش
إذا اكتفى غيري بحنّه آرندت
إذا اكتفى غيري باليوم بعد اليوم

إذا اكتفى غيري بالجيش والنابالم والفانتازيا
إذا اكتفى غيري بحبّات الڤاليوم
إذا اكتفى غيري بطيور صغيرة تنام على السرير
سيظنُّ الناس هناك بأن جوديث ارتدّت
سيظن الناس بأن ذراعها ليست من الحنطة
سيظن الناس بأن الشمس أحرقت أصابع رجليها
سيظن الناس الحمّالون وسائقو التاكسي والحصّادون
سوف تكحل إيزابل عينيها وتزيّن رأسها وتطلع من كوّة
سوف يهبط الرب من الضباب ليجد بيتاً يسكن فيه إلى الأبد
سوف تضطجع إليسا بن لوثو عند جسمي حتى الصباح
سوف لا أقرُّ وحدي عندما يسقط الليل
سوف أُغنّي في الشرفة
عندما وقفت إستير على جسمها العاري
عندما فركت أتالي صوتها فوق الريح
عندما أهملت رفقة الحصان النائم
عندما سكن الملك في بيته وأراحه الربُّ من كل الجهات
عندما أخذت تامار الكعك وأتت به آخاها في المخدع
عندما على أصوات الليل إلتفتت كاثرين خلف ظلّها
عندما اكتشفتُ بقعة في حزني عضّتها العاشقات
عندما اطّلعتُ على سفر الخروج القادم، وفرحتُ الفرح كلّه
الذي لم يفرحه الرب، أكلتُ التمر كله الذي لم يأكله
الرب، ونمت النوم كلّه الذي يسعى بعيداً في اتجاه
أرض خلف الماء.

# Judith Herzberg

أجملُ ما يميِّز النُّسّاك والخياليين والملوك
أنَّهم يسعون للثارِ
مزوّدين بالرَّصاص
والصَّدى
ومن معسكراتهم
تخرج أفواج المظلّيين
والمشاة
والموتى
وقارعي الطبولِ
في اتجاه بلدة قريبة
كأنّما تأتلفُ العناصرُ
العناصر الخمسة بينها
عناصرُ الضّعف
وأُغنيات الله في حقوله الخضراء
والمعادنُ الصّافيةُ
النحاسُ لامع يطلُّ من ورائه الصُّراخ
ورق القصدير يشبه النيزك
والعدالة السرّية التي أخاف أن أنالها لكم
تعيش في خلايا النحلِ
في شقوق النملِ
في الكهوفِ
هل تأتلف العناصر؟
العناصر الخمسة بينها
عناصر الخروج من فروج اللغة
الطريقُ أنتمو الذين تعرفونه

الطريقُ أنتمو الذين تسلكونه في الفجر مرّةً
وفي الظلام مرةً
وأنتم الذين تصنعون الحلم مثل ساحة الميدان
تصنعون الحلم مثل قبّة الصومعة
اذهبوا إلى مستودعات الكتب التي وراء الجسر
وابحثوا عن الظلام
نطفوهُ
هل لكم ان تستعينوا بالرّماد والمياه والندى
واستسلموا للآلة التي يديرها الله بقبضتيه هكذا
فيبرز الماعزُ والجاموسُ والنساءُ والصحراءُ
في سيل من الحواسّ
حيث تسقط الأرض على مسافة ثابتة
من لذّة الحرب
ومن دخانها الصّاعد مثل الروح
نصفها عجيبةٌ
يقتات منها ألف عاشق وعاشق
وتختفي سلالمُ الشرق التي تصعدُها
في رحلة العودة من أحلامنا
وتختفي غشاوةُ التاريخ والأمشاجُ والطائرُ
سوف تنشأُ القارّات نشأةً ثانيةً
ويستفيق الشرُّ
أنتم أيها الناس
لكم ألاّ تصدّقوا الفراغ
وانظروا إلى ما تحت إبط اليابسة
أنظروا إلى سلالم الشرق التي على يسار المارّ
من حيفا
إلى بيوت الغجر الاحرار

ها هنا ينام البحر يائساً
ها هنا تنزلق النجوم مثل البدو
فوق الجبل الإلهةُ العذراء
والآلهة المدنّسون
تحت الجبل الخريطة التي تمتدُّ
قد تشيع فيها تقنيات الإرتقاء والبؤس ومُجمل الطقوس
دون أن يكون الليلُ
في طريقه إلى مكانه الآمن
قد تضيق تلكم السلالم الملساء
قرب نقطة الشرطة
قد تضيق قرب المعبر المفتوح للأنصار
كان القادمون كلّهم
يحاولون أن يشاهدوا الأحزان
وهي تستريح من هدوئها،
وهي تصافح الموتى
وكان للأحزان خوذة
كان لها زيٌّ تنكّريٌّ
والحوافُ لا تُرى
وصوتُها حقلٌ من الليمون
ساعداها شاطئان يحرصان أن ينظّما الصُّفوفَ
عندما استدرتُ كي التقط
الخريطةَ التي تمتدُّ
كنتُ قد فقدتُ البحر
والصحراء
والحصون
فانتبهتُ كيف أنّ صفّنا
يضم حاخاماً

وطفلتين تلبسان ما تحاول السماءُ
أن تلبسه منذ مساء الأمس
كيف أنه
أطولُ ممّا أستطيع أن أخاف منه
فابتعدتُ واقتربتُ
قال لي الحارس دون أن يفتّش
الحقيبة البيضاء
والمعطف
والباسبور:
« تحت رجليك
هواءٌ ضائعٌ
فلا تطأهُ »
أيها الحارس لم تعد تحملُ فوق ظهرنا التاريخ
لم تعد نحملُ هذا الأرجوان
هذه اللهفة
أمهاتنا ماتت
ونسلنا كأنه يريد أن نهمله
وعائلاتنا الحيّة تحبس الفصولَ في أماكن النوم
فهل نمرُّ
أيُّها الحارس
لم نكد نمرُّ
لم نكد ننام خمس ساعاتٍ ونصف ساعة
حتى أدار الليل ظهره المتربَ
واستعاد هيئة الجاسوس
واختفى في صَخَب الكوكب
في الصباح أوقفونا قربَ سور الممالك الجديد للجنّة
كان خلفنا الهواء الطّلق

والشمس
وجنديّان غارقان في حذاءين
وبندقيّتين
واستمارتيْ نقل إلى مكان خلف هيئة الأركان
نبّهونا:
حاذروا أن تلمسوا الجدران
كنّا عائدين من حقول النوم
مثل ثيران على ظهورها
أوديةٌ
وبعض قمحٍ
بعض سردينٍ مملّحٍ
وبعض ريحٍ
بعض آبارٍ
وبرتقالةٌ ناضجةٌ
وبرتقالتان
برطمانُ عسلٍ
ومثل كلّ يومٍ كانت الأرض تفرُّ من أقدامنا
نلحقها
وندلقُ الأحلامَ فوق جذعها
فتهدأُ الأرضُ
ونستطيع المشي في اتجاه خيمةٍ على الطريق
لم نحاول الصمتَ
ارتجلنا لغةً وحشيةً
وبعد أن ألفنا جَرْسَها الناتىءَ
واحتفظنا بالحروف الزووم (zoom)
كانت الشمس قد استدار قرصُها
وأصبح الشعاعُ

مثل حجر
يتزُ زيته على رؤوسنا
لا بدّ أننا أصابنا تضاربُ الغرائز العليا
مع الغرائز السوقيّة
انتشار جرثومة ان تسعى الى حماية مُطلقة
دخلتُ في بيت كانني أعرفُهُ
تخال المرأة التي في البهو
والتي بنطالها من القماش الاسود السّميك
المرأةَ النحيلةَ الفارعةَ القوام
ذات البصر المحدودب الناعم
تستجيب بابتسامة
تقول لك :
« هل تعرفُ الموتَ الذي أرهقني
لانه يقيم في سلالتي
منذ استمال الله شعبنا المختار
شعبنا
إلى حوافّ غرفة الاسرار »
كانت المرأة مزموراً من المزامير التي قرأتُ بعضها
وكانت الحشود من طوفان أهلها
الرعاةُ
والقضاةُ
والشهودُ
والمحاربون
ينهبون من خزانة الله الذي يروقُهم
ويغمرون الارض بالدم المنفوش
كان سورُ القدس
سورُ عكا

سورُ حيفا
سورُ يافا
مثل قطنة تشرّبت
بما يسيل من عروق عابري السبيل
عندما فكّرتُ أن أرتدّ
أن أعود القهقرى إلى الخراب الخامّ
قال لي الحارس دون أن يفتّش الحقيبة البيضاء
والمعطف
والباسبور:
هل رأيت المرأة الفارعة القوام
ذات الجسد الممسوس
هل تركتَ في سريرها رائحة اضطهاد الموت
من تجاعيد الهواء الطّلق
أنت تعرف اسمها
وتعرف الخطابات التي من مدن نائية
وكيف تختفي أصولها وراء طابع البريد
كيف يقبض الله على ذراعها
يقودها إلى الضاحية التي تسكنها

رامات چان
٦ شارع نزل إسرائيل

هل تريد أن تنتظر الباص الذي يذهب في اتجاه أورشليم
لا تحاول الخوفَ من الوجود الزّنخ الكريه
بعدما يوصلك الباص إلى محطة الميدان
قُم بجولة
وانظر إلى البيوت والأشجار كلّها

إحذر إذا فاجاك الحلمُ
وحطّ رجله اليمنى
على حدود عالمين
واكتفى بان يظُنّ
ان آكبر الحصون قد أصابه
عساكر القنّاصة المدرّبون
ان شرفةً على حديقة الله
استعادت حقها
هناك قد تدخل في بيت تخالُ فيه امراةً ثانيةً
تخاف من ظلال الموت
سوف أيضاً يقبض الله على ذراعها
يقودها إلى المنزل

شيرلي كوفمان
٧ شارع راشبا
أورشليم

كان هذا المنزلُ الدعامة التي تحبُّ أن تهيم فوقها
تحبُّ أنْ تفقدها
حيث الفضوليّون لا يكفُون
عن الأناشيد
وعن رقابة الأرواح
عن تجهيزها لسطوة النهار
لامتعاضه
وكان الموت مثل الشجر المنزوع من طينته
الفضوليّون يحتاجون أن ينساهم الله
وأنت تحتاج إلى جوديت

رامات جان
٦ شارع نزل إسرائيل
هذه سلالم الشرق التي على يسار المارّ من حيفا
إلى بيوت الغجر الأحرار
قد تتّسع الآن
فسوف يهبط الملاك عزرائيل
في طريقه إلى ناحية
يسكنها الأعراب والبدو
الملاك عزرائيل خلفه كتيبة العساكر المكلّفين
باحتجاز جثث الأطفال
بالمرور فوقها
بمحو آثار الفناء عندما تحاولُ المادّةُ
أن تصير غازات
وباستنشاق ماء الورد
والزعتر
والليمون
والبنفسج الطالع من أنحائها
ودفن ما يظلّ باقيًا منها
الجماجمُ
استدارات العيون
الشوقُ والبراءةُ
الأنفاسُ بعد أن يلوكها الرّدى
كأنّما تأتلف العناصرُ
العناصرُ الخمسةُ بينها
الأطفالُ والحجارةُ
الأطفالُ وانتظارهم على سلالم الشرق التي تصعدُها
في رحلة العودة من أحلامنا.

# طفولة

فوق طاولةٍ
كانت الكلماتُ القديمةُ
مصفوفةً
والهويّة
والكتبُ العربيةُ
والماءُ
والظلُّ
والحرثُ
كان الجميع يعانون مثلي القطيعة
لكنه
حين مرّر فوق السجاجيد
رجليه
أقبل مضطرباً
تتأخره أمّة
ثم أسند كفّاً على جذع طاولتي
فانحنت كلّ أشجارها
الهويّةُ
والكلماتُ القديمةُ
والكتبُ العربيةُ
وادّحرجت
مثل شمسٍ كساها الغمامْ .. إلى آخرهْ
وحين انحنيتُ
أنظّف آنيتي والهواءَ
من الكسر العالقات به
كان يصرخُ:

تا تا
وكنت أرتِّب حاشيةً
عن بقاء العربْ.

## نور

لو أنّهم قطعوا رموش الليل
كي لا تختفي أبداً
عن الأرض النجومْ

## تقرير

أغمضُ ما في المرآة
ما تعطيه.





شاعر مصري مقيم في القاهرة/ جمهورية مصر العربية

وسام هاشم

# تحليق

أخرج من باب الحرب
بيدي عمر قليل
وأطير
أنظر إلى المدن تتصاعد منها الحياة..
صغيرة كالنمل،
فارغة كالألم
أرى العوق وقد أصاب شوارعها
مئات الشحاذين يشيرون إليّ..

- كيف خرجتَ من الحرب
أخرج منها
معافى كالجريح يُقبّل شظية المدفع
وينتظر الزواج على نقّالته
وأقول:
الحرب سرّبتني إلى فضة العائلة
والعائلة رمتني إلى ذهب اليأس
لا فضة العائلة
ولا ذهب اليأس
وجدتُ، على باب المنزل،
لقد وجدتُ العصافير ميّتة في قلب فتاة
وجدتُ أيضاً
شرطة مليئة باللُّهاث ورائي:

ـ خذوا هذه الجريدة، إسمي يغطي معظم الوقت فيها
أصرخ
وعيني على الفضة السوداء من شهقة الباذنجان.

غداً
وأنا أعود منكسراً سأقول لها:
ـ لقد أحببت امرأة أخرى من فرط محبّتي لكِ

أيكون لي شارع آخر سوى شارع الرشيد؟
هل يمكن ان أمضغ التفاحة وأصيح: هذا قلبي؟
لقد كانت الحرب، خلف أبوابها، حرباً
والمساء فرصة بطيئة
هل أخرج من بابها
وحيداً وقاتراً؟

أقترح على خطاي
جنوباً جديداً،
رسمته ثم قضمته ثم أدركته

يا ربّي..
أنا بلا جنوب لأني بلا ذهب
وبلا جدول يفضي إلى ردهة ينام الجنود فيها.

يا ربّي..
أيمكن أن أجرّ الجداول خلفي
لأجر الشواطئ
أطير بها

أنقذها من نحاس المعارك؟!

( تشير الطائرات إليّ فأنجو!!
ويشير أبناء المقهى فأسقط والجداول والشواطئ معي إلى حضن شاعر
يكبّلنا بالدم الفاسد . .
بينما عام ٤٨ كان أبو فرات يصيح بوجه العساكر فيضربون الذي
يحمله!! )

أخرج من باب الحرب
إلى باحة الصهيل
أشتري هاتفًا لا تصل بالعصافير
وأطمئنها . .
كلّ عصفورة تلتقط شظية من فضاء كانون
ستبقى شظية واحدة . .
أريد أن تبقى!!
تحرق القصائد وتنفض على رماة المحبة بالأصداف
وعلى الأدغال لتبقي القطا،
ثم تنفضْ على المجد،
فيصرخ هذا المجد،
يفرّ بعيداً عن هنا
ويصبح مجداً حزيناً كما ينبغي!





شاعر عراقي مقيم في الدنمارك

نـوال نـقـاع

# مناخات للرحمة

## ملح التماثيل

تُرابيّون.. وإلى تراب يعودون
واحداً بعد آخر
يتركون برج الثور
ليحرثوا حقولاً هاربة
من ذاكرة الفلاّحين
يلاحقهم ريشي الاسود بسؤال:
كم برجاً ستقطعون الليلة؟
خائفةٌ أنا
لم أتعوّد العدّ نزولاً
نبتُّ في أجساد العصافير
كنت أُعدّ القبور من بعيد
الآن أمُرّ على قبري وأُخطىء

ترابيّون.. في رمال يمرّون
ينزلون عن منصات الثورة
قافلة بلا حادٍ
من ساعة رملٍ ينسلّون
بهمس
يدقّ ريشي الأسود سؤالاً:
كم وتراً ستقطعون في العودة

لتصلوا إلى تيه؟
هل هامت روحي هناك يومًا ولا اذكر؟
متأخرًا جاء سؤالي
بعيدًا هام همـــي
مرّت القافلة من هنا
بعد موت الحادي

ترابيون .. في صخر يذوبون
عن آخر المرثيات
ملامحهم في ملح التماثيل
يحفر ريشي الأسود سؤالاً:
كم ثأرًا بقي ليرتوي الحقل الساقط
من ذاكرة الفلاحين الأوائل؟





## قيتراج

غرقنا عميقًا في الشفافية
على موعد عبث
غسلنا الماء بالماء لينقى
لم أقرأ كامل الأفق
لم تقرأ كامل الشاطئ
اختصرتكَ البحار في نطفة
اختصرتني الرمال في زجاج
رحلتَ لأبقى

رتّبتُ النوافذ في لوحات

لتنامى
رتّبتُ البحار في ألوان
لترقى :
ركنتُ الأحمر على عصا
علقتُ بين رحم ونبي
ربطتُ الأبيض بمنديل قيرونيكا
أقصيتُ الأصفر شرقًا
امطرتُ الأسود ثلجًا

فإن شكّلتنا الزرقة من جديد
لنشقى . .
عند أطراف الغابة
لم تزل دروب الأساطير
تأتي بخيال ملوّنة
تبدّد وحدة الذئب فيك
وتحيل زجاجيّتي فيتراجًا .





## فاكهة الغاب

رمشتان في الضوء
تكفيان لكسر قوارير الأسرار
لا وقت للكلام
لا مكان لنافذة تفتح فمها
لكل الشفاه التي تركت بصماتها
على فناجين القهوة والشاي
على أعقاب السجائر المتبادلة

في استراحات العشق
والثرثرة المعلّبة في الوسائد

وجهان على مفرق صدفة
كفّان على مفرق مقهى
تدخل من باب الكلمات
لتغرق في الورق
أدخل من باب شرقي
لاختيار شاي عشبي

للوجع القمري بتوقيت الحدس
لشاي بالنعناع
هناك أوان..
لمساحات القطن المكدّس
تحت ندى الصباحات الكاسدة
هناك أوان..
لاتكيء على عيدان أكثر حناناً
ومكاناً لا ختبيء خلف قشور أكثر أماناً
من شاي القرفة
هناك أوانٍ
للمطر الأول
للخريف الأخير
لشاي بالليمون
لحمى الشتاء
تحت جلدي المطوي
أو معطفك الجلدي
هناك أوان.

ورقتان على مرمى صدفة
تتابع صبابتي القراءة
كأطفال المدارس
أختار صكّ براءتي
من النبيذ النازف من شفتيك
شاي بفاكهة الغاب :
زعرور
عليق
وعنّاب .

دوار

للريح اتجاهات
لا تعرفها الطواحين
يدور القلب في صدر كتاب
يسقط آخر الهاربين
مسكونًا بالغبار

للريح اتجاهات
لا يعرفها السلاح
جناح يهوي هنا
وفي الحلم يهوي جناح
هناك

للريح اتجاهات
لا تعرفها فرس تسابق التاريخ

تسقط الزركشات عن السّرج
يقرع جرس في متاهة الروح
يصفر القبر

للريح اتجاهات
لا أعرفها
حين تمر أحني قامتي
لاتّكئ عليك في صدري
أسقط في القفص الوحيد
الباقي بلا حرس.

## طيف

تسبقكَ الأقواس إليّ
طيفًا حارسًا
رسالة من الشمس
يسبقكَ القماش إليّ
خارطة للبقاء.

ملكًا مخلوعًا كنت
ملاكًا مؤجرًا كنتُ
كنّا ولم نكن.

عند كل شروق
يهزُّكَ ثار
بين الصحو والسقوط

تسرقك الظنون
بين شكٌ ويقين
كنتَ وقد تكون.

عند كل غروب
يهزّني برتقالي
بين الصحو والسقوط
يعمّدني زيتي
بين الاحتراق والجنون
يسرقني ليلكي
بيني وبينكَ
كنتُ ولن أكون.



صورة

كأني ما علّقت حجارة بيتنا
عقداً على صدري
كأني نسيت جلدي في رحم أُمي
فلم تعد تراني
ولم تعد ترحمني
كأني تركت روحي تتبعثر
في أُفق بلا إله.

سلّتان فارغتان يداك
وجسدي كومة قش
تتوق إلى الإحتراق في مواقد الشتاء

سلّتان فارغتان يداي
والسماء تتوق إلى صلاة
بلا كتب ولا سجاد.

إن تفرغ الذاكرة.. من نفس ناطقة
إن يفرغ الصدر.. من نفس غاضبة
وإن يفرغ الرحم.. من نفس غاذية
هل يبقى هيولي ليعشق صورة؟

(آب ٢٠٠٣)





شاعرة وتشكيلية فلسطينية مقيمة في بيت جن / الجليل



مـارك ديـلـوز

# على الأرض.. كما في السماء

هناك.. صباحٌ يُمزّقُ الأجفان
غيومٌ رقيقةٌ.. تبدو رُسمتْ
حجارةٌ بين الزهور
**إيماءاتٌ للكتابة**

هناك.. شمسٌ تقتلُ اليأسَ
قيثاراتٌ متمددةٌ على العشب الرطب
عيونٌ ترنو لأغصان الشجر
**تخيُّلاتٌ غافلة**

هناك.. قهوةٌ تغلي
شفاهٌ تحترقُ
صفحاتٌ ظلالٍ تتثاءبُ
**كُتُبٌ يدوّنُ فيها الغبار**

هناك.. زنابيرُ تُهَمْهِمُ
نواقيسُ مقيّدةٌ
عرباتٌ تهذي
**صُوَرٌ مُجرّدةٌ**

هناك.. آلامٌ متناثرةٌ
عجائزُ.. شعوبٌ.. هائمون مطاردون..

(مارك ديلوز) ٢٠٠٣

أطفالٌ.. أناسٌ ذوو عُمرٍ ضائع.. قبورٌ..
**قوافٍ كئيبــة**

هناك.. نساءٌ للوحيدين
شالاتٌ شاحبةٌ.. أكتافٌ باردةٌ
أجسادٌ بَضَّةٌ بحكم العادة
**وشعراءٌ مع وقف التنفـيـذ**

وبعدُ.. هناك **السماء**
وفي السماء انفجار
السماء تتارجح على إيقاع ڤالس بطيء
العصافيرُ القلقةُ تخربشُ الصمتَ
الغيومُ تُفْرِغ رسائلها الأخيرة
العشبُ يتثنَّى.. النهار يحبو
على الأرض.. تسقطُ عاصفةٌ من الصدَف
مثل الخلاص
والصمت
**الصمت**





## أيُّ حطامٍ هذا العالم

**عاجزٌ عن إيقافِ هطولِ المطر..**
**وعبثًا أنادي لأمنعَ غيابَ الشمس..**
**نظرتي.. صمتٌ موسيقيٌ..**

شعراءٌ رفيعون كالنبيذ الفاخر..

يتكدّسونَ في الأقبية..
والغبارُ يتراكمُ على كتفيهم..
مثلَ مَشْلحٍ شفّافٍ: رداءٍ منَ الوَهْم

مجانين
الغيومُ تتقافزُ متواترةً بين طرفي السماء
طغْيٌ على ارتفاعِ السُّحُب
قتلٌ.. رَصاصُ دُمْدُم.. وسائلُ إعلام..
صحفٌ.. إذاعاتٌ.. صورٌ.. ذبابةُ التسي تسي..
كلهم يَئِزّون في أُذُنَيْ متسكعٍ أحمق

المطرُ يعصفُ.. الرَّعْدُ يقصفُ النوافذ..
الصمتُ يهاجمُ الأُذُنَيْن..
الصراخُ فراشاتٌ تعبةٌ تتكوّرُ عند مُلْتقى الشَّفَتَيْن..





زَهْرُ الخشخاش هجرَ الحقولَ منذُ أمدٍ طويل..

شاعرٌ محترقٌ يفرُّ مُعْوِلاً
تحتَ الريحِ التي تُضْرِمُ اللَّهَب
فليغادرْ ويختفي
لن ينالَ تحيتي.

## شيءٌ ما

شيءٌ ما.. ينفجرْ
عميقًا عميقًا عميقًا

تحتَ البشرة
خلفَ البريق
في العظام
شيءٌ ما . . يتحرّكُ
تحتَ مَمْسحةِ الفِكْرِ
لُغةٌ مُحْدَثَةٌ
ضدُّ الجمودِ
والزمنِ المكبوت

شيءٌ ما . . يتحرّرُ مُبْحِراً
في قِسْمةٍ مختلفة

شيءٌ ما . . يرتعشُ
فيكَ
فيَّ
في أوانِ الطَّلْقِ
في الانتظارِ
حُمّى
تَعْبُرُ الشَّفةَ
( ولم تُكْتَبْ بَعْدُ )
في الحالِ ينهضُ . .
جاعلاً جسدَ الغيوم . .
يرنو إليه بدهشة

- والرَّعْشَةُ تَسْري في الجُثَثْ .

# الفزّاعات
# أو، الريح أصبحت أرملة

تقديم:

في شمال مدينة يمكن تسميتها اورشليم او القدس.. طُرِد فلاّحون من اراضيهم تاركين خلفهم فزّاعات اختفت بذورها..

ولم يبق سوى بضع صور وكتاب للشاعر يسرائيل إليراز. وهذه القصيدة ترجيع لتلك القصة.

(إلى الشاعر يسرائيل إليراز):

## (المتزوجون)

كانتْ الفزّاعاتُ
أزواجَ شفاهٍ مهدَلَة
لغيومٍ تمزّقت من شهوة التقبيل

كانتْ..
أزواجَ طيورٍ
خدشتْ إهابَ السَّماء
لحظةَ لذَّةٍ مُمكنَة

كانتْ..
أزواجَ أطفالٍ
فزعين ماكرين
لطالما رموها
بحجارةِ كالصُّراخ

كانتْ..
أزواجًا مِنَ الحَصَى
كفاكهةٍ سقطتْ عندَ رُكَبِهِمْ

كانتْ..
أزواجًا للشجرِ
لطالما تَراءى
أنَّها تُقلِّدُهُ
والحقيقةُ عكسَ ما تراءى

كانتْ..
أزواجَ هِضَابٍ مُخضَّبَةٍ
بالأزرقِ والبنفسجي والنَّدى
مثلَ أكتافِ المخطّبات

كانتْ..
زوجًا للريحِ.

## (الجَــزُّ)

سيفُ الإنسانِ مرَّ مِنْ هُنَا
ضاربًا هائجًا قاطعًا

مُجْتَثًّا الأشجارَ عن وجهِ الأرض
كموسى حلاّقٍ أحمق

مُسَمِّرًا النسيانَ
في جوفِ الهضابِ الخصبِ
مُقْتلعًا قوائمَ العصافيرِ الساقطة
مثلَ أهدابِ السماء

جالخًا الحصى ومُدْمِيها
مثلَ رُكَبِ الاولاد

مقتلعًا ذاكرة الريح . .

( الريـح )

منذئذ
لم تتوقف الريح
عن نسيان قصتها



والطيورُ لم تزلْ
تبحثُ عن مَوْطِئٍ
لتعاودَ الهربَ منه

والغيومُ تلوكُ
أشلاء أغانيهم

والأولادُ يركضون
خلفَ خوفهم الطّفلي

والأشجارُ تَنْدُبُ
مرآةٌ لتزهرَ فيها

والحصى.. لا تنفكُّ تسقطُ
كالأسنان على الرصيف

والهضابُ..
تُرْخي أجفانَها الخجلة

منذُ تلكَ اللحظة
غدتِ الريحُ
أرملةً.. غامضةً.. عمياء..

القدس - باريس، ٢٤/٩/١٩٩٩





## الشيخوخة مرآة مقعرة

(وماذا لو كان الأمر حقًا؟)

هضبةٌ
بالغةُ الهدوءِ ليلاً.. مُمْعِنَةٌ في الزُّرْقة..
وقلمُ الأشجارِ
يمكن أن يَخُطَّ على الثلجِ ما يلي:
سماءٌ صافية
لغزٌ باردٌ
غطاءُ النهرِ يجذبُ ضوضاءَهُ
نحو أذني

لا شيءَ يتحرّكُ.. لا.. لا شيءَ يتحرّك..
وخصوصاً الثلج..
لا شيء يتحرّك.. والكلُّ يتغيّر..
العالمُ يتغيّر.. والعُملَةُ تتغيّر..
الرُّضَّعُ والاغطية والحُبُّ
وحتّى الملائكة يتغيّرون
( أجنحتُهم أصابعُنا )
الزمنُ يتغيّر..

والليلُ يَعْبُرُ بي.. ويوصلني إليكِ..
بعيداً.. خلف تلك النافذة..
قليلٌ من الثلج عالقٌ بنعْلَيْ
بصاقٌ على البساط
إنّي عارٍ.. أتمدّدُ.. وآخذُ سيجاراً
لأني
شتاءٌ.. أُحبّ تدخين السيجار.

بودابست / كانون الثاني ١٩٧٦

هذه القصائد من ديوان «الفراغات» الصادر في العام ٢٠٠٢ عن دار النشر «لانور».

نقلها من الفرنسية: أنس الحكيم، باريس / فرنسا

**مارك ديلوز**

- وُلِدَ في باريس وعاش في حي مونمارتر الشهير. وشبَّ شاعراً و رحّالاً غصباً عنه.
- صدر ديوانه الأول في عام ١٩٧١ بعنوان: «ذكريات بيت الكلمات»، مع مقدمة من الشاعر لويس أراغون (١٨٩٧ – ١٩٨٢) جاء فيها: «هنا يبدأ شيء ما، ولن يُقيَّض لي رؤية نهايته. ولكنني أستجمع قواي الأخيرة في عمري هذا لأستعجل النبوءة».

- توقف بعد ذلك عن النشر طوال خمسة عشر عاماً، رافضاً القيام بدور الشاعر، وباحثاً خلالها عن مرتكزات جديدة للتعبير الشعري وثيقة الصلة بمدينة اليوم ، فأقام نشاطات مختلفة وعروضاً شوارعية، ورافق الشعر بالموسيقى .
- في عام ١٩٨٢ أسس مع دانييل فورنييه « جمعية الساحات الشعرية » التي تقيم النشاطات والمهرجانات والمعارض والقراءات الشعرية .
- شغل منصب المستشار الثقافي للمهرجان الشعري : « أصوات من البحر الأبيض المتوسط »، الذي يقام في مدينة لوديف الفرنسية، وذلك منذ تأسيس المهرجان عام ١٩٩٨ إلى العام ٢٠٠٠ .

**أعماله المنشورة:**

- ذكريات بيت الكلمات ( مجموعة شعرية، ١٩٧١ ) .
- قصائد للشاعر التركي يونس إمره ( ترجمة، ١٩٧٣ ) .
- انطولوجيا الشعر الهنغاري المعاصر ( ١٩٧٨ ) .
- منطلقات للكلام ( ١٩٨٢ ) .
- منطلقات للهذيان ( ١٩٨٣ ) .
- كثيرون مثلك يشعرون بالوحدة ( قصيدة، ٢٠٠٠ ) .
- قطر الشعراء الهندسي ( دراسة، ٢٠٠٢ ) .
- الرجل الذي أغمض عينيه دون أن يسدل جفونه ( رواية، ٢٠٠٢ ) .
- شارع الشهداء ( ٢٠٠٢ ) .
- صخب الآخرين ( ٢٠٠٢ ) .
- القراءات ( مجموعة شعرية، ٢٠٠٢ ) .

## نصوص»

حميد العقابي

# شظايا المرآة

قصص قصيرة جداً

## حصار

إستيقظ ( س ) في منتصف الليل، كان صوتهُ المنخورُ يؤلمهُ، تلمّسَ سريرهُ فلم يجد سوى آثارِ امرأةٍ خائنةٍ فرّتْ مع النادلِ قبل السُّكرِ، تلمّسَ جسدهُ، صحراء موحشة نصبت فيها ذئابُ الشهوة سرادقًا وراحت تعوي.

جلسَ في منتصف الكون يتأمّلُ نيازكَ روحه المتساقطة في قاع العتمة، ومن ثقب في الظلام راح يتلصّصُ على الأرض وهي تستحمُّ بالدماء، رأى محاربين شقرَ الشعور يسحلونَ قمراً نازفًا يستغيثُ وما من مجيرٍ، حاولَ أن يصرخ إلا أن الكلمات تسرّبتْ من ثقوبِ صوته المنخورِ، وضعَ سبابتيه في أذنيه مُغمضًا عينيه كي يهربَ من المشهد فالفى نفسهُ جالسًا في منتصف نفسه مخذولاً. هناك على طاولةٍ كان يستقرُّ مسدسٌ وقلم، أمسك القلمَ كي يكتب وصيتهُ الأخيرة، لكن سرعان ما انفجرَ هاجسٌ يَتْرَكفُ الجدوى.

دمشق، ١٩٩٦

## السفينة

كنّا واقفين بانتظارِ السفينة التي لم تأتِ بعدُ. نامَ الفوضوي واختصمَ المتفائلون، المراهقُ ذو المزاج المتقلّبِ انتحرَ على صارٍ مكسور، انجبتْ زوجتي طفلاً أسميتهُ ( بحر ) وطفلةً أسميتها ( انتظار ) وأخرى ( متاهة ) وآخر.. وأخرى.. حتى غدت الأسماء بلا معنى، ولم نعدْ نتذكر السفينة، لكنّا ما زلنا منتظرين.

دمشق، ١٩٩٨

## وهم

عوليسُ العائدُ من وهمهِ جلسَ واهنَ الخطى يعيدُ ترتيبَ الماضي، يمحو ويضيفُ،

ويستبدلُ سنةً بسنةٍ ومكانًا بمكان، يزيلُ الغبارَ عن فضّةِ الذكريات ليحبَّ امرأةً بلا ذاكرة.

ولأوّلِ مرةٍ بعد سهدٍ طويلٍ أخذتهُ سِنةٌ، وحينما استيقظ أحسَّ بورمٍ في روحِهِ، راح يكبر ويكبر حتى صار امرأةً حُبلى بالوهم والغبار.

دمشق، ١٩٩٦

## الذئب

موتى أتعبهم الانتظارُ فانطلقتْ قبورُهم تركضُ نحو القيامة عابرةً جسورَ الدودِ وأنهارَ القتلى، كتلٌ بيضاءُ تتدحرجُ محاولةً الإفلات من أكفانها. تتساقطُ الأكفانُ المهترئةُ على الطريق فتفقسُ الكتلُ كائناتٍ بشريةً تنطلقُ مرعوبةً ربما من هول نشورها. رجالٌ ونساءٌ وأطفال، عراةٌ يركضون قاصدين الأقاصي. هناك في الجانب الآخر من الآفاق القصية شاهدوا سيّافًا يتكئ على مقبض سيفه المغروز في الأرض، وقبورًا تتثاءبُ، عندئذٍ أدركوا بأنهم ضلّوا الطريقَ إلى القيامة. تدافع بعضهم نحو السيّاف متلعين أعناقهم بينما عاد البعضُ الآخرُ إلى حيث قبورهم من الطريق التي احتفظت بآثارهم. فجأةً توقف أحدهم وكان يبدو من هيئته بأنه عالمُ آثارٍ أو ما شابهَ ذلك والتقطَ نقيرًا كان مدفونًا في الرمال، راح يزيلُ عنه الغبارَ والصدأ معلنًا عن وجودِ بصماتِ ذئبٍ على نقيرِ القيامة.

قايله، ١٩٩٧



## Meditation

كانت صامتةً تحدقُ إلى الزاوية كقديسةٍ في لحظةِ إشراق. فجأةً هجمتْ عليَّ لاهثةً تصرخُ بي:

«تعالَ

تعالَ يا عنكبوتي».

قايله، ١٩٩٥

## اللُّعبة

في ظهيرة خريفٍ دمشقي وفي الطابق الثامن من بنايةٍ قرب قاسيون كنتُ راقدًا على الصوفة وعيناي تحدّقان في السقف تعدّان النجومَ التي تتلمظُ بضيائها الأحمر. كان قاسيون يهدّدني بالردم وكنتُ أردّدُ بيتَ شعرٍ حفظتُهُ في طفولتي عن جبلٍ (أرعنَ طمّاحِ الذؤابةِ باذخٍ يسدُّ مهبَّ الريحِ من كلّ جانبِ) فجأةً سمعتُ وقعَ أقدامه على السلّم.

«أخيراً جاء...»

قلتُ لنفسي واصطنعتُ تجاهلاً وحزنًا يليقان بكبريائي.. الأقدامُ تقترب.. اسمع لهاثهُ والشتائمَ التي كان يكيلها لي.. ضحكتُ شامتًا به.

«أخيراً جاء..»

وأضفتُ: «العرص»

إنه يقتربُ من الباب.. لحظاتٍ ويرنُّ الجرسُ.. دقائق ويرنُّ الجرسُ.. ساعات.. أيامًا...

ماذا جرى؟

هل عاد أدراجهُ؟

هل ندمَ على المجيء؟

يا إلهي

ماذا جرى؟

دمشق، ١٩٩٥



## سهرة

أنا وملائكة كنّا نشربُ خمراً في ماخور، سكر ملاكٌ وتقيأ فحملتهُ إلى سريرِ عاهرةٍ انتحرتْ أمس، كان غاضبًا وظلّ يهلوس طوالَ الليل. ملاكٌ ثانٍ كان شبقًا كقردٍ، وثالثٌ راح يجدّفُ على اسم الربِّ فرجوتُهُ أن يكفينا دوخةَ الرأس فلم يمتثلْ حتى تلاشى وحلّ محلهُ ملاكٌ أشرم.

انتهتْ ليلتنا بصمتِ مَنْ ينصبُ فخاخًا.

بودابست، ١٩٩٥

## مشهد

يجلسُ على كرسيّه متوّجًا بالصمت وحاشيتهُ الفراشات، ملكٌ تنازلَ – عن طيب خاطر – ووزعَ سطوتهُ وجواريه على الرعيّة الطامعة بكلّ شيء واكتفى بالوهم، كنتُ أراهُ كلّ يوم جالسًا عند نافذة شقّته كأنهُ ينتظر غائبًا لن يعود، وحينما يعود الليلُ وحدهُ ينهضُ الشيخُ ببطءٍ نحو النافذة، وقبل أن يسدلها يرفعُ عينيه نحوي فألمحُ فيهما ظلال ابتسامة حانية.

منذ أربعة أيامٍ وهو لم يتزحزح عن كرسيهِ كأنهُ في تحدٍ مع الانتظار، يتابعُ خطوَ الفكرة

في مدارها منذ ولادتها حتى تشيخ، صامتاً يحدقُ في الفراغ كمن يبحثُ عن كوكبٍ منسيٍّ في حبّةِ رمّان.

فجأةً توقفت سيارةُ إسعاف عند باب المبنى المقابلِ لشقتي، خرج منها رجلان يحملان نقالةً.

ثم صمت وستارةٌ مسدلة.

دمشق، ١٩٩٧

## بشّار

كلّ ليلة، حين يغادرُ المصلّون تاركين أوزارهم ويُغلقُ بابُ الله، يظلُّ الأعمى وحدهُ مطيلاً سجدتهُ، يصغي إلى حفيف أجنحةٍ وألحانٍ تعزفها آلاتٌ سماويةٌ كأنها تعيدُ خلقَ العالم كلّ ليلةٍ. الليلةَ وفي استغراقة تأمّلٍ فوجئ بأنهُ لم يعدْ يسمعُ غيرَ عواء ذئابٍ على قمرٍ مخسوفٍ لامسَ شرفتيه المُطفأتين، عندئذ فكّرَ أن يسرقَ السماءَ نجمةً نجمةً، أو يكسرَ بابَ الله أو يخرجَ إلى الشارع يسوق أوزارَ المصلين.

فكّر أن يرفعَ الأذانَ في غير أوانه،

..............................

..............................

قبيلَ الفجر

دبٌّ على النبية النائمة في المحراب.

دمشق، ١٩٩٨

## كالعادة

اعتدلَ بجلسته، سحبَ نفساً عميقاً من سيجارته ثم دفعَ بطرف سبابته البيدقَ الأبيض خطوتين. انتظر قليلاً ثم نهضَ من كرسيه ولفَّ حول الطاولة ليجلسَ في الطرف الثاني، وبعد لحظة تفكيرٍ دفعَ البيدقَ الأسودَ باتجاه عدوّه المتقدم. عادَ إلى جلسته الأولى محركاً الحصانَ الأبيض.. وهكذا ظلَّ يتنقلُ من جهةٍ إلى الأخرى والسيجارة لا تفارقُ شفتيه وعيناه تحدّقان في الرقعة كعينيّ ضبعٍ يدورُ حول فريسةٍ تقاومُ الافتراس.

فكّرَ أن يتواطأ مع أحد الفريقين ضد الآخر، ودونما تردُّدٍ اختار الجيشَ الأسودَ لكن سرعان ما اكتشفَ حماقتهُ فأنقذَ الملكَ الأبيض من المأزق الذي استدرجهُ إليه لتنتهي اللعبةُ – كالعادة – إلى التعادل، التعادل الذي يثيرُ في نفسه الحنقَ والاشمئزاز.

دمشق، ١٩٩٨

## بنات آوى

نوافذُ مضاءةٌ على طول خطِّ الأفق، الساعة الثالثة فجراً، نوافذُ مسدلةُ الستائر وأنا منتعظٌ، بناتُ آوى يحفرنَ راسي كمثقبٍ كهربائي «بناتَ آوى ما الذي تردنهُ مني ؟» يقولُ سعدي يوسف ، ها أنا استيقظُ من موتي، تعالي، أنظري إليه ستربن النبضَ بأُمِّ فخذيك، نافذةٌ مضاءةٌ، مراهقةٌ تمارسُ العادةَ الشهرية، أنا منتعظٌ، بناتُ آوى يتعالى عواؤهن في راسي، سيدةٌ في الأربعين من عمرها تمارسُ الجنسَ مع الليل، أتجاهلُ طولَ قضيبه وأحدّقُ إلى قاعِ البئر، أنا ظامئ، عجوزٌ تمدّ يدَها بين فخذيها سهواً، من أين جاء هذا الشرخُ في الجدار؟ أحدّق فيه طويلاً، أسمعُ لهاثاً، أنيناً، بكاءً، عُواءً، نوافذُ مضاءةٌ في صحراء، على البابِ إعرابيان عقلا بعيريهما وراحا يلعبان البليارد، في الهودج امرأتان تتساحقان، عُواء، «بنات آوى ما الذي. . .» خطواتٌ أعرفها تصعد مرتابةً سلّمَ الخوف، دقاتُ قلبٍ، أفركُ مصباحَ الشهوةِ «شبيك لبيك هذا النهدُ النافرُ بين يديك» أعصرهُ، أصغي إلى لهاث البنفسج، تسطعُ قطرةُ جمرٍ، أرشفُها، أنا ظامئ، لا أرى غير صورتي، عُواءٌ مجنونٌ في الماء «بنات آوى ما الذي تردنهُ مني؟» أُرددُ مع سعدي يوسف، بناتُ آوى يعزفنَ على أوتارِ الصدغين بمخالبَ من حديد، أنهضُ، أُبلّلُ ريقي من زجاجة السمِّ الذي ادّخرتهُ لمناسبة موتي، ما بين المطبخ والصالة أمري منتصباً، مصطنعاً كبرياءً تليق بموتي، عُووووو!!!!!!ء، والنوافذ لا تزال مضاءة..

يا إلهي

رأسٌ واحدٌ لا يكفي

فايله، ١٩٩٩





كاتب وشاعر عراقي مقيم في الدنمارك

فـؤاد مـيـرزا

# الغرفة

**غرفة ١**

إنّ العملية برمّتها، تتوقف على هذا القلب ونبضاته التي لا أرى لي عليها أيّ سلطان.

تك تك.

كنت أرقب تلك الساعة وأسمع الدقات التي تضعف، والقلب الذي يكاد يغفو.

قرع الولد الطبلة بإيقاع جميل، أذهلني الوقع وقدرة الولد على الضرب وعلى التلحين. غنّى الولد بكل ما كان يمنحه قلبه الفتي ورئتاه من قوة. كانت أغانيه تتحدث عن جنيّات صغيرات يحمين الناس من الشر والموت ولؤم عيون الناس، على الفتى بلغة «قبلية» عذبة، تحدث عن آلهة طيبة. تحدث عن ساعة الخلاص، وعن العالم الذي سيغدو جميلاً، بلا سجن ولا أمراض ومكائد.

حين توقّف عن الضرب، قال لي: أنا لن أموت، وإذا جاء الموت على شكل طوفان، فسأختبئ داخل دولاب ثياب أمي وأطفو مع الماء. وإذا جاء الموت على شكل دودة مرض فسأسحق رأسها بالطبلة هذه، وإذا جاء الموت بعد مئة عام فذلك سيكون آخر الزمان، وآخر الزمان سيموت كل الناس. وقتها لم افهم شيئًا مما كان يقوله.

كان قد أسرني فتبعته.

في دارته أراني سبع حيّات، بكل الألوان، نائمة في قوارير خزفية باردة. عند الزاوية، كان هناك كبش عظيم تفوح منه رائحة نفاياته، التي بعثرها في كل مكان. أخبرني الولد عن موعد موت الكبش. ذلك سيكون يوم السبت. ثم تذكّر انه سيكون يوم سبت على اية حال، وسيكون ذلك السبت موعداً لختانه. داعبت بأصابعي حيّة خضراء رطبة. اكتشفت بين طيات جسدها سرّاً بارداً قديمًا. شجّعني الولد على ملامستهن جميعًا. كان صادقًا، فكل حيّة لها ملمس وسرّ مختلف. لمست فروة الكبش وكانني ألامس روحه وحكمته الخبيئة. أراد الولد أن يسحلني إلى السرداب ليريني أعظم الأشياء.

في السرداب أخرج لي الولد من صرّة في دولاب ثلاثة مكعّبات عاجية بنقاط ملونة. ولأني لم أرَ حجر نرد من قبل ولا جواهر، فلقد ظننت بأنها أحجار كريمة. ذلك الولد العجيب كان يملك كل شيء في الدنيا.. أعطاني واحداً من مكعّبات النرد وقال: «خذه، إنه لك». لم أكن أريد مفارقة الكبش الرائع ولا الحيّات. عُدت إلى البيت وقد امتلأت روحي بنفر مذهل، ورقص حيّات، وروح كبش.

لم يكن الولد صادقًا في موعد ختانه ولا موعد موته. كان يوم السبت حقًا. ولقد وجدوه ميتاً وأفاعيه ترثيه بنحيب.

نسيت كل ما قام به وما قاله، غير أني احتفظت بحجر النرد كسرٍّ مقدس.

دخلتْ عليَّ ابنتي وقالت: «العشاء جاهز».

قفزت إلى الخلف ومضيت أعدو عكس الجميع. كنت أعود إلى الحاضر مع انجراف سيل العلق الزّلقة.

مدينة نيويورك تكتظُّ بمارّة يروحون ويجيئون ولا يغادرون الشارع.

تحت الأرض كانت دودة المترو تصفر.

قرر أحدهم أن يجرب الطيران فحلّق من مبنى دائرة عمله في الطابق المرقّم ٧٧. كثير من سكان هذه المدينة تأتيهم الرغبة ذاتها في السابعة صباحًا، بعد تناول القهوة مع «الدونَت» والتحيات والابتسامات المزيفة. كان رجلاً بدينًا قد تجاوز الأربعين، فلم يحمله هواء نيويورك الثقيل بعيدًا. حتى لمشهد عصير الطماطم المندلق على الرصيف لم يُثر انتباه أحد.

قال لي فائق: «مرّات عديدة تحاشاني الموت. ومثل جلجامش مضيت إلى العالم السفلي لأصارعه وأقتله».

أربعون درجة سلّم، ثم تجد نفسك في العالم السفلي. وحين تكتشف أن المترو والأرواح العجلة ما هي إلا وهم، تقودك قدماك دون أن تدري إلى العالم الشيطاني الملتهب. حشرات وجرذان ضخمة تحاول أن تثنيك عن المضيّ قدمًا. وطاويط مقاتلة تقصف عينيك وتنتف شعرك. وإذ لم تكن قد تزودت بمدية أو سلاح ناري فعليك أن تستسلم لتنّين البانثيون. حين حلّ الليل وضعت رأسي بين ركبتيّ ونمت. أحاطت بي قامات فارعة موشومة، ومزوّدة بفؤوس وحرادين طويلة. تلك القامات تشبه القامات الفارعة لصيّادي حيتان «موبي دك».

لم أكن حوتًا، ولا جلجامش الفتيّ المستعد للقتال. جرّدوني من كل ملابسي، وتركوني عاريًا للبرد. قاموا بزيارتي كلما دبّ فيهم الضجر ليجرّبوا بجلدي حدّة سكاكينهم.

حينما عثر عليّ حراس المترو بعد ثلاثة أيام. وجدوني أرتعش من الجوع والبرد، وفمي

ينزف. لقد انتزعوا خاتمي، ساعتي وأسناني الذهبية، ولم يقتلوني. كان مشهدي وأنا أتعذّب أكثر إثارة لهم من القتل السريع الذي اعتادوا عليه.

العشاء جاهز في المستشفى وحين استعدتُ وعيي عرفت أن خبر موت أمي كان حقيقة، وأني دخلت مترو نيويورك ولم أخرج منه إلا بعد ثلاثة أيام.

ارتطمت برجل عظيم الجثة، وسقطت على الأرض.

أجلس إلى مائدة باردة وأتناول طعامي وحدي. أمي ضاع صوتها وهي تحثّني على الطعام، ماتت أمي غمًّا، ويئستْ مني زوجتي هي الأخرى. وها هي ابنتي تتعلّم طبائعي وتصرُّفي العجيب.

السمك المجفّف خاصة يذكرني بوجه ذلك الرجل الضخم.

علت الزغاريد في الدار. رفع الرجل الضخم أمي ودار بها ثم رماها في الهواء مثل طفل صغير. لم أرَ أمي تقبّل رجلاً آخر غير أبي قبل هذا الوقت. حينما دخل الرجل الغرفة كان عليه أن ينحني، ويبقى محنيَّ الظهر حين يقف. يرتدي العملاق معطفًا طويلاً بصدرية سوداء مزخرفة ومفضّضة حدّ الركبتين. للمعطف جيوب سرّية خبيئة. أخرج العملاق من جيوبه أكياسًا من الفستق والجوز والمن والسلوى. أكل أولاد الحي جميعًا. تذوّقوا فستقًا وجوزًا لأول مرّة. أما السمكة العظيمة المجففة، فقد قطعتها أمي إلى قطع وخبّأتها في السرداب. كان ذلك الرجل هو خالي الذي لم أره قبل الآن قطّ والذي تضوع منه رائحة المناقل الجبلية والجوز والسمك المجفّف. لم أر في حياتي رجلاً باهرًا مثله. لم أر معطفًا جميلاً كمعطفه، لم أر قلنسوة من فروة الأسود كقلنسوته.

ناولته أمي الشاي مع مكعّبات السكر. وضع خالي مكعّبات السكر في فمه وأخذ يرتشف الشاي المرّ وهو يتحدث. تحدث وبدا وكأنه يحلم، يعود بذكرياته إلى ماضٍ لم يكن بكليته جميلاً. وانتبهت إلى قلنسوته قرب المنقلة التي كانت فيها الجمرات تطقطق، والنار تهدأ. انتبهت إلى خط رمادي في شعره، لم أكن قد رأيته من قبل. الخط الرمادي قادني إلى تجاعيد جبهته والغضون تحت جفنيه. يداه الضخمتان كانتا معروقتين، ترتعشان بين حين وآخر. حينما تحلُّ الظلمة، لا يبقى لنا غير جمرات المنقلة مصدرًا للضوء، وخلل الضوء الخافت للجمرات، بدا وجه خالي العظيم حزينًا بشكل غريب. بدا هو نفسه ضعيفًا. كان يرتشف الشاي المرّ ببطء وبصوت مسموع. كانت أمي تتابع كلماته وتطارد حلمه، ومن عينيها لاحت التماعات دموع أخفقت في إخفائها.

نمنا أنا وأخوتي السبعة فوق الأرض تلك الليلة. اطفأت أُمي جمرات المنقلة بماء بارد. تطايرت سحابة رماد المنقلة وحطت فوق الافرشة والنفوس مثل لوعة. نام الجميع تلك الليلة، وصدورهم تتحشرج بصوت مسموع. أنا وحدي كنت يقظًا أُراقب خالي الذي كان يتقلب وقد ضاق به السرير. استيقظ خالي مبكرًا، وكان قد نسي حزنه واستعاد قوته. عاد من جديد عملاقًا جبليًا بهيًا.

اختارني من بين أُخوتي، وأجلسني في حجره، ثم أخذ يرفعني بركبته ويهزّني بقوة. فجاة توقّف، ووضع إصبعه وسط جبهتي. فأحسست بحريق في تلك النقطة بين حاجبيّ.

كلما أُغمض عينيّ الآن أُحس بحريق جمرة حمراء وسط جبهتي. الجمرة تخبو وشعاعها يبيضّ وينتشر. يتّسع. يتّخذ شكل مكعب كرتوني خشن الملمس. أدخل غرفتي (مكعب الكرتون) وأُغلق خلفي الباب.

## غرفة ٢

أغلق غرفتي بإحكام. استلقي فوق الارض مباعداً ما بين قدميّ وأُشابك كفيّ تحت رأسي.

الظلمة عميقة.

أهدأ.

أملا رئتيّ بهواء رطبٍ فاسمع فجاة صفيراً وحشرجة بعيدة.

أُغمض عينيّ وأغوص في أعماق ظلمة لها أمواج.

لقائي بالبحر كان لقاءً غريبًا. دعتني، بل قادتني، للتعرُّف إليه فتاة إيطالية. وأنا الذي لم تكن لي خبرة بالنساء ولا البحر، ولا معانقة الطبيعة عاريًا على الرمل، استسلمت تمامًا لخبرة الفتاة وبصيرتها الثاقبة. اختلت بي عند حافة المياه تحت عشيات بعيدة عن العيون. كانت السماء مطفاة، ولا رقابة حولنا غير أضواء بيوت وفنادق «اوستيا ليدو» البعيدة والتي أخذت تغمز لنا مشجّعة بعهر.

صاحبتي التي رقصت مع الإيقاع الرتيب المتكرّر لقالس الامواج، اكتشفت مواهبي الضحلة في هذا المضمار وانتبهت لرعشات أصابعي الوجلة المحمومة. ناولتني سيجارة فكدت أسحقها بيد جافلة.

قالت: «إهدأ واسمع الأمواج».

وضعت رأسي على رمل بارد، وأغمضت عينيّ، فاخذت رعشة وحُمّى التجربة

تفارقني.

داخل روحي المتّصلة بحبل المشيمة السري الذي يربطني بالأشياء، أحسست بدفء وأمان حقيقيين.

أنا الذي لا أقبل أن أقاد، عرفت أنني لم أكن مستعداً للمضيّ.

هل كنت قد غفوت؟.. لا أعرف، غير أنني كنت أشم الوجود والبحر والرمل. كنت أرى كل شيء عبر حاسة الشم: جثث الأصداف البرّاقة والعناكب المائية السوداء العالقة بالصخور، البطون الحلزونية واللولبية لمتاهات بحرية صغيرة، طحالب تحت مياه عميقة، أقراص ماء تنفث الرمل.

كانت الروائح الغامضة تسري عبر خياشيمي، تخترق الحبل الشوكي والنُّخاع وتتفتّح في عقلي مثل تفتّح مياسم ملونة. صور الأشياء المحيطة بمتضادات لونية شديدة، تتفتح أمام عينيّ ببطء وببهاء ممتزجة بمقذوفات بحر الماضي السحيق.

كنت قد هدأت وأخذت أنفاسي تتواقع مع ضربات المويجات الخفيفة التي كانت تنبسط على الرمل.

صدري يعلو ويهبط بهدوء.

شش..

شش..

وأحسست بأن الأمواج قد أحاطتني من كل جانب، وأخذ جسمي يخفّ، وروحي تصفو.

رفعتني مياه دافئة وفصلتني عن بساط الرمل. كان فيض المياه السرية قد غمر جسمي وجعله يطفو وينساب إلى البحر.

لقد تعرّفت على البحر.

وضعت منظار الغوص واختطفت حربتي ومضيت أستكشف القاع القريب من الشاطئ. رأيت عالمًا حلميًا كان قد صنع خصيصًا لشاعر أو رسام. ذلك العالم المتموّج المكتظّ بكنوز الضوء وأشكال التجريد الملوّن. ولو لم يكن الهواء في قنينة الغوص ينفد مع الوقت لما كنت عدت إلى اليابسة. دعاني البحر لملامسة القيعان العميقة حيث الزرقة السرمدية السرية الباردة، حيث تختبئ أسرار البحر وتُحرس بإرادة أسماك قرش لها وجوه تشبه المناشر والمعاول.

ما احسست بالخوف في ذلك العالم البعيد عن أذى الإنسان غير مرة واحدة.

لم أطلق حربتي على ذلك المخلوق الغامض الذي كان يتقدم منّي.
كان شيئاً داكناً لا شكل له ولا لون، يزحف ببطء قاتل فيحجب ضوء الشمس عنّي. لم يكن سمكة ولا حوتاً، بل كان يشبه طبقاً طائراً مائياً أسود. حاولت أن احشر جسمي بين الصخور كي لا يراني، وحينما امسى المخلوق فوق راسي تماماً، توقّف لبرهة بدت لي وكأنها دهر كامل. كان قد حجب بجسمه المسطح العريض كل منفذ للضوء فوقي وكل الهواء في رئتي. شككت تلك اللحظة بنبوءة العرّافة الغجرية التي حدّدت موعد وتاريخ موتي، لم اكن وقتها قد تجاوزت نصف ذلك العمر بعد، ولا أعرف لماذا تذكرت أُمي في تلك اللحظة.

الآن كان بوسعي رؤية الاخطبوط العملاق وأذرعه الطويلة التي مدّها لتتذوق جسمي الساكن. الاخطبوط المسكين كان يتصوّرني سمكة من نوع فريد لم يعهد له أن رآه أو تذوقه من قبل، فاخذ يتفحّصني ويجسّني ويلحسني بصمامات أذرعه المخاطية. لم يعد بإمكاني الصمود، فقفزت من مخبأي وبدأت بالسباحة باتجاه الشاطئ. كان ذعر الاخطبوط أعظم بكثير من ذعري. التفتُ فرأيت الاخطبوط يسبح وهو لا يلوي على شيء باتجاه الجهة المعاكسة.



حينما وُلدت انا لم ينم تحت سريري غير جدتي.
ماتت جدتي تحت سريري بعد عامين من ولادتي. انا وجدتي لم نكن نفهم سبب العجالة لذاك الفراق. قالت لي أمي: « جدتك تشبثت بيدك وقالت لا أريد ان اموت، لا أريد ان أحرم من رؤيتك »، غير انها ماتت على كل حال. كانت لها عينان بلون أعشاب الماء. ورثتُ عن جدتي هيامها وتعلّقها المدمّر بالاشياء. انا لا اعرف هل كانت جدتي حقيقة أم حلماً. هل كنت قد نظرتُ إلى وجهها أم لا. لكنها عادت لتراني مرّة واحدة بعد ذلك. ميّزت وجهها من بين وجوه العجائز جميعاً.

حينما كنت مريضاً، وقد فشل الجميع بمعرفة سبب مرضي او طريقة شفائي، دُعيت النساء: امتلأت غرفتي بالعجائز، أسراب من أجسام ذاوية، عيون واسعة، واصابع طويلة معروقة. مسّتني العجائز في كل انحاء جسمي. كنّ يأتين وينحنين فوقي. يتمتمن تعاويذهن بعيون جافة تكاد تدمع..

ثلاثة شهور كنتُ طريح الفراش وسيل العجائز لم ينقطع. لم يكنّ يدخلن من الباب، بل عبر الجدران بأجسام ضبابية. آلاف وآلاف من الجدات حتى البداية الزمنية السومرية للأرض، جئن ويكين عند سريري. رتّلن الجمع ما تعلّمن من تعاويذ كي أبقى على قيد الحياة. نجحت العجائز بإقناع شيطان الموت وقد تفطر قلبه للوعتهن فتركني لحالي.

قبل أعوام كثيرة من ذلك وحينما كنتُ في العاشرة من عمري ومصاباً بالصفرة، اصطحبني أبي لرؤية أقاربه في الجنوب. كانت السيارة تخضّ أمعائي والشمس تصهر عقلي. فكانوا يضطرون للتوقّف كل ساعة لكي أتقيّأ أو أبول. توقّفنا في أماكن خيالية انقطع عنها الزمن منذ قرون. كان الناس يعيشون في أكواخ بلا أبواب ولا نوافذ بُنيت من الطّين والسعف والقصب. يبيض الدجاج في النوافذ وعند الوسائد أو قرب مرابط الكلاب. تلك المدن والقرى العجيبة في أقاصي الجنوب والمليئة بالشمس والطيور والدجاج والكلاب والنمل والذباب. هل كانت تلك المدن حقيقة أم محض نسيج مخيّلة طفولية؟ لا أعرف. كانت المدن الكبيرة التي توقّفنا عندها لها أسماء قديمة صدئة لا أعرف لماذا سمّيت بذلك مثل: كوت، شيخ سعد، علي الشرقي، علي الغربي، عمارة. كانت العمارة هي المدينة الأخيرة في قائمة النسب ورحم الدم، وكانت مسقط رأس أبي وجدي. في تلك المدينة رأيت أكبر عدد من العجائز المعمّمات الموشومات. العجائز لهنّ عيون خضر يشبه لونها لون أعشاب البحر.

طوال الوقت وأنا في سيّارة الأربعين راكباً، بقيت أنظر للمياه الزئبقية فوق أسفلت الطريق والتي كانت تظهر وتختفي، متجنّباً وجه أبي ووجوه المسافرين المتارجحة المملّة وهي تصحو عند كل حفرة أو انعطافة في الطريق. حينما وصلنا أخيراً إلى الحارة التي ضمّت طفولة أبي، أحاطت بي عماته وخالاته العجائز من كل جانب.

احطن بي، رفعن كفّي النحيلة وقبّلن كل إظفر من أظافري القذرة الملطخة بالطين والسخام. قبّلن رأسي، عينيّ، جفنيّ، وجنتيّ، صدغيّ، شفتيّ، حنكي، عنقي، جبهتي. ألف قبلة، ألفين، ثلاثة آلاف. كان رأسي يدور بفعل الجوع ودوخة الصفرة ولعاب العجائز فسقطت على الأرض مغشياً علي.

وحينما استيقظت وجدتُ نفسي محاطاً بحفنة من الصبيات القانتات.

قال عمي يخاطبني وقد أطلّ فجأة من باب الصريفة: «تأمّلهن ملياً، والتي ستعجبك سأزوجها لك حالاً».

غطت الصبيات كركرات حيائهنّ بأكفهن. أما أنا الذي كنت متوعكًا، محرجًا، وبطني تقرقر من الجوع، فلقد أغمضت عينيّ لأتخلّص من لوعة الحرج التي أحسست بها تلك اللحظة. ذلك العالم كله كان جديداً وثقيلاً علي. هل كان ذلك الرجل النحيل والمتغضّن بشكل واضح، والذي عرفت في ما بعد بأنه عمي، جاداً في ما قاله؟ هل يحق لي، أنا ابن العاشرة القذر والخجول إلى أبعد الحدود، أن أختار وأتزوج؟ كنت أفكر بسرعة ولكن مليًا كما لو أني أُثقلتُ فجأة بهمّ مسؤولية مبكرة. حينما غادر عمّي المكان، تجرّأت وفتحت عينيّ وأخذت أتأملهن مستغلاً انشغالهن بالحديث. كنّ يتغامزن ويضحكن وهنّ يثرثرن بهراء سعيد عن ألوان الثياب والطيوب والأحذية. يصمتن لبرهة ثم يعاودن الضحك والغمز وقد تذكّرت إحداهن حادثة طريفة ما أو عيبًا من عيوب صويحباتهن. الصبيّات تسامرن كما لو كنّ في خلوة. أما أنا فكنت هناك في الوسط مستلقيًا على الفراش ومحمومًا بفعل الوحشة والخجل. الصبيّات تصرّفن بحرية كما لو لم أكن موجودًا، ضحكن وثرثرن بقلوب لم تعرف الهموم بعد.

واحدة منهن كانت تختلف. تلك التي لم تكن ترتدي ثوبًا زاهيًا كالأخريات. كان يبدو أنها أصغرهن أو أقصرهن. لم تكن تضحك ولم تكن تشارك بالحديث، بل كانت تحدجني بعينين من نار. كانت قد ارتدت ثوبًا أسود وأغرقت عينيها بالكحل وشفتيها بلون الديرم البنيّ، كانت داكنة السمرة ولو لم أكن قد سمعتها ترطن باللغة الفيلية لظننتها ابنة الجيران الأعراب. عيناها لم تفارقاني لحظة واحدة. كان فيها شيء أكثر بل أهمّ من الجمال. شغلتني الصبية فأخذت أفكر بها وأرى وجهها الصاخب داخل روحي وأنا مغمض العينين. فجأة أحسست بفيض من الوعي يجتاحني. هل اختارتني تلك الصبية زوجًا لها، لذا فهي تحرقني بنظرات فيها حرص ووجد واستعداد للقتال والموت من أجلي. كانت الغرفة بأسرها غارقة بذلك الشذى الحلو الذي يعبق ويميّز قرويات الجنوب. كان شذى صنعته خبرة فطرية يمتزج برائحة الحناء والديرم وماء الورد. تجرّأتُ ونظرتُ وسط عينيها الداكنتين. أحسست فجأة بالحمّى التي فارقتني قبل ساعة تعود إلي وتجتاحني مثل شعلة في هشيم. لم يكن هناك متّسع للخيار. كانت نظراتنا وحدها هي التي تتكلم ببلاغة تحت ثرثرة وزعيق الصبيات المتواصل. أحسستُ بأني رأيتها بل عرفتها منذ زمن طويل وفي مكان قبل أن أولد.

دخل علينا ولد حليق الرأس بأذنين ضخمتين وابتسامة خرقاء. رفع أمام وجهه خرقة ملطخة بلون أحمر وهتف بكل حنجرته: «حورية تحيض مثل جرية». انخرطت كبرى الصبيات في بكاء مرير بينما انفضّ عقد الصبيات وهنّ يطاردن ويقذفن الفتى الأبله بكل

ما كانت تقع عليه أيديهن. لم أفهم إلا بعد سنين من ذلك مغزى تلك الحادثة وقسوة الكلمات الجارحة. حورية أكبر بنات عمي لم تتزوج وأصيبت بعد سنوات بمرض نفسي خطير وعقدة التطهُّر. ألقت بنفسها في دجلة حينما دخل عليها دون قصد أحد نزلاء الدار الحمّام ولمحها وهي نصف عارية. أما ابن عمي عيسى الأبله، فقد قُتل في حرب «الجاجه ضد الكاكه أو الجنوب ضد الشمال» والتي شنّتها السلطة بذكاء للتخلّص من القوميتين.

كان هناك وقت لنا أيضاً، كانت تلاحقني وتدلني من أجل اللقاء في الأماكن الأكثر أمناً. وضعت يدها في يدي وكأنها تعرفني منذ قرن، قالت: «أنا ملكك.. تزوجني وخذني بعيداً عن هذا المكان». كانت قصيرة ونحيلة ولكنها متأجّجة مثل لهيب مشعل. كانت تكبرني بثلاثة أعوام على الأقل، وتعرف أشياءَ وأسراراً لم تكن لتمر على مخيّلتي التافهة.

كانت تروق لي، وهي تعرف ذلك.

بعد لحظة صمت واحدة، التقت فيها نظراتنا، حلّ شيء فيها كالزلزال. انقضّت علي تقبّلني بحرارة، تعض رقبتي عضاً خفيفاً وتسحق إصبعي بيدها الهبولة. أحسستُ بفرح وتألّق ضوء آسر في داخلي. لقد قبّلتني الصبية ليس لأني طفل ضعيف بلا عقل ولا إرادة كما تفعل كل العجائز، بل لأنها امتلكتني وتوّجتني ملكاً.

كان ذلك شعور لم أكن أعيه أو أعرف بوجوده قط. وسريعاً سريعاً أخذتُ أفكر بمسؤولية حماية الصبية والتي غدت أكثر من أمي تلك اللحظة. أحسستُ فجأة بأنني قد هرمت وأمسيت بسن أبي. أما هي فاحتلت مكان أمي. كنت أفكر بأن عليّ واجب إسعادها، وشراء الهدايا الرائعة وابتكار الألعاب لتسليتها. وأردت أن أقول لها شيئاً بليغاً يسحرها. ثم تذكرت بأنني لا أعرف اسمها بعد.

وضعتْ هي في إصبعي خاتماً رخيصاً وهتفت بحرارة: «اسمي عنّة.. أنا لك إلى الأبد».

بقيتْ عنّة طوال فترة إقامتي معهم تخدمني وتذود عني وتخصّني كل صباح بطاسة من اللبن الخاثر الذي كانت تلذُّ لي قشطته.

حينما عدت إلى بغداد، أنساني أبناء الزقاق وبسرعة كل مسؤولياتي والتزاماتي تجاهها. ومع الأيام تحوّلت هي إلى حلم. حلم حلو ولكن قديم وغير مهم. لم أعد أفكر بها قط وكلما مرت بخاطري، أنفض كتفيّ وأقول: «كم هي شقية تلك الخنفساء عنّة». وهذا ما فعلته تماماً حينما أخبروني بموتها. قال لي أبي: «أتذكر ابنة عمك عنّة.. ماتت بالسل». نفضت كتفيّ بلا مبالاة وعدوت إلى الزقاق حيث لعبة الكرة على وشك البدء. لقد حققنا

أربعة أهداف مقابل هدف واحد لفريق الحي المجاور. لم يبق على انتهاء المباراة إلا دقائق قليلة ولعبوا بفوضى ووجهوا الكرة بعصبية وعشوائية.

أصابتني الكرة بحدة فوق فمي وأحسست بسائل مالح حار حول أسناني. كانت شفتي العليا قد شقّت وأخذ الدم يملأ فمي فابصق على الارض وامسح اللُّعاب الاحمر بالمنشفة البيضاء. كنت قد أبعدت إلى الخط الجانبي بينما استمر اللعب بحماس. دقائق قليلة واعلن الحكم، وهو صبي طويل بارع وعادل، عن انتهاء المباراة وفوزنا الساحق. مشيتُ مع الاولاد وأنا اقطر عرقًا وفخرًا. اضغط باسناني على المنشفة التي اصطبغت بالدم وأتمتم باستخفاف على كل سؤال يوجه لي: «كلا.. مجرد شق صغير تحت شفتي العليا، لا داعي للقلق يا صقور الماء». كان اسم فريقنا هو «صقور الماء» اما اسم الفريق الغريم فهو «الأسود الحمراء». لم يلعبوا كأسود بل كقطط مذعورة. أكرر بيني وبين نفسي من جديد: «لا داعي إلى القلق على الإطلاق» ثم استطرد بعد برهة دون ان اشعر: «كم كانت رائعة تلك العنّة».

استيقظت على لسعة شمس وجلبة المصطافين الذين بدأوا بالزحف إلى الشاطئ. كانت الفتاة الإيطالية قد غادرتني تاركة حول عنقي حريق عضٍّ خفيف، وعلى قميصي عطرًا أنثويًا مميزًا. بدأ المصطافون بفتح المظلات وتهيئة المناشف والبسط على الرمل.

كان البحر صفيحة من معدن، وكان الرمل ساخنًا وهشًا، وكانت اقدامي تغوص عميقًا عميقًا فيه. غادرت غرفة رأسي (الغرفة الكرتون) وبقيت حزينًا طوال اليوم.







كاتب وتشكيلي عراقي مقيم في الولايات المتحدة الامريكية

علي مصباح

# الدّابـرْزي

الكلّ يعرف أنّ عودة الدّابرْزي ستُدخل على حياة الناس حركيّة وهرجاً قد يستمرّا لبضعة أسابيع.

شاع الخبر ليلاً على ما يبدو، فوجدت القرية نفسها، منذ فجر يوم الخميس، تستعر بحركة قذفت بكل أهاليها إلى السّاحة الكبيرة حيث تقام الأعراس واحتفالات زردة «أولاد دابرز» في بداية كل خريف.

ساحة الشهداء - ساحة المَنْدرة سابقًا - تشتعل منذ الفجر بخبر عودة الدابرْزي بعد غيبة كادت لطولها تجعله في عداد الأموات. بل لقد رجّح الكثيرون مسألة موته حتى أنّ بعض أهالي قرية «أولاد دابرز» قد دعا إلى أن تقام عليه صلاة الغائب لوضع حد لوضعيّة الحيرة في أمر غيبته، وحتى لتستقرّ روحه هنيئة في مقامها الأخير؛ دعوة زجّت بالناس آنذاك في دوّامة مجادلات عنيفة تقاذفوا فيها شتّى النّعوت والسّباب، وقد بلغ الأمر حدّ انقسام الأهالي إلى فرقتين كادتا تنتهيان إلى مأزق تكفير الواحدة للأخرى، لولا ألطاف الله وكياسة البُرْني وسعيه الحثيث لتأطير ذلك الجدل داخل حانوته الذي هو مقرّ الخليّة الحزبيّة، والعمادة، ومركز توزيع وتجميع البريد، ومحكمة القرية التي كثيراً ما تختصر طريق النّزاعات والخصومات التي تحدث من حين لآخر لسبب يتعلّق بحدود الأراضي، أو بالتّناوب على سقي البساتين بمياه «عين الرّحمة» أو بسبب فسخ خطوبة أو إلغاء زفاف أو حالة طلاق.

فتح البُرْني حانوته للجدل شريطة أن لا يخرج عن ذلك الإطار، وأن لا يتواصل لا في الحقول ولا في البيوت، ووضع شروطًا صارمة لإدارة المناقشات داخل الحانوت، منها أن يلتزم كلّ طرف بالإصغاء إلى آراء وحجج الطّرف الثاني حتّى استنفاد المتكلّم دوره في الكلام، وأن لا تزيد مدّة المداخلة الواحدة عن عشر دقائق (اختصرها بعد مدّة إلى خمس)، وأن لا تُقحم الحجج الدّينية في المسألة إلاّ عندما تكون الحجج والبراهين

المادّية قد استُخدمت بطريقة محكمة بحيث تكون قد افضت إلى تاسيس راي مكتمل يمكن الإعتماد عليه وعلى حججه ونتائجه من أجل استدعاء راي الشرع فيه. وهو ما أُطلق عليه: «استدعاء الشّرع في راي مكتمل الحجج والبراهين». والحقّ يقال إنّ البرّني - بقطع النظر عن الفوائد المادّية التي حقّقتها لحانوته تلك الجلسات المطوّلة المتكرّرة - قد توصّل بمساعدة العمدة إلى التحكّم في المسألة وتاطيرها بطريقة سلسة ومرنة استطاع أن يتوفّق بفضلها في إخماد النّزاع بعد ان انتهى الجميع إلى اتّفاق حملي، بمقتضاه يمكن اعتبار الدابرزي حيًّا يرزق إلى أن ياتي ما يخالف ذلك، دون أن يُلزم ذلك الاعتبار أيًّا كان، لا بتسديد دين عليه له ولا باستخلاص دين له عليه، ولا بتعطيل زواج او خطوبة، ولا بعرقلة بيع او شراء بسببه. وجُعل استثمار أملاكه شركةً بين أمّه وأخوته، ومحصولها قسْمةً بالتّساوي بينهم بعد خصم ما يفرضه عليها القانون من ضرائب وأداءات بحسب المعايير المتداولة. أما أملاك زاوية أولاد دابرْز وعائداتها فلعمدة القرية اليد القانونية عليها.

خبر عودة الدّابرزي الذي هزّ أرجاء القرية فجر يوم الخميس وعطّل كلّ الأعمال وجعل الصّبية ينشغلون عن مدرستهم تاركين معلّمهم يتمشّى جيئة وذهابًا أمام الباب منتظرًا اداء واجبه، دون جدوى - ذلك الخبر قد شحذ مجددًا النار الخامدة للجدل القديم، لكن بصفة مرحة وأقلّ شراسة هذه المرّة.



انقسم الجمهور بين مهلّل ومتحذّر ومتوعّد، ومستغفر من ظنٍّ كاد يُؤدّي به إلى الكفر. وفي الحقيقة يصعب على المرء ان يجزم بما إذا كان للدّابرزي أصدقاء ومحبّون أكثر من اعداء، أم العكس، ذلك أنّ لهذه القرية شأنًا خاصًّا في المراوغة والمخاتلة وعدم التّصريح برأي واضح قاطع. والدابرزي على أيّة حال قد فرض على الناس شيئًا من الرّهبة والتوجّس والحذر في معاملاتهم معه، وذلك ليس فقط بسبب ترسانة الأسلحة التي بحوزته، وعدم إخفاء نيّته في استعمالها ضدّ الحيوانات البرّية والأهليّة والبشر على السّواء، بل لعلّ مردّ تلك الهيبة وما توحي به من رهبة هي رحلاته العديدة وغيباته المتكرّرة، ثم عوداته مليئًا بالحكايات والأساطير العجيبة، منتفخًا ببطولات متنوّعة شهدتها على يديه جبال ومناطق غريبة لم يسبق لأحد أن سمع بأسمائها، وهي كلّها مما يستوجب الوصول إليه قطع مسافات طويلة بين الأحراش والسّباسب والوهاد والغابات الكثيفة والصحاري، والأودية العامرة كلّها بوحوش ضارية من نمور، وضباع، وأسود، وذئاب، وخنازير وحشيّة، وثعابين باحجام خياليّة، وأشباح من فصيلة الجنّ والشياطين.

بسبب هذا أو ذاك، فهو مرهوب الجانب. ذلك ما لاشكّ فيه.

صحيح أيضًا أنّ هنالك أنصاراً حقيقيّين للدّابرزي وبعضًا ممن يحبّونه فعلاً، ولا يبخلون بالمفاخرة به والتّرويج لأساطير بطولاته وأعماله الجريئة. هؤلاء يعتبرونه مفخرة القرية التي تدين له بالسلامة والإستقرار، فلا مواشيها تُسرق ولا زرعها يُنهب ولا قدم غريبة تطأ أراضيها إلّا لطلب البركة من زاوية وليّها الصالح المدعو «ولد دابرزْ»، وهو حسب ما يُروى من ذريّة سيدي عبد القادر الجيلاني، قد نزل قبل بضعة قرون بذلك المكان وكان ربوة جرداء تحيط بها سهول جدباء لا تقطنها غير الثّعالب والثّعابين. ويقال إنّ موقع الزّاوية هو المكان الذي تسمّرت فيه راحلة ذلك المسافر ممتنعة عن التقدّم، مثبّتة قوائمها الأربع في التّربة البيضاء كما لو كانت نابتة هناك منذ دهور، ممّا دفع براكبها للترجّل لمعاينة سبب تسمّر دابّته وامتناعها عن السّير، وكان أن ضرب سهواً بعصا البركة التي ورثها عن أبيه (بل جدّه تقول بعض الروايات) على أديم الأرض فانفجر نبع ماء صافية عذبة، فشرب وتوضّأ، ثم صلّى ودعا لوالده بالرّحمة، وحطّ الرّحال في ذلك الموقع ولم يغادره طبقًا لما نصّت عليه الرّؤيا التي دفعته إلى التّرحال. تلك هي «عين الرّحمة» التي سرعان ما تجمّع حولها عدد قليل من السكّان الوافدين من وراء الهضاب يطلبون البركة من الوليّ الضّيف. ثم زوّجوه امرأة منهم قد بلغت الأربعين ولم تتزوّج، منتظرة الفارس الذي قدم عليها في المنام من جهة المشرق وقد روت إنّه رفعها من خصرها ورجّها رجّتين صارمتين ثم لمس بطنها لمسة خفيفة فإذا بذراعيها تورقان وتثمران فاكهة لم ترها عيناها من قبل.

قالت: هو ذا! عندما وقفت أمامه، فزوّجوه منها وأنجبا ذريّة أولاد دابرز التي ما تزال تعمّر ذلك المكان إلى اليوم.

قد يكون ذلك الحدث البعيد وانحدار أولاد دابرز من ذلك الأصل الطّيب سببًا في جعل القرية محاطة بهالة من الإحترام والرّهبة. لكن لا شيء يمنع من الإعتقاد بأنّ الكثير من ذلك مردّه أيضًا ما انتشر في الأرجاء من أحاديث حول شخصيّة الدّابرزي وأصداء سطوته وترسانة أسلحته المتنوّعة وعدم تردّده في الضّغط على الزّناد في حالات الغضب، هو الذي يحبّ أن يردّد على مسامع الأقارب والغرباء على حدّ السّواء: «إمّا بركة جدّي، أو بركة بندقيّتي».

المهمّ، هو أن القرى المجاورة كلّها تعلم أنه يدخل كل بيوتها ويعرّج على الحقول والبساتين وحظائر المواشي، ويتفقّد العجائز والمطلّقات والمرضى والنّفاس، والعائدين من الحجّ، والمتخلّفين عن زيارة الوليّ، والعوانس، وحتى اللاتي لا يزورهنّ النّاس إلّا تحت ستر الظلام. وهو الذي يُقرّر حجم العطايا المفروضة على أهالي القرى المجاورة من

أجل بركة الوليّ، وهو المشرف على أعمال ترميم الزاوية وتوسيع الحوش وطلاء الجدران بالجير، ودهن وإصلاح الأبواب والنوافذ وتجديد الافرشة والمصابيح.

ومهما بلغ شطط الدّابرزي في الطلب، فإنه قلّما خطر على بال أحد ان يُبدي تلكُّؤًا في الدفع أو تبرّمًا أو تأفّفًا، لأنهم جميعًا يعلمون مسبّقًا فورة الغضب التي تتلبّسه من جرّاء ذلك فتُحوّله إلى مارد جبّار يتهدّد ويتوعّد بوباء عامّ يفتك بالماشية والعباد والزرع، انتقامًا من «أولاد الهاملات الجاحدين لبركة جدّي الذي لولاه لما رأوا في هذه الارض غير العفاريت والأوبئة».

وأهالي القرى المجاورة لا يختلفون كثيرًا في علاقتهم بالدابرزي عن أهل قريته، يظهرون الرّهبة والطاعة والانصياع، لكنهم لا يمتنعون فيما بينهم عن ترويج شتّى الأحاديث المضحكة حول «بطولاته المزعومة وشجاعته المنتحلة». وقد سرى بينهم منذ سنين خبر أو شائعة مفادها أنه من أجبن عباد الله، وأن ترسانة أسلحته ليست سوى مظهر خادع لرعونة مستفحلة، وواجهة كاذبة تغطّي ضعفًا قادحًا في الهمّة وخوفًا شديدًا يملأ صدره. ويردّدون أيضًا (والعُهدة عليهم) أنه يمكن أن يتجمّد في مكانه ويبول في سرواله لمجرّد رؤية سلحفاة! لذلك يدعوه الكثير منهم سرًّا بـ«الفكّرون»[1].

استيقظت القرية إذن على ذلك النبأ الذي بدا يعيد إليها حركيّة انطفأت منذ خمدت زوبعة النّزاع الشهير حول إمكانيّة وفاته، ومهما تنوّعت خلفيّات ذلك الهرج بحسب اختلاف المشاعر التي يكنّها أهل أولاد دابرز لذلك الرجل، فهم على أية حال قد أصبحوا على حدث مهمّ للغاية، سيدخل القرية، بل لقد بدا يدخلها في نسق من الحياة قد يكون مشوّقا جدًا. وإنّ عبارة «هاوْ جاء!» التي راحت تسري بين الجموع المتدفّقة على ساحة المنْدرة – عفوًا الشهداء – من كل مكان، تنطوي في الواقع على دلالات عدّة؛ فهي التّرحيب، وهي التوعّد، وهي صيحة انبهار وإعجاب قد تجدّدا للتوّ، ولعلّها تنطوي لدى البعض على شيء من السّخرية وعلى وعد ضمني بإقبال القرية على مشهد جديد من مسخرة أو مهزلة ذات فصول متعدّدة متجدّدة.

ليست تلك أوّل مرّة يعود فيها الدابرزي بعد رحلة أو غيبة طويلة.

منذ ما لا يقلّ عن ثلاثين عامًا وهو على تلك الحال، بين رحيل وعودة. يختفي فجأة، وغالبًا ما يتسلّل ليلاً، تمامًا كاللّص او الهارب، لسبب ما او دونما سبب محدّد، ثم يعود دومًا، في كوكبة مهيبة يحيطها هرج شديد، وأحيانًا تحفّ بها الطبول والزغاريد.

وحيدًا على فرسه الزرقاء يرتحل. وحيدًا يعود، محمّلا فقط بترسانة أسلحته وقد أضاف إليها قطعتين إضافيّتين او ثلاثًا، وأحيانًا أكثر؛ «موزر» ألمانيّة، غدّارة (أو نبّاحة)

تشيكيّة، « شتايْر»، أو « كارابيلة » صقليّة أو طبنجة تركيّة . . . بينما حول حزامه، ومن تحت سترته « الكاكي » تتدلّى عناقيد مسدّسات بأحجام وأشكال وعيارات مختلفة، وهي حمولة تجعله لا يسير إلاّ ببطء متمايلاً بكتفيه العريضتين، مُباعداً ما بين المرفقين والجنبين، بينما الكفّان مُحكمَتان على الحزام الجلديّ العريض المحشوّ بكميّة مرعبة من الخراطيش، أو قريبتان جدّاً من ذلك الموقع حيث تتدلّى أيضاً قنابل يدويّة متنوّعة الأشكال والأحجام، الأمر الذي يجعل النّاظر إليه يعتقد بأنّه على استعداد دائم لفتح بوّابات الجحيم على الكون .

صحيح أنّ رحلات الدابرزي الأولى لم تكن شيّقة على الإطلاق، ولا قد سُجّلت لها أيّة مأثرة أو عمل خارق بديع، إذ لم يكن في تلك البدايات البعيدة سوى مجرّد مراهق متبرّم جعلته قسوة زوج أمّه يهجر القرية وهو في السادسة عشرة من عمره، بحثًا عن مكان يوفّر عليه إهانات ذلك الرّجل المتغطرس وسلطته السّاحقة على من هم دونه سنًّا أو مرتبة . بل إنّ عوداته الأولى لم تتعدّ كونها سلسلة من هزائم متلاحقة كادت تجعله مهزلةً وأُضحوكةً صبايا وأطفال القرية . والكثير منهم ما زال يذكر إلى اليوم دون شكّ صبيحة وجدوه مرميًا على حافة الطريق بمدخل القرية ( قبل ما يزيد عن خمس وعشرين سنة ) وهو موثوق اليدين والسّاقين، ممزّق الثياب وعلى وجهه ندبات وكدمات كثيرة، وقد أُلصقت على ظهر قميصه ورقة كتب عليها بلهجة ساخرة مُهينة : « احفظوا جرذكم الحقير قبل أن تأكله السّلاحف ! » .



لم يفهم أغلب الناس سرّ ذلك اللغز الطّلسم ولا غايته ومراميه . ولم يروِ هو شيئًا عن سرّ حادثته تلك ولا عن هويّة أصحاب تلك الفعلة . فحُفظت في سجلّ النسيان على ما يبدو .

كان هذا قبل ما يزيد عن خمس وعشرين سنة كما قلنا، ولم يكن له آنذاك من المآثر والبطولات شيء يُذكر . أمّا اليوم، فقد غدا أسطورة تلك الجهة بكل قراها . ويبدو أن سمعته قد تعدّتها إلى مناطق السّباسب العليا وقد ذاع صيته في جهات القيروان وقفصة جنوبًا، وفي مناطق سليانة والكاف شمالاً . بل إنّ شهرته قد بلغت حتى بلاد الفرنسيس والطّليان والألمان، وذلك بسبب بطولاته الحربيّة الخارقة في أثناء خدمته العسكريّة في صفوف جيش الفرنسيس . وبالرّغم من عدم اشتراكه مباشرة في القتال – سوى مرّة واحدة وقع خلالها أسيراً لدى الألمان بفضل ما أبداه من براعة في تقشير البطاطا وسرعة فائقة في غسل طناجر العسكر التي بحجم براميل – فإن جيش فرنسا قد اقترح عليه، حسب ما يقال، ترقية إلى رتبة « سرجان »[2] سرجان الطّنجرة تقول بعض الألسن الخبيثة – إذا ما قبل بالتّعاقد بعد انتهاء مدّة خدمته الإجبارية . وقيل إنه رفض ذلك المقترح بازدراء قائلا لهم :

إمّا كولونيل أو لا! وقيل بل إنّ وقوعه أسيراً لدى عساكر الألمان وبقاءه ما يزيد عن سنتين لديهم هو الذي أعاقه عن بلوغ مراتب عالية في الجيش. أمّا هو فيردّد دومًا أن لا رغبة لديه في ذلك أصلاً. وبالرغم من أن أبواب مكاتب ضبّاط الفرنسيّين وجنرالاتهم ظلّت مفتوحة أمامه، حسب زعمه هو طبعًا، ممّا يمكّنه من الدخول على أيّ منهم دون إذن خاص أو سابق إعلام، ذلك أن إسمه مسجّل على قائمة أبطال الحرب العالميّة الثانية المسمّين بـ: «Les anciens Combattants pour la France libre»[٢]، فإنّه بقي موليًا ظهره لفرنسا ولجيشها، لا يشغله في هذه الدنيا غير التفرّغ ذات يوم لخدمة زاوية الأولياء الأجداد.

ولقد مارس ذلك بالفعل عدّة مرّات في أثناء إقاماته المتقطّعة بالقرية، بل لعلّه أحسن من قام على أمر الزّاوية ومن فرض بصرامة احترام مبالغ العطايا ومواعيدها على القرى المجاورة. وبذلك صلُح حالها وتمّ توسيع بنايتها، وتعيين مؤدّبَيْن جديدَيْن لتعليم الأطفال القرآن بعد أن طرد المؤدّب الهاني لقلّة عمله وكثرة امتداد يديه إلى خزانة الزاوية، كما كان يقول. وقد قيل أيضًا إن المؤدّب الهاني قد أساء الأدب عندما رفض تزويج ابنته للدابرزي الذي كان مولعًا بها ولعًا شديدًا، بل يبدو أنه قال باستعلاء في مجلس من المجالس – وقد طار به الغرور واستهان بالحذر – : لن أزوّج ابنتي من واحد سبق أن ضحكت عليه في يوم ما!

لعلّ المؤدّب الهاني يشير إلى تلك الحادثة القديمة التي حصلت في حانوت البُرني ذات شتاء بعيد، قبل بطولات الخدمة العسكرية وبعض مغامرات أخرى شبيهة بها. كان الدابرزي آنذاك قد جاوز سنّ العشرين بقليل، وقد اكتملت صلابة جسده واستقرّ في عينيه بريق الشدّة والفحولة، وبدأت بعض الحكايات تتردّد بين الناس حول أعماله الجريئة ومغامراته المتهوّرة، وراح اسمه يتردّد همسًا في خلوات الصّبايا، مثل أُغنية شبقة تتورّد لها خدودهنّ. في تلك الأثناء حصلت حادثة البطاقة التي لم يفهم الناس لغزها. قال الكبار آنذاك: طيش شباب، وأشياء تحصل لكل مغامر متهوّر. وردّدت بعض الصّبايا: أسدٌ مغامر مكلّل بالجراح، ولا ثعلب خامل آمن في جحره! عندها بدأ بعض أصدقاء طفولته يتهامسون، سرًّا في البداية، ثمّ راحوا رويداً رويدًا يجهرون بحديث مفاده أن لا شيء يُدخل الرّعب على الدّابرزي مثل رؤية سلحفاة، وأنهم كثيرًا ما كانوا يعمدون في صباهم، بغية التّسلية، إلى تخويفه بسلحفاة يُلقونها أمامه فيتجمّد في مكانه ويتكوّر على نفسه ويروح يتوسّلهم منكسرًا ذليلاً كي يبعدوها عنه قبل أن يموت رعبًا، هو الذي له عليهم في غير تلك الحالة سطوة لا تُردّ!

لكنّهم يؤكّدون جميعًا أنّهم قد انقطعوا عن تلك اللعبة منذ بلغوا سنًّا محدّدة، ولا أحد

بإمكانه إذًا أن يؤكّد إن هو ما زال يخاف السّلاحف أم لا.

جاءت فكرة العودة إلى تلك اللعبة لمجرّد التسلية، ولأنّهم قد تراهنوا فيما بينهم لاختلافهم حول مسألة بقاء الدّابرزي على عادة خوفه القديمة. فبينما اعتبر فريق منهم أن المسألة مجرّد مخاوف وأوهام صبا لا بدّ أن حياة التشرّد والتسكّع قد بدّدتها نهائيًّا، ظلّ الفريق الثاني مصرًّا على اعتقاده بأن الدّابرزي ما زال يخاف السّلاحف، وإلاّ فما سرّ ذكر السّلاحف بتلك الطريقة السّاخرة على البطاقة التي كانت مُلصقة على ظهر قميصه عندما وجدوه موثوق الذراعين والرجلين وملقى مثل كيس من النخالة على قارعة الطريق؟ ويضيف هؤلاء تدعيمًا لرأيهم بأنه ليس هنالك من مبرّر منطقيّ يجعل طفلاً يخاف السّلاحف دون غيرها من الحيوانات بما في ذلك أكثرها شراسة، وبالتّالي فإن خوفًا لا تبرّره حجج منطقيّة في الصّبا لن يحتاج إلى مثل تلك الحجج لبقائه عند الكبر، ذلك أنه أمر خارج عن دائرة المنطق والمعقول، بمعنى أنّ لا سلطة للمنطق والمعقول عليه. ولو كانت هناك علّة لذلك الخوف في الصّبا، ثمّ زالت مع التقدّم في السنّ، فإنّه من المعقول أن يزول الخوف بزوالها، أمّا والحال أن لا علّة لذلك الأمر كي يزول بزوالها، فإن أمر بقائه وارد، بل وأكيد. كلام حلو، ومنطقيّ فوق ذلك!

وانطلاقًا من هذه الحجّة ذاتها يردّ أصحاب الفريق المقابل معتمدين على مقدّمة مفادها أنّ لا موجَب بدون موجِب، وأنّ لا حادث من دون علّة، وعليه فإنّ ما لا علّة منطقيّة لوجوده، لا بدّ له في كل الأحوال من علّة، وبناء على استبعاد العلّة المنطقيّة، فلا بد أن تكون علّته إذنْ غير منطقيّة. وبما أنّ التقدّم في السنّ وتراكم التجارب وتنوّعها يُفضيان بالتأكيد إلى تدعيم سلامة الذّهن واكتمال مداركه وقدراته على التمييز بين الصّواب وغير الصّواب، فإنه من بين النتائج الحتميّة لذلك أن تتحقّق داخل الذّهن، بحكم تنامي قدراته، حركةُ ردمٍ لفجوات ما قبل النّضج. وبما أنه لا يمكن أن يتجاور الذهن الناضج المكتمل القدرات مع الحجّة غير المنطقيّة، ذلك أنها النقيض له بالطبع، فإن هذه الأخيرة ستجد نفسها مدحوضة بالمعقول وبالحجّة المنطقيّة، ولا يبقى لها في النّهاية من مصير سوى الزّوال والانقراض. وعليه، فإنّه لا يُعقل أن يظلّ الدّابرزي بعد كلّ رحلاته وتجاربه المتنوّعة التي أكسبته بالتأكيد خبرةً بالحياة ونضجًا ذهنيًّا، يخاف السّلاحف لمجرّد أنه كان يخافها في صباه لسبب غير منضبط للمعايير المنطقيّة المشتركة بين البشر الرّاشدين. كلام حلو أيضًا، وله منطقه هو الآخر!

تشعّب ذلك الجدل بين الفريقين حتى كاد يتحوّل إلى مناظرات كلاميّة بدأت تتّسم بملامح من الجديّة المفرطة وكادت تنسلخ عن طابعها الأوّل وهو البحث عن الفكاهة

والتّسلية من أجل المتعة لا غير.

بدأ البرني يضيّع بتشعّبات ذلك الجدل الذي تورّط فيه الشبان بصفة خاصّة، وثقلت على مزاجه المرح الحججُ الجدليّة الجافّة، فتدخّل بينهم داعيًا إلى ترك هذا الكلام الذي يمكن أن يدوم دهرًا دون التوصّل إلى نتيجة، والدخول مباشرة وبصفة عمليّة في تجسيد التّجربة، وليرَ الجميع ما الذي سيحدث!

أيّده في ذلك الرأي المؤدّب الهاني معلّم القرآن وحارس الزّاوية، إذ بدأ يزعجه التوغّل في تلك الدوّامة الخطيرة من التّحاجج والجدال، وقال متبرّمًا: «لو واصل الجماعة مثل هذا الحديث، فسيصل بهم الأمر إلى التّجادل حول جنس الملائكة، ثم حول وجود الله... وأخيرًا إلى السّياسة، والعياذ بالله!» وكما كانت للبرني مبرّراته الخفيّة لإيقاف ذلك الجدال والمرور مباشرة إلى تجسيد التّجربة، ذلك أنّ مبلغ الرّهان سيعود بالنّفع المباشر على تجارته، لأن المسألة تتعلّق بمصاريف عشاء يُعدّ في الحانوت مع مشروبات وشاي وما يتبع ذلك من حلويّات ومكسّرات. فإن للمؤدّب الهاني أيضًا رغبة عارمة في أن يرى الدّابرزي يُذلّ على مرأى ومسمع من الجميع بسبب الخوف من سلحفاة، فهو منذ عودته الأخيرة ما انفكّ يحوم حول ابنته العذراء اليافعة المحجوبة وراء جدران الزّاوية. وعلاوة على ذلك فقد راح يعلن في القرية كلّها عن نيّته في الإشراف بنفسه على إدارة شؤون زاوية أجداده، وهو أمر لا يرى له وريثًا شرعيًا غيره بعد وفاة المرحوم والده. وذلك سيسبّب طبعًا مصاعب متنوّعة للمؤدّب الهاني الذي سينفض يديه من البركة التي تدرّها عليه عطايا الزّائرين وهداياهم. كما أنّ الأمر سيضعه أمام خيار صعب وهو إمّا أن يقبل بإدارة الدابرزي وبزياراته المنتظمة إلى الزاوية حيث يحجب عن الأنظار الفاجرة درّة نسله المبارك، أو أنه سيضطرّ إلى الرّحيل والبحث عن مسكن آخر ستكون له تكاليفه هو أيضًا.

نفّذت نفس يعقوب أمرًا كان مدبّرًا. فقُضي الأمر. واختفى الدّابرزي مرّة أخرى، على ظهر حصان أبلق سرقه من إصطبل البرني في تلك الليلة ذاتها التي أجري عليه فيها امتحان السّلحفاة.

قالوا: لم يضحك المؤدّب منذ عرفه أهل القرية كما ضحك في تلك الليلة حتى أنه نسي حرصه الدائم على عدم التّفريط في المهابة. وخرج البرني مرّتين للسّعال والتبوّل من شدّة الضحك. بل إن عاصفة الضّحك قد تموّجت عبر القرية كلّها التي ظلّت لأشهر عديدة تروي مهزلة الدابرزي وتعيد روايتها مع إضافة تفاصيل جديدة تجعلها في كلّ مرّة أكثر إثارة.

كان ذلك قبل الخدمة العسكريّة وبطولات المحارب والولع بتجميع الأسلحة، والعودات المكلّلة بالانتصارات، وقبل حملة هجماته الفجئيّة على دوريّات عساكر السّلطة الإستعماريّة وترويع ضيعات المعمّرين، وإجبار أحد موظّفي الدولة على التمشّي عاريًا في ساحة السّوق الأسبوعية، واقتياد زوجة آمر الجنْدرْمة(*) إلى منفى اختاره لها بين الأودية والوهاد، وقبل واقعة دوّار عرش القراشيش الذين جرْجر شيخهم في الأشواك ونتف لحيته على مرأى منهم جميعًا على إثر امتناعهم سنتين متتاليتين عن الزيارة وتقديم العطايا.

لا غرابة إذن في أن تهتزّ القرية بكلّيتها وهي تعلم خبر وصول الدّابرزي بين الحين والآخر. العمدة ذاته قد خرج إلى الشارع واختلط على غير عادته بجموع الشبان والعجائز والأطفال، وراح يتمشّى وسط الهرج واللغط مبديًا اهتمامًا واكتراثًا شديدين.

وكيف لا يعرف الأطفال عن مدرستهم الجديدة والقرية مقبلة على يوم بمقدار ألف عيد، سيتجسّد فيه أمام أعين الجميع، لحمًا ودمًا، موضوع تلك الأسطورة التي طالما استمعوا إلى رواية مآثرها المتعدّدة وتفاصيلها المثيرة التي يتفنّن الكبار وحتى بعض الشّباب والصّبايا في تلميع متْنها وترويق حواشيها بالتّفاصيل والاستدراكات والتّداعيات، وكلّما تقدّم الزّمن وتمطّطت مدّة الغياب أزاحوا عنها بعض الشّوائب والجزئيّات ونقّوْها من المحرجات، وزادوا في إبراز جوانبها البرّاقة المثيرة؟!



خرج الطبّالون المحترفون يمتشقون طبولهم، يعدّلون شدّ حبالها ويلمّعون عصيّها بزيت الخروع الذي يعطي دفّاتها الرّنين الاحتفالي المطلوب، وجاء أحد الشّبان بمفخّم للصّوت، وتوافد الفضوليّون والطمّاعون والماجورون وبعض الأوفياء من أصدقاء سنين غابرة، ولم يتخلّف فارس أولاد «جلاص» المشهور عبيد الله الذي ألبس فرسه سرجًا تسلّمه مؤخْرا جائزةً من الدّيوان الوطني لإحياء الفنون الشعبيّة، وزيّن صدره وكفله بملاءات حرير فاخرة ذات ألوان زاهية، بينما لبس هو لباس الفرسان التّقليدي بسروال وقميص أبيضين مطرّزين بخيوط من فضّة وحرير حمراء وصفراء، وسترة برتقاليّة مطرّزة بخيوط من حرير خضراء وعليها قد أحكم شرائط حمراء وبيضاء وكدْسًا من النّياشين النّحاسيّة والقصديريّة الملتمعة تحت أشعّة الشّمس، بينما يتدلّى من حزامه خنجر يماني في غمد من ذهب مزيّف، وعلى كتفيه بندقيّتان، واحدة تركيّة عتيقة مرصّعة بالأصداف، والأخرى «كارابيلة» صقليّة ذات ماسورتين قصيرتين. غدا عبيد الله في تلك الهيئة الاحتفاليّة قطب المهرجان وروح إيقاعه المتوهّج، حتّى أنّ الجميع بدأوا ينتظرون أنْ يأخذه الحماس كما حصل ذات مرّة فراح ينشد، وهو واقف على ظهر فرسه المتمشّي

خبيًا، أشعارًا لم يفهم النّاس منها كلمة واحدة من نوع:

ذكـرتـك والـرّمـاح نـواهـل     وبـيـض الـهـنـد تـقـطـر مـن دمـي

أثار المظهر البهيج لفارس «جلاص» حماسة تلامذة المدرسة أكثر من غيرهم فتجمّعوا زمرة واحدة في وسط السّاحة وراحوا ينشدون:

حُـمـاة الـحـمـى يـا حُـمـاة الـحـمـى!

هـلـمّـوا هـلـمّـوا لـمـجـد الـزّمـن!

بينما خرج طلبة القرآن من الزّاوية حاملين الاعلام الخضراء وانضمّت إليهم بعض الصّبايا، وراحوا يقرعون الدّفوف هازجين في طنين آخرس:

أقـبـل الـبـدر عـلـيـنـا

مـن ثـنـيـات الـوداع

وكان آخر من انضمّ إلى الجمع الرّهيب المتهيّج «أمّك شويخة المَهْبولة» التي أخرجتها الضجّة المتعالية من كوخها فجاءت تنفض الدّقيق عن ملبسها الرماديّة، وراحت تزغرد وهي تتقدّم متعثّرة في العتمة التي تغشى عينيها منذ سنين، ملوّحة بلحافها الاسود المليء بالثقوب وهي تصيح بين زغرودة وأخرى:

يحْيا...بورْقيبا!

حتّى دنا منها شبان وصبايا القرية مردّدين بأعلى أصواتهم كي يصل الخبر إلى آخر سقيفة ظلّت سالمة في سمعها المهترئ:

– موش بـ.... ورْقيبة... موشْ بورقيبة!

– امّالة... آشكونْ؟

– الدّابرزي! دا...بـ...زْ...ز...ي!

كان اسم الدّابرزي على ما يبدو قد راح أشلاء مبعثرة داخل عتمة ذاكرتها المهجورة كخرائب موغلة في القدم، فظنّت انّه رئيس جديد، لا قدّر اللّه، وولّت على أعقابها محاولة إعادة إحكام لحافها المهترئ على رأسها وهي تردّد بلامبالاة أو باستسلام بارد: كلّ دولة تخدمها رجالها!

وانطوت على وحدتها من جديد.

لم يرغب العمدة في الجلوس على الكرسي الذي وضعه له البرني أمام عتبة الحانوت. لم

بعْد على ما يبدو قادرًا على التحكّم في اهتياج انفعاله أمام ضخامة ذلك الحفل الرّهيب الذي لم تشهد القرية مثيلاً له إلاّ يوم عرس الدّابرزي.

التفت إلى البرني وهمس له بشيء من الاهتمام والقلق:

– تُرى هل نسي . . . و غفر؟

– اللّه أعلم . . . لكنّ واجبنا الآن هو أن نفعل ما بوسعنا، وأكثر . . . من أجل جبر خاطره وإرضائه.

وافق العمدة على ذلك الرّأي وأسرّ له بأنّه على علم بعودة الدّابرزي منذ أسبوع تقريبًا، وأنّه كتم الأمر حتّى فجر هذا اليوم، وذلك طبقًا لخطّة مسبّقة وضعها هو ورئيس مركز الحرس الوطنيّ بالمنطقة، الذي أعلن له نبأ عودة الدابرزي. ولقد وجد العمدة الفرصة سانحة كي يسكب على قلبه كاس البهجة المُسكرة التي يغمره بها مثل هذا الامتياز الذي يجعله يحظى بثقة المسؤولين، ويكون مستودع أسرارهم وأسرار الدّولة، ولا شيء يحلو له أكثر من التصريح بذلك، همسًا أحيانًا، للبرني خاصّة الذي هو بدوره مستودع البعض من أسراره، وإلى الجمهور الواسع حينًا. يحبّ كثيرًا أن يسمع نفسه يقول في الجلسات العامّة والخاصّة: «أفادني رئيس مركز الحرس الوطني. . . » أو «همس لي الوالي أمس. . . » أو «أعلمني الوزير الفلاني في مجلس ضيق. . . » أو «دعاني النائب الفلاني البارحة خصّيصًا ليقول لي. . . » وهو يعرف أن ذلك ممّا يزيد في إعلاء شأنه لدى البرني، الذي لا تخلو مشاعره تجاهه من شيء من الغيرة، لكنّها على العموم غيرة بريئة؛ غيرة الصّغير الذي كلّما ازداد مثاله كبرًا وشأنه عظمةً إلاّ وشعر بتعاظم مماثل، أو يكاد، في شأنه الخاصّ، وإذا المحسود يتحوّل في ذهن الحاسد المنبهر بفعل كيمياء التّجاذب والتّحاسد إلى صورة للمرغوب البعيد المنال. غيرة مَحبّة تهفو إلى تماهي المحبّ مع صورة المحبوب والتلاشي في ملامحه.



أضاف العمدة همسًا بأنّ رئيس المركز قد أطلعه على تقرير أمني مفصّل بشأن الدابرزي، من ضمن ما جاء فيه أنه عائد من منطقة الحدود الجزائريّة حيث يبدو أنه قد اشترك مع الثوّار الجزائريين هناك في العديد من العمليّات الحربيّة الجماعيّة والفرديّة ضدّ مصالح فرنسيّة وثكنات ودوريّات عسكريّة، وأنّ صيت الرجل قد ذاع عبر كلّ المناطق الحدوديّة، وأنّه اكتسب شعبيّة لا مثيل لها، وهو يملك ترسانة مخيفة من الأسلحة المتنوّعة؛ مقدار حمولة بغل أو عربة، عدا صناديق الذّخيرة والقنابل اليدويّة والمسدّسات التي تطوّق حزامه وتتدلّى فوق ذراعيه وفخذيه. إنّه ثكنة متنقّلة!

وذكّره البرني الذي وجد بدوره الفرصة سانحة كي يستعرض، هو أيضًا، القليل من

العضلات الهزيلة لبنك معلوماته الخاصّة التي يحتفظ بها لمثل هذه المناسبات عساها تخفّف عنه قليلاً من ثقل الهيبة المتعاظمة دوماً لشخصيّة العمدة، ذكّره بأنّ الرجل قد بدا خلال إقامته الأخيرة على علم لا يحدّه حدّ بمسائل جغرافيّة وبقضايا الأنساب وأصول القبائل وفروعها وتوزّعها عبر الجهات (ها أنّ العمدة قد بدا يمتقع ويذبل في ظلّ الدّابرزي، بينما البرتي يتوهّج ببريق معرفته!)، إلى جانب تضلّعه في المسائل الحربيّة والخطط التكتيكيّة المضادّة للمدفعيّة والطيران (العمدة يطلب اللّطف في قرارة نفسه) حتّى أنّه قد تجرّأ ذات يوم على الإفصاح، داخل دائرة ضيّقة من أعيان القرية، عن نيّته في الإعداد لثورة شاملة ستلهب جبال البلاد وسباسبها.

توتّر العمدة حدّ الإنفجار وكاد يصفع البرتي الذي بدا له متطاوساً بحلّة ليست حلّته، بل وغدا متطاولاً تقريباً على دور ليس بدوره، ولعن الدّابرزي في قرارته متبرّماً من نبأ عودته الذي بدأ يجثم على صدره بهواجس جديدة غير متوقّعة.

– لا بدّ من اتّخاذ...

ولم يتمّ جملته التي قطعها عليه انفجار الهرج وارتفاع الصياح بصفة فجئيّة، ثم اندفاع الجموع باتّجاه مخرج القرية. وإذا عجاجة متطايرة تلفّ بالطريق عند الأفق من جهة الشمال. وتعالت الأصوات من كل الجهات، حتّى كأنّ الجبال المجاورة قد ردّدت كلها معها: جاء...! جاء...!

شمّر العمدة جبّته حتّى أحكم طرفها الأسفل على كتفه وراح يجري باتّجاه مقدّمة الجمع المندفع نحو الطريق. وبسرعة خياليّة ارتجل تكوين مجموعة نظاميّة من بعض الشّبان الذين سبق أن انتدبهم لتلك المهمّة من قبل؛ مرّة بمناسبة الإحتفال بعيد الإستقلال واستقبال القرية لأحد مسؤولي الحكومة الذي شرب من عين الرّحمة وارتحل بسرعة باتّجاه مدينة القصرين. ومرّة ثانية عندما تجمّع عمّال الضّيعة المثاليّة حول رجل قدم إليهم من المدينة وراح يحدّثهم عن غلاء المعيشة وضعف الأجور، وانعدام المرافق الضروريّة وأشياء أخرى. وقد نجحت المجموعة النظاميّة تلك في طرد ذلك الغريب المشاغب، وكسر ضلعين لأحد المتحمّسين لأحاديثه، وإعادة الهدوء والانضباط إلى الضّيعة. وها هم أعضاؤها الآن يثبون بسرعة الجنّ إلى مقدّمة الجمهرة، ليكوّنوا حاجزاً يمنع الناس من التقدّم باتّجاه الطريق، وقد أحكموا جميعاً ربطات حمراء على أعضادهم وامتشقوا عصيّاً بيضاء لا يعلم أحد من أين أخرجوها بتلك السرعة الخياليّة، ملوّحين بها في وجوه الناس وهم يردّدون بلهجة آمرة: النّظام! النّظام!

أصاب الجمع المتموّج فتور فجئيّ عندما توقّفت السيّارة السّوداء على مقربة منهم.

لم يكن الدّابرزي! بل ذلك الفرنسي الذي سبق ان قدم إلى القرية قبل حوالي عشرين سنة، وكانت له مع الدابرزي محادثات مطوّلة، قيل بعدها إنّه مبعوث إحدى الصّحف الفرنسيّة، وقيل إنّه مكلّف من قبل فرنسا بمهمّة التحقيق حول شخصيّة الدّابرزي الشهيرة. وقد ذهب البعض إلى الظنّ بأنّه ليس سوى واحد من أولئك الذين تبعث بهم مصالح الجوسسة من اجل الإطّلاع على أحوال أهالي البلاد وطباعهم وامزجتهم وما يدور من افكار بينهم. وقد اكّد لهؤلاء احدٌ ما بأنّ ذلك التّحقيق قد نُشر في فرنسا ضمن دراسة مـطـولـة بـعـنـوان: « Prototype de la personnalité Donquichottienne de l'indigène »[*] وفيه حسب قوله تحامل كبير على سكّان المستعمرات القديمة. وقيل إنّ كلّ ذلك مجرّد شائعات لا غير، إذ لم يتمكّن احد إلى حدّ تلك اللحظة من العثور على نسخة من تلك الوثيقة المزعومة. لذلك اعتُبر مجيء ذلك الفرنسي دليلاً على ما تحظى به شخصية الدابرزي من اعتبار وتقدير؛ شخصيّة بدت لهم في تلك الأونة متجاوزة في شهرتها وقيمتها حدود المعتاد، حتى غدت محلّ اهتمام الصحافة والأوساط الرّسميّة. وهو امر قد شحذ لهيب النّخوة والإعتزاز لدى الجميع من جديد ممّا جعل اطفال المدرسة يعودون بحماس اكبر إلى « حماة الحمى »، ودقّت الدّفوف مجدّدًا وارتفعت اصوات طلبة الزّاوية مهلّلة ادعيةً وتعاويذ ومدائح تعظّم بركة سيدي عبد القادر الجيلاني وذرّيته المباركة التي شملت القرية بفضلها ورعايتها.



كادوا ينهشون ذلك الفرنسي الطويل النّحيف، إذ تحوّلوا في غمرة الهيجان إلى دفق عارم يندفع كتلةً واحدة باتّجاه الرّجل الذي غدا في اذهانهم علامة مبشّرة وإشارة طالع حسن جاءت تستبق حلول الحدث الرّهيب الذي كانوا يتحرّقون لحلوله أمام أعينهم. وكان هو يبدو شارد الذّهن كمن اصابه ذهول شديد امام الطّمي المتهيّج المندفع نحوه من كلّ الجهات، بل وبدا بوجهه الاحمر الذي يشبه بيضة الدجاج الرّومي وخصلة شعره الصّفراء المتهدّلة على جبينه، مثل إوزّة مذعورة وقعت فجأة اسيرة فوج من الكلاب المتهيّجة. راح يتقدّم متعثّرًا في دهشته محاطًا بالمجموعة النّظاميّة التي كانت تهشّ بعصيّها البيضاء الجموع المتدافعة في هرج ولغط عارمَيْن.

اخيراً انفرد به العمدة والبرني وأجلساه على صندوق للخضار داخل الحانوت الذي احكما غلق بابه وراحا يعتذران له عن إفراط أهالي قريتهما في التهيّج، يستجديان تفهّمه، ويؤكّدان له مدى احترامهما لبلده فرنسا، والتمدّن، والحضارة، والنّظافة، والنّظام، والكهرباء، والطّيران، وبرج « إيفيل »، وخطابات ديجول، و « فيف لا فرانس » ونشيد « المارسابيز » ... إلى أن أرهقاه وكاد يُغمى عليه من شدّة التأثّر لذلك الوفاء للحضارة

والتقدّم، فراح يطمئنهم ويؤكّد لهم تقديره لكلّ تلك المشاعر. وبلغ به التأثّر أن اعترف لهم بدوره بأنّه هو أيضًا من أصل ريفيّ، وأنّه يتحدر من قرية لأهاليها إفراطات في الحماس شبيهة بما يشاهده هنا، وأنّه لا بأس في أن يبدي النّاس تقديرًا واحترامًا لأبطال وطنهم، فذلك أفضل على أيّة حال من تعظيم وتقديس الأولياء والدّراويش وشتّى الخرافات.

في الخارج كان الهيجان على أشدّه: أين الدّابرزي؟ ماذا يريد هذا الفرنسي غريب الأطوار؟ وفي الدّاخل كان البرني فاغرًا فاه وهو يستمع إلى عبارات تقدير ذلك الغريب، مندهشًا حدّ الدّوخة في أمر أصله الرّيفي: فرنسي وريفيّ؟ هل يعقل ذلك؟ بينما العمدة يقضقضه الفضول ويصدّه الحرج وهو يداور مسألة الشائعة القديمة بخصوص التقرير سيّء الذكر. يخاتل ويناور محاولاً استدراجه إلى الحديث في ذلك الموضوع مع الحرص كلّ الحرص على عدم التورّط في إحراج الرّجل بطرح السؤال بطريقة مباشرة قد لا تروق لفرنسي متحضّر، ولعلّه فعلاً صحفيّ شهير، أو عالم، أو ممّن لهم علاقات متينة بالحكومة. وعلى أيّة حال فإنّ العمدة قد تعلّم خلال دوريّات التربّص والتكوين المستمرّ أنّه لا يجوز لمسؤول سياسيّ مثله أن يتغافل عن مراقبة لسانه عندما يتعلّق الأمر بمسائل شائكة يمكن أن تجلب الحرج للدولة. ولم يخفّ عن الضيف شيء من ذلك الفضول المتعثّر في الحرج وفي قيود دبلوماسيّة متكلّفة تكاد لفرط الافتعال والتكلّف تنقلب إلى فجاجة وقحة وغير دبلوماسيّة بالمرّة. ولعلّ ذلك قد بدأ يضايقه إلى حدّ ما فشرع يقدّم نفسه ويشرح مهمّته للديك الرّخلوس مكررًا العديد من المرّات بأنّه باحث إثنوغرافي لا علاقة له بالصحافة والسياسة على الإطلاق، وأنّ مهمّته علميّة صرفة غايتها الإسهام في إثراء العلم وإنارة سبيل الباحثين المنكبّين على دراسة آليات سيرورة التفكّك لدى الشعوب والقبائل المقبلة على الإنقراض، أو تلك التي تشهد تحوّلات عميقة شبيهة إلى حدّ بعيد بالانقراض. ثمّ توغّل بفعل الحماس العلمي في تفسيرات غاية في الغرابة والتعقيد حول مسائل: البركة والبطولة، المعتقد والعنف، وموت الثقافة. وقال لهم إنّ شخصيّة الدابرزي تهمّه بدرجة أولى كظاهرة اجتماعيّة ذات مدلولات عميقة؛ علامة في طريق تحوّلات كبرى تشهدها المجتمعات البدائيّة، ولحظة حاسمة، وسيرورة تفكّك، وانتفاضة الفنطازيا، وإرادة البطولة... وكلامًا آخر كثيرًا من هذا الطراز بدا لهم غامضًا ومعقّدًا ومخيفًا إلى حدّ ما وأحيانًا مليئًا بالوعود. قال إنّه لم ير الدّابرزي على الطريق التي جاء منها، ففتح العمدة كوّة في جدار الحانوت كانت مسدودة بخرقة أو كيس قديم وأطلّ على الجموع المتدافعة في لغط شديد مردّدًا:

- لم يره في الطريق!

وأضاف الفرنسي أنّ لديه على أيّة حال من جهات مطّلعة ومصادر موثوقة خبراً بوصوله خلال هذا اليوم إلى القرية. وردّد العمدة من جديد:

– مصدر موثوق، سيصل اليوم. لقد أعلموني بذلك شخصيّاً. مصدر موثوق!

وأوضح الفرنسي أنّه بالتأكيد لن يأتي عبر الطريق العامّة. فردّد العمدة:

– لن يأتي عبر الطريق العامّة.

وصرخت حناجر عديدة من الجمع المتهيّج:

– بل عبر مسالك الجبال والأودية! رجل الفيافي والأدغال!

وصاح أحدهم محتجّاً بحنق: لماذا لا تضع الحكومة على ذمّته طائرة هيلكوبتر؟ أم تراهم يربّون فيها الإوزّ والدّجاج؟

وأجاب العمدة وهو يُطلّ برأسه:

– الحكومة ساهرة على سلامته. مصدر موثوق! سيصل اليوم إن شاء الله.

فردّ عليه صوت بعيد: طز في الحكومة! نريد الدّابرزي. دّا بْرْ زي! وكشّر جماعة النّظام ولوّحوا بالعصيّ البيضاء في الفضاء، فاندفع نحوهم فوج من الشبّان متحرّشين. وبدأت المناوشات.





بدأت النساء تضجر من غلظة المشاحنات ومهاترات الرّجال الذين لا يفوّتون حادثة دون أن يتّخذونها فرصة لجعل تهيّجهم الذكوري يتّخذ ذلك المظهر المضحك لتبجّح عنيف لا فائدة من ورائه. رحْن إذنْ يتندّرن متغامزات، متباريات بمرح في تنويع النّكات حول «فراريج الحكومة» كما كنّ يسمّين أولئك الشبّان الذين جعلتهم الرّبطات الحمراء المُحكَمة على أذرعتهم وتلك العصيّ البيضاء ينتفخون بشيء من الخيلاء الزّائفة، المفرقة إلى حدّ ما.

قالت إحدى النّساء، إحدى بنات عمّ الدّابرزي على ما يبدو: فراريج الحكومة مثل القرع، لا يكبر إلاّ في ساحة البيت! وردّت عليها واحدة: فراريج في ساحة بيتنا، ولا ديكة هائمة في الجبال! وعلّقت أخت الدّابرزي وهي تهزّ برأسها بمزيج من الغضب والتحدّي: بل هو أسد لا تأسره الزّرائب، ولو كان في قرية أولاد دابرز واحدة تستأهله لجعلت من بيتها عريناً له! فصاحت إحدى الصّبايا من ورائها: لا يا وخيّتي، نحن لسنا مروّضات سرْك حتّى نأسر الأسود! وغمزت أخرى بشيء من الفجور: أمّا أنا فلا مانع لديّ في أن أكون مروّضة سرْك لأنّ رائحة الأسد الذّكر تعجبني! قلن لها إنّها ليست أجمل ولا أنبل من فايْزة بنت مختار التي تركها في زينة ليلتها ودخل الفجاج. وقلن لعلّها كانت باردة، أو ثقيلة ظلّ، أو

كريهة ريح فعافها من أوّل وهلة. وتدخّلت عجوز محتجّة: حرام عليكنّ... ! لقد كانت أجمل النساء وما تزال، ريحها طيّب، وجسمها صاف كامل ومتناسق، وظلّها خفيف. لكن ما ذنبها المسكينة، إذا كان لا يحتمل رؤية سلحفاة؟! ثم أكّدت لهنّ أنّ فايزة قد روت لها حادثة تلك الليلة بالتفصيل، وقالت من بين ما حكت إنّه هو الذي اختارها من بين بنات القرية كلّها وكان مشتاقًا للقائها متلهّفًا عليها إلى حدّ اللحظة التي خرجت فيها السّلحفاة من تحت السّرير وكان عندها يهمّ بها. قالت: رأيتها قبله، تخرج متلكّئة، ثمّ أسرعت قليلاً في تقدّمها متّجهة نحو باب الغرفة في البداية. وفجأة استدارت وراحت تدبّ باتّجاه السّرير. كنت أفكّر في حيلة ألهيه بها عن رؤيتها، أو لكي أُخفيها عنه، والغرفة موصدة، وأنا بين ذراعيه. ولا أدري إن هو لاحظ شيئًا في عينيّ، أم أنّه استشعر شيئًا ما، فاستدار وإذا به وجهًا لوجه معها.

قاطعتها محتجّات: كذّابة، وفاجرة. إنّما لفّقتْ هذه الحكاية حتّى لا يظنّ أحد بها الظّنون!

وتساءلت أخرى: لكن لماذا يتسلّل من النّافذة مثل سارق، ويهرب تاركًا وراءه حفلاً بهيجًا كلّفه ما كلّفه من المصاريف؟ لماذا لم يخرج بصفة عاديّة ويعلن فضيحة فايزة إن كان بها شيءٌ لم يرضه؟ وقيل إن أول من دخل على فايزة في غرفتها بعد أن طال انتظار النّاس في الخارج، هم أهل العريس والعروس، بعد أن كسروا الباب. وجدوها جالسة على حافة السّرير، بينما السلحفاة متجمّدة تحت قصعة كبّتها عليها لتحجبها عن عيني الدابرزي الذي ظلّ ساهمًا متجمّدًا في مكانه ينظر باتّجاهها بعينين زائغتين تفيضان رعبًا.





لكنّ رواية أخرى تؤكّد أن لا أحد قد رأى السلحفاة، لأنّ فايزة قد نهضت من فراشها وقذفت بها من النّافذة، ثمّ عادت تطمئن الدابرزي وتقلّب الغرفة ركنًا ركنًا، شبرًا شبرًا أمام عينيه كي يتأكّد أنّه لم يعد هنالك من شيء يمكن أن يزعجه. لكنّه ظلّ ساهمًا وكأنّه لا يدرك شيئًا ممّا حوله، غير قادر على أيّة حركة.

ويُروى أيضًا أنّه بعد أن هدأ روعه وشرب ثمّ دخّن سيجارة، عاد إلى فايزة التي حاولت استدراجه من جديد كي ينفّذ واجبهما الزّوجيّ ويخرج ببكارتها إلى العالم المتلهّف على رؤية لطخة الشرف الحمراء على قميص العفّة الأبيض. لكنّه بالرّغم من محاولاتهما العديدة التي دامت أكثر من ثلاث ساعات، لم تستجب له نفسه، وكان كلّما مرّ الوقت أكثر يشعر بمزيد من الإنهاك ورغبة في النّوم. وبعد كلّ محاولة يستدير عنها ويجلس على طرف السّرير، يولّع سيجارة وهو على حافة البكاء من شدّة الانفعال والإحساس بالقهر، حتّى أنّها اقترحت عليه في النّهاية أن يفتضّها بإصبعه لينتهيا من الأمر، ووعدته

بأن تكتم السرّ وتحفظه طالما بقيت على قيد الحياة. لكنّه اهتاج مثل خنزير برّي جريح وتوعّدها ببندقيّته إن هي عادت إلى مثل ذلك الكلام.

كان قد بلغ حداً من الغيظ والحزن، فتغيّرت ملامحه وقسماته الوسيمة حتّى بدا بائساً وقميئاً. ولعلّه لاحظ ذلك هو ذاته وأشفق على نفسه ممّا آلت إليه، فنهض وشرع يرتدي ملابسه في صمت، ثمّ التفت إلى فايزة وابتسم لها ابتسامة ميّتة استجمعها من حُطام كبريائه المنسوفة بالغضب والحزن والهلع والشعور بالعجز والقهر، «ابتسامة بشعة مرعبة لم أر في حياتي مثلها»، ثم استسمحها في الخروج من النافذة الخلفيّة للغرفة ليشمّ الهواء قليلا ويعود.

ولم تره بعدها البتّة.

اختلفت النّسوة في جلبة مليئة بالقهقهات والهمس والغمز بين مُصدّقة ومكذّبة، وانقسمن إلى فرقتين؛ واحدة تمشّط شعر الدابرزي وتغسله بماء الورد، وتضمّخ جسمه بالعطور، تفرش له زرابي الورود والوعود وتزيّن فراشه بالياسمين، وأخرى تجمع السّلاحف وتضعها له في الطريق لتكسر في لحظة خوف شوكة غروره وتنسف كبرياءه الزّائفة.

رحْن يتبارين في ارتجال أغاني غزليّة مطرّزة بمحاسن الدّابرزي وبطولاته، موشّاة بتعداد أنواع أسلحته واستعراض السّجل الحافل بمغامراته، ومهاجي ساخرة لاذعة، حتّى أنّ إحدى البائرات قد ارتجلت قصيدة غزل تتغنّى فيها بخصال السلحفاة وتتشبّب بجمال قبّتها المزدانة بالزخارف المذهّبة، وبعينيها اللتين ينخلع لهما قلب أشدّ الأبطال بطشاً وغروراً. ولم تنته النساء من تلك العكاظيّة الشبقيّة المرحة إلاّ عندما ألجمت ألسنتهنّ صيحة انفجرت من الجموع التي عادت تتدافع من جديد، فعصفت بعكاظيتهنّ وشتّتت تجمّعهنّ الهازج المعربد.

لاح في البعيد شيء غامض يتحرّك ببطء على الطريق التي قدمت منها سيّارة الفرنسي قبل بضعة ساعات. واهتاجت جموع الرّجال والأطفال، وبدأت تتقدّم باتّجاه الطريق، وقفز العمدة من باب الحانوت مهرولاً باتّجاه مقدّمة الحشد المتدافع، وراح يلوّح بيديه في الفضاء مشيراً إلى «مجموعة النّظام» بوقف تحرّك الجماهير. ثمّ رفعه ثلاثة من أولئك الشبّان فوق أكتافهم ليصيح في النّاس بواسطة مفخّم للصوت استلفه من أحد الشبّان:

الــــنّــــظــــام! الــــنّــــظــــام!
كــــلّ شــــيء بــــالــــنّــــظــــام!

ثمّ أعطى الأوامر بأن يُفسَح الطريق لضاربي الطبل والمزمّرين وفارس جلاص ليتقدّموا.

وراح يرتّب الصفوف وينظّم الاولويّات.

اخيراً ترك أمر ترتيب الصّفوف للبرني والمجموعة النظاميّة بعد أن زوّدهم ببعض التّعليمات التي كان تزوّد بها بدوره في دورات التربّص والتحفّز والتأطير، مردّداً عليهم بإلحاح: التأطير! التأطير! ثمّ اتّجه نحو الطريق لملاقاة الدابرزي، ووراؤه ضاربو الطبل والنّافخون في المزامير يتقدّمهم فارس جلاص، وفي المؤخّرة اربعة من شبان المجموعة النظاميّة برفقة الفرنسي الغريب.

راح يتقدّم بالموكب وهو يومىء بلحفته البيضاء مردّداً بانفعال: النظام! النّظام! إلى أن ابتعد متوغّلاً في الغبار، وطغت على صيحاته النظاميّة قرع الطبول وأصوات المزامير وزغاريد النّساء ودقّ الدّفوف وأناشيد أطفال المدرسة وبكاء الرّضّع ونباح الكلاب...

عندما بلغ التهيّج ذروته وبدأت الدّفوف تطغى شيئاً فشيئاً على أصوات التّلامذة، ترك المعلّم باب المدرسة حيث ظلّ لساعات عديدة متيبّسًا في كسوته السّوداء في انتظار قدوم الأطفال. جاء مسرعًا لينظّم موكب تلامذته بأن جعلهم صفّين متقابلين، ثم راح يتمشّى بينهما ملوّحًا بيديه في الفضاء بحركات عجيبة مردّداً معهم بحماس:

حُمـاة الحـمـى يـا حُـمـاة الحـمـى!
هـلـمّـوا هـلـمّـوا لمجـد الـزمـن!



ارتفعت وتيرة الحماس فطغت أصوات الأطفال على هرج طلبة الزّاوية ودقّ الدّفوف. ثمّ غدا إنشاد حماة الحمى وترديده العديد من المرّات مملاً بالنّسبة للاطفال بالرّغم من حماسة المعلّم الذي كان يُجهد نفسه فيحتقن وجهه وتجحظ عيناه وهو يردّد بقبضة مرفوعة:

لـقـد صـرخـتْ فـي عـروقـنـا الـدّمـاء!

فإنّ هؤلاء قد تحوّلوا بصفة عفويّة إلى أنشودتهم المفضّلة:

أمّ الحـمـــــــــــــام مـــــــــرّةْ
قـــالـــت لـــهـــم لا تـــخـــرجـــوا!

ثم جاء دور:

ديـكـي، ديـكـي أنـت صـديـقـي!

وقد الهم النشيد الاخير قريحة بعض شبان القرية من المتصعلكين، فتقدّموا في كوكبة معربدة يردّدون باصواتهم الفجّة الغليظة:

شـرْدوكـكْ(٦) يـا الحـاج عـلـي
فـي الـسّـاحـة يمـشـي ويـجـي!

أخيراً فتحت فائزة بنت مختار نافذة غرفتها!

لقد ظلّت طوال اليوم منحبسة هناك دون اكتراث أو اهتمام. أو لعلّها كانت مكترثة، ومهتمّة على طريقتها الخاصّة. المهمّ هو أنّ الصخب قد ملأ عليها الغرفة، بل وغدا البيت كلّه خانقاً مثل كتلة من البخار السّاخن، وكان لا بدّ من التهوئة.

هالها ما رات عندما اطلّت براسها من النّافذة، وتذكّرت ليلة عرسها المجهَض فانسحق قلبها حزنًا وغيظًا، وذكّرت نفسها وهي تُدير ظهرها إلى النّافذة بانّ كلّ ذلك الهرج واللّغط لا يعنيها، محاولة ان تستعيد صورة الدابزي في حقارتها وقماءتها اللتين راته عليهما في تلك الليلة المشؤومة، وردّدت لنفسها بصوت مسموع إنّ رجلا مثله لا يستحقّ سوى الإحتقار و... الشّفقة في أحسن الأحوال، وهو ليس جديراً بان يزعج الناس انفسهم من اجله، وان يقيموا كل ذلك الهرج احتفاء بعودته.

خطت خطوتين باتجاه سريرها العتيق المتمدّد مثل جثة هامدة في زاوية غرفتها المزدحمة بالفراغ؛ لا مرآة، لا صور زفاف، ولا قوارير عطور، ولا شمعدانات، ولا مباخر ولا مكاحل ولا أمشاط ولا...

عادت إلى النّافذة من جديد، مديرةً ظهرها لذلك الفراغ الثقيل، وتذكّرت كيف كانت تحبّه قبل تلك الحادثة الكريهة، وكيف ظلّت شهوراً تحترق بانتظار تلك الليلة. قال لها إنّه سئم الاسفار وحياة الجبال، وانّه ينتظر بحرقة تلك اللحظة التي سيضع راسه في حجرها ويركن إلى راحة القطط الوديعة، وخبّات هي وجهها تحت إبطها ولاذت بالفرار محمرّة تكفكف دموعها وهي تردّد في غمرة الإرتعاش والاختلاجات: «إنها رائحة الغابة التي لا تقاوَم!»

ارتفعت زوبعة من الزّغاريد في الساحة وتعالى إيقاع الطبل.

اخترقتها تلك الرّعشة ذاتها التي قوّضت جسدها حين راته يدخل غرفتها وعلى كتفيه برنسه الابيض، وبيده الصّولجان الملبّس بالحرير، شارباه الأسودان المقوّسان يختلجان، وعيناه السّوداوان الواسعتان تشتعلان. ثمّ أمسك بيدها وانحنى على شفتيها... في الخارج بلغت جوقة الطبول والمزامير اوج تهيّجها متصاعدة في الفضاء متداخلة مع

أهازيج تلامذة المدرسة وتهاليل طلبة الزاوية وزعيق زمرة الصعاليك وزغاريد أخوات الدابرزي وبنات أعمامه وعمّاته وصديقاتهنّ وجاراتهنّ . . .

أحسّت بشيء ما يدبّ في جوفها وفي أسفل البطن. تسارعت أنفاسها، وبدا لها البيت علبة صغيرة تضغط على أضلعها وصدرها وتجعلها تختنق رويداً رويداً . . .

وإذا هي في الشارع مسرعة باتّجاه ساحة المندرة .

تفتّت حزام المجموعة النظاميّة أمام الهجمة الفجئيّة السّاحقة للجمع الذي بلغ الآن حدّاً أقصى من التهيّج . وتلاشت صيحات : « النّظام » مزّقتها الزّغاريد والهتافات الزّاعقة فذهبت أشلاء داخل الغبار.

لم يعد من المحتمل الانتظار أكثر. نفد صبر الجموع التي ظلّت ترقب منذ قرابة ساعة من الزّمن تقدّم الموكب البهيج الذي كان يحفّ بالبطل العائد ، وكان قد اقترب من السّاحة بحيث صار بإمكان النّاس أن يروه، وأن يميّزوا بوضوح أنّ مطيّته بغلاً ضخماً وليس بحصان كما كان متوقّعاً . فوق البغل صندوقان ضخمان يجلس الدابرزي متربّعاً بينهما، إذ لم يكن بإمكانه، بحكم ضخامتهما، أن يمدّ رجليه حسب وضعيّة الرّكوب العاديّة .



قالوا : إنّها بالتأكيد أسلحته وذخيرته ! وسمع البعض ممّن اقتربوا منه قرقعةً غريبة تحدث داخلها، وذهب بالبعض ظنّ أنّها جماجم عساكر الفرنسيس التي أبادها خلال معاركه على الحدود الجزائريّة، وقيل لعلّه ينوي أن يبني بها تمثالاً أو معلماً تاريخيًا يبقى عبرةً للقوى الاستعمار، مثلما بنى علي درغوث الرّايس قبل خمسة قرون برجًا بجماجم عساكر الأسبان في جزيرة جربة ظلّ إلى اليوم يُعرف ببرج الجماجم .

وصلت سيّارتا « جيب » نزل منهما عدد من أعوان الحرس الوطني سرعان ما تحكّموا في تدافع الجموع وكوّنوا حزاماً محكماً من حول بغل الدابرزي، ومن ورائهم كوّن جماعة المجموعة النظاميّة حزاماً ثانياً، ولم يسمحوا إلاّ لضاربي الطبل ولفارس جلاص بالتحام الحزامين والتمشّي في مقدّمة الموكب، بينما ضاعت جهود ومحاولات المعلّم في تجميع صبيانه الذين ابتلعهم الموج المتدافع، فاكتفى بأن راح يسير إلى جانب العمدة محاولاً أن يعبّر بطريقة ما عن مشاركته النّاس فرحتهم وحماسهم .

هو ذا الدابرزي إذنْ! لحماً ودماً! الأسطورة الغبّارية بشهرتها في الأقاصي . تحفة البطولات والمآثر تدبّ حيّة تحظى بحضورها النّابض قريةُ أولاد دابرز دون غيرها، فتمتلئ الأعين بالصورة الحيّة لذلك الكائن الذي ظلّ إلى حدّ تلك السّاعة حكاية مثيرة مثل كلّ

خرافة لا تُسلِّم نفسها للواقع.

ها هو الدّابرزي أخيراً!

بدا لهم هزيلاً شبعًا ما، شاحب الوجه. فقالوا: إنّها الحروب!

ولم تعد عيناه تشعّان بذلك البريق الملتهب الذي كان يُجمّد مفاصل من **يُدقّق فيه** النّظر، وتهدّل شارباه اللّذان كان يحرص دومًا على حبك تقويسهما ليتّخذا **شكل جناحي** غراب، وارتسمت على وجهه شبه غيمة دقيقة. فقالوا: إنّها الطريق ومتاعبها.

وكلّما أمعنوا في تقاسيم وجهه وملامحه لاحت لهم من وراء مسحة التجهّم **والإعياء** علامات هدوء مترع بشيء من الاستسلام. فقالوا: وقار الحنكة وبلوغ الحكمة!

وعلّقت بعض النّساء: آن له أن يتزوّج.

وتغامزت بعض الصّبايا وتلاكزن بالمرافق ضاحكات: آوخيتي! بعد ما شاب، ياخذوه للكُتّاب؟!

وقالت إحداهنّ: بل إنّه الآن مثل التّينة النّاضجة! فردّت عليها واحدة: مبروك عليك التّين النّاضج، أمّا نحن فما زلنا نحبّ الفلفل الحارّ!

واختلفن من جديد. لكن، على عكس الرّجال الذين كلّما اختلفوا في مسألة تجادلوا بعنف ومضى بهم الجدل إلى تهديدات وتحديات، ومشاحنات تجعل الهواء من حولهم يئزّ ضجراً بثقل الرّصاص، فإنّ الصّبايا قد صرن في غمرة الإختلاف أكثر خفّة ومرحًا، وتبارين بأساليب من التفنّن في جعل المداعبات العاهرة بطعم الصير الخوخ، وبدون منتشيات بروائح عديدة كنّ يتخيّلنها تفوح من جسد الدابرزي العائد مثل أسطورة غامضة متكتّمة في غموضها على عطور سحريّة لشذاها وقع نسمة رقيقة تداعب زغب أجسادهنّ المتوفّزة لكلّ الشهوات.

قالت واحدة متأوّهة: لكم حلمت بجسد رجل يتضوّع برائحة البارود والدّم! وردّت ثانية بأنّها تتخيّل أنفاسه متوهّجة برائحة الزّعتر والشيح وعطورات أخرى غامضة شبيهة بعبق غابة كثيفة تُحوّل كلّ خلايا الجسم إلى سائل دافئ لذيذ السّيلان.

عندما بلغ الموكب السّاحة، أوقف الدابرزي دابّته، مباشرة أمام حانوت البرني وترجّل. ثمّ أشار بيده إلى الصندوقين الأسودين الضّخميْن، فتقدّم أربعة من الشبّان وأنزلوهما بحذر من على ظهر البغل، وانسحبوا بصمت وحذر.

تعرّفوا جميعاً على نوع تلك الصناديق التي رأوا الكثير منها أيّام الحرب وبعدها. وتحفّز رجال الحرس وهم ينظرون بريبة إلى الصندوقين متفرّسين في الحروف اللاّتينيّة الصّفراء الباهتة المرسومة عليهما، دون أن يتقدّم أحد خطوة. واندلفت أمّه من بين الحشد

المتراصّ بينما هو واقف ينظر إلى صندوقيه كما لو كان يفكّر بشيء ما، وقد ارتسمت على كتفيه بدايات تقوّس فبدا متعبًا أكثر ممّا كان عليه وهو فوق مطيّته. أخيراً استطاعت أن تخترق حاجزي المجموعة النظاميّة وأعوان الحرس الوطنيّ الذين همس لهم العمدة بشيء ففسحوا لها المجال.

لم تكن تبدو على وجهه أيّة علامات تأثّر محدّد بينما هي تحتضنه باكية، مردّدة كلامًا غامضًا. كانت ملامحه متحجّرة وعيناه شاردتان، الأمر الذي جعله يبدو متبرّمًا شيئًا ما، أو غائبًا شارد الذهن، ووحيداً مثل قائد عسكري قد خاض كلّ المعارك وعرف انتصارات عديدة، يجد نفسه بالأخير داخل بيته وقد انتهت كلّ الحروب ولم يبق من المآثر والبطولات سوى طنين مبهم يتسكّع في سراديب الذّاكرة، بينما الحياة في الخارج تعلن احتفاءها بالسّلام، وتهتف بأسماء الزّعماء المدنيّين.

بدا لهم حزينًا شيئًا ما فقالوا: إنّها كآبة الأبطال!

أخيراً تخلّص من ذراعي أُمّه اللذين كانا يطوّقانه، وتقدّم نحو الصندوقين.

استنفر رجال الحرس الوطنيّ، وحدث في الكتلة البشريّة المتراصّة تململ، وبدأ التّدافع بالمناكب والمرافق، وتموّجت الكوكبة، وامتدّت الأعناق، واغتنم بعض الملاعين الفرصة ليلتصقوا أكثر بأجساد النّساء والصّبايا.



ثمّ تجمّدت الحركة من جديد، وأطبق الصّمت عندما انحنى الدابرزي بقامته الثقيلة على الصّندوق الأول، وأدار المفتاح في القفل المعدنيّ، ثمّ رفع الغطاء محدثًا صريرًا كريهًا غامضًا.



فتح الصّندوق الأوّل.. وفتح الصّندوق الثّاني. ثمّ ظلّ لحظات بدت للنّاس دهرًا، منحنيًا يُحدّق في الصّندوقين باهتمام بالغ، مُحكمًا يديه على ركبتيه، كما لو كان يلوك فكرة ما، أو يتردّد في القيام بشيء لا يُقبل المرء عليه إلاّ بعد طول تمحيص وتدقيق.

ثمّ استوى واقفًا من جديد، ودون أن يغادر الصندوقين بعينيه راح يُشمّر عن ساعديه، وقد توتّرت ملامحه وانقبضت تضاريس وجهه، فيما كلّ شيء من حوله متيبّسٌ جمادٌ كما لو أنّ موتًا فجئيًا قد حنّط ذلك الجمع الغفير وامتصّ كلّ حركة، عدا تلك الإرتعاشة الطّفيفة التي كانت تُرقص شنبي العمدة النّحيلين، بينما البرني يجاهد في منع ركبتيه من الإصطكاك، ورجال الحرس الوطنيّ متأهّبون لكلّ مفاجأة، والصّبايا قد سلّمن أردافهنّ لأيدي الصّعاليك، ونسي هؤلاء أيديهم حيث تركوها قبل أن يشرع الدابرزي في فتح الصندوقين.

فجأة، تململت الكتلة البشريّة دفعة واحدة كما لو أنّ ريحًا عاتية قد عصفت بها،

وامتدّت الأعناق، وظلّت ممطّطة دون حراك عندما قلب الدابرزي الصندوقين، وهرع من داخلهما جيش غفير من السّلاحف التي سرعان ما أخرجت قوائمها ورؤوسها ذات الرّقبات المجعّدة، وراحت تدبّ في كلّ الاتّجاهات.

ظلّ الدابرزي واقفًا وسطها دون حراك، يرقبها بعينين فارغتين وهي تتقدّم في زحفها العنيد حتّى اقتربت من أقدام أعوان الحرس، فبدأ هؤلاء ينسحبون إلى وراء في صمت، والسّلاحف تتقدّم، وهم ينسحبون ويوسّعون الحلقة حتّى اختلطوا ببقيّة المتفرّجين الذين بدأوا بدورهم يتراجعون شبرًا شبرًا، خطوة خطوة، والحلقة تكبر، وهم يتراجعون إلى أن غطّت السّلاحف ساحة الشّهداء بكلّيتها، والنّاس يتراجعون وحلقة الفراغ تتّسع من حول البطل الغامض، حتّى غدا يقف وحيدًا إلى جانب صندوقيه الفارغين.

ابتلعت القرية أهلها رويدًا رويدًا. وبصمت، اختفى العمدة والبرني ورجال الحرس الوطني داخل الحانوت. انغمست السّاحة المقفرة في صمت ثخين، وكانت الشمس تمتصّ آخر شعاع لها وراء سلسلة الجبال الزرقاء. عندها ركب الدّابرزي بغله والحدر من جديد باتّجاه الطريق البيضاء المغبرّة التي قدم منها.





١. الفكرون: السلحفاة في اللّهجة التونسيّة.
٢. سرجان: عبارة دخيلة من اللغة الفرنسيّة وتعني رتبة «عريف» في الجيش.
٣. تعني: المحاربون القدامى من أجل فرنسا الحرّة.
٤. الجندرمة: «الدرك» أو أعوان الأمن في القرى والأرياف في عهد الاستعمار.
٥. تعني: عيّنة من الطابع الدونكيخوتيّ في شخصيّة السكّان الأصليّين بالمستعمرات.
٦. سِرْدوكْ: ديك في اللهجة التونسيّة.

كاتب من تونس مقيم في برلين / ألمانيا

محمد علي طه

# مصطفى بلّوط ينتسب

بسم الله الرحمن الرحيم. والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله وعلى الصحابة والتابعين إلى يوم الدين. أمّا بعد؛ أنا العبد الفقير لله تعالى مصطفى جابر بلوط. رجل مقطوع بلا حسب وبلا نسب. الناس في بلادنا ينتسبون إلى قبائل شهيرة أو شخصيات كبيرة مثل آل الحسيني أو آل الخالدي أو آل التميمي، أما أنا، وأعوذ بالله من كلمة أنا، فأنتسب إلى بلوط.

يقول المثل الشعبي: فلان مقطوع من شجرة للدلالة على أنه بلا أهل وبلا أقارب. أمّا أنا فيبدو أني ولدت من شجرة. من برعم من براعمها أو من ثمرة من ثمارها أو خرجت من جذعها كما ولد إله الحب والجمال في مروج تلك البلدة التي ولدت فيها أمي.

فكّرت ذات مرّة أن أنتسب إلى تغلب أو إلى غسّان كما تزعم كثير من عائلات هذه البلاد، وكما راودني الوسواس الخنّاس، ولكنني تراجعت فأنا لست زيادًا، وأمي معاذ الله أن تكون سميّة. ولا أطماع لي في ولاية الكوفة أو البصرة أو صفد. ورضيت بنسبي الشجري فالشجرة كريمة معطاءة لا تنافق ولا تتآمر ولا تخون.

أنا أنتسب إلى شجرة السنديان القوية المعمّرة دائمة الخضرة التي تتمتّع بقوة الصمود والبقاء حتى لو قطع الفلاحون أو الجنود جذعها أو حرقوها فإنها تُخرج براعم جديدة من جذورها المتمسّكة بالأرض أو من جذعها القوي وتعود شجرة جديدة شابّة. وبفضل هذا النسب البلوطي حافظنا على بقائنا في هذه الدنيا القاسية الفانية.

روت لي أمي أن والدي، جابر بلوط، حوراني. هرب من جبل حوران إلى فلسطين في زمن السلطان عبد الحميد. ويبدو أننا من سلالة رواة حكّائين فقد ألّفت أمي حكاية مشوّقة عن رحيل والدي من حوران إلى بلدتنا كفر الزعتر تزعم فيها أن والدي جابر كان شابًا جميلاً وقويًا وشهمًا مثل شبّان بني حمدان. وكان ذا صوت جميل يأسر قلوب السّامعين وبخاصة بنات حواء اللائي خلقهن الله تعالى لغواية عباده الصالحين. وتؤكد أمي

أن والدي، عندما كان يمشي في البرّية على سفوح جبال حوران الشمّاء وفي وديانها العميقة الخضراء وينطلق صوته الشجي بالغناء، تتوقّف أيدي النساء عن الحليشة والقليعة والحصاد وتخرج آهات حارقة من صدورهن تجفف ما بقي من الزرع أخضر. وحدث مصادفة، كما يحدث في الحكايات، أن مرّ والدي في قرية نائية من قرى حوران فوجد عرساً وشباناً وصبايا يرقصون ويغنّون فانضم إلى المحتفلين وغنّى لهم بصوته الجميل فاطرب الحاضرين رجالاً ونساء. وكان بين المعرسين فتاة جميلة تقول للبدر إنزل حتى أقعد محلّك. إسمها «خضرا» وهي إبنة شيخ القرية.

نظرت إلى المغنّي الشاب فطار قلبها وعقلها وبدأت تحوم حوله مثل الفراشة حول النار وتومىء له بعينيها السودوايين. وبما أنه هناك ثلاثة أمور لا تخفى وهي الجمل والحبل وحب العذراء، فقد شاهدها جابر وتأمّل جمالها الأمر فخفق قلبه الشاب وتعلّق بها وبادلها كلمة أو كلمتين.

وانتهى العرس لتبدأ قصة حب نارية. صار جابر يزور البلدة ليلاً نهاراً ليراها ويلتقي بها إلى أن قرّر أن يتزوّجها خطيفة فهربا معاً في إحدى ليالي أيلول، دباغ الزيتون، وتوجّها غرباً.

ولما أفاقت أمها في الليل لم تجد خضرا الجميلة في فراشها فقد عرفت وأعلمت الشيخ فقفز الغضب من عينيه وتراقص شارباه واستعدى رجاله فحملوا سلاحهم وركبوا خيولهم وساروا في أثر العاشقين حتى رأوهما عن بعد فطاردوهما حتى لحقوا بهما والقوا القبض على خضرا ودار شجار عنيف بين جابر وبين رجال الشيخ فطعن جابر احدهم بالخنجر في صدره وولّى هارباً. والدم ثقيل والعرض أثقل منه. وبلاد تأخذه وبلاد تجيبه إلى أن وصل إلى ديرة صفد فنام ليلة أو ليلتين في أحد خاناتها. وبعد أن استراح حطّ وجهه في باب الغرب ومشى ومشى إلى أن وصل إلى مشارف بلدة كفر الزعتر فأعجبه موقعها وهواؤها. وحينما وصل إلى عين القرية شرب منها فاستساغ ماءها وسأل إحدى الملأيات: «أين ينزل الغريب في بلدتكم ؟» فأجابته: «في المنزول. أو في دار الشيخ خالد».

توجّه جابر إلى دار الشيخ خالد، كما أرشدته الملآية، ودخل إلى ديوان الشيخ وسلّم وبعد أن شرب الماء والقهوة عرض على الشيخ أن يعمل خادماً عنده وأكّد له أنه يجيد أعمالاً عديدة مثل الرعي والحرث والتحطيب وصنع الفحم وإعداد القهوة السادة وتدجين الحيوانات الشموس، ووعد جابر الشيخ أن يكون عنده «خاتم شبّيك لبّيك» فرقّ له قلب الشيخ بعد أن سمع كلامه فاستخدمه مقابل أجر سنوي مقداره عشرة أكيال قمح يبقى أمانة في ذمّة الشيخ حتى يحتاجه جابر بالإضافة إلى طعامه وكسائه السنوي ثلاثة قمصان

وثلاثة شراويل وقمبازين وبسطار شغل وكندرة صنعة البروة.

كان جابر بلوط الخادم النشيط الأمين يرعى البقرات والعجول في البراري طيلة النهار وعندما يعيدها في المساء إلى الزريبة يتوجّه إلى المتبن ويملأ المذود للثيران ويخلطه بالكرسنّة ثم يتفقّد فرس الشيخ الأصيلة يمشّطها ويحك رقبتها ويلاعبها ثم يدخل الديوان ويصب القهوة السادة للسّامرين.

اشتغل جابر في كل عمل أمر به مثل تنظيف الأراضي من الحجارة إلى الحراثة والحصاد والدّرس والتذرية ورعي المواشي وقطع الحطب من الوعر ونقله إلى دار الشيخ. وبعد سبع سنوات من العمل الشاق قال له الشيخ:

– جابر؟

– نعم سيدي الشيخ.

– ما رأيك أن أعطيك مقابل عملك في هذه السنوات «رباع التينة» ونبني لك بيتاً فيه فقد صرت واحداً من أبناء كفر الزعتر.

وافق جابر على اقتراح السيد لأنه ربط مصيره بالبلدة وكان قد انسجم مع شبّانها وأهلها. وأمر الشيخ أحد البنّائين أن يبني بيتاً لجابر في رباع التينة.

وفرّت دمعة ساخنة من عيني أمي عندما قالت: «وفي ذلك العام وصلت إلى البلدة. الحرب والجوع أو الخوف والجوع عدوان لدودان لأبناء آدم. يذلان كرام الناس ويفرّقان الأحباب والأشقاء والعائلات. ألم يقل الله تعالى عن قريش «أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف»؟

لم يبق في بيوتنا شيء نأكله. ونحن لسنا أفاعي نأكل التراب. قررت، بالسر، أنا وزينب وجميلة، أن نترك بيوتنا وضيعتنا في جبل عامل ونتّجه إلى فلسطين بحثاً عن لقمة الخبز. كانت جميلة أكبرنا سنّاً. أرملة شابّة مات زوجها في العسكرية بعد أن جنّدوه وهو عريس طري. وزينب بنت الجيران، أبوها شعيب الذي ركب ظهر الضبع وفص عظام الذيب.

سرنا أياماً في طرق وعرة نرعى العشب ونتناول حب الشعير من خراء الخيل وننام في المغاور خائفات من الضباع والذئاب. ذئاب البر وذئاب البشر إلى أن وصلنا في مساء يوم من شهر أيار إلى جدر بلدة كفر الزعتر فالتقينا صبيّاً. عبّاس أبو النايات. هذا الذي صار حلاّق البلدة وطبيبها والذي كلما التقى جميلة قال لها: «آه لو كنت في ذلك اليوم أكبر من عمري بخمس سنوات؟» فسألته جميلة: «أين ينام الغريب في بلدتكم؟» فقادنا إلى بيت الشيخ وهو، طيلة الطريق، يلتفت إلينا ويتأمّلنا واحدة واحدة. فدخلناه متعبات منهكات جائعات ذليلات مجاورات.

قدّمت لنا زهرة العمشا، الخادمة في بيت الشيخ، طعاماً من خبز الذّرة واللبن الرائب، فالتهمناه بشراهية كأننا نتناول الفراخ أو منسف الخروف. كنّا نلتهم الطعام غير مصدّقات وزهرة تراقبنا وتروح وتجيء إلى المعجن تنقل الكراديش إلينا ثم إلى دست اللبن وتغرف منه بالطاسة وتصبّه في صينية النحاس التي أمامنا وتردد: يا حرام. الجوع كافر.

ويبدو أن خبر وصولنا انتشر في البلدة فجاء كثيرون إلى دار الشيخ يسألون عن الضيفات ويتشمّمون أخبارهن.

وصل جابر عائداً من الحقل يسوق الثيران إلى الزريبة وبعد أن ملأ المذود بالأعشاب توجّه إلى زهرة العمشا يطلب عشاءه فقدّمته له وزفّت له بشرى الضيفات الغريبات، فتناول طعامه على عجل وتقدّم من غرفة النسوة وألقى نظرة فاحصة عليهن.. كان في عينيه نظرة ذكر الحمام الذي يبحث عن قرينته. كما وصفت لي أمي ذلك اللقاء.

تتذكر أمي، بعد سنوات طويلة، ذلك المساء وتقول: «شعرت أن الرجل يحدّق بي أنا. قلت في نفسي: «اللهم استرني في هذه الليلة؟».

سأل جابر زهرة العمشا: هل تعرفين اسم هذه الصبية؟ وأشار إلي بسبابته.

سألتني زهرة عن اسمي فأجبتُ بصوت خافت خائف: وردة.

فابتسم جابر واستدار ومشى.

نمتُ في تلك الليلة بين زينب وجميلة خائفة مرتعدة وحلمت بوالدي وأخي وضيعتي.

في مساء الغد قالت لي زهرة:

وردة، الشيخ يدعوك إلى الديوان. إلحقي بي.

تبعت زهرة مرعوبة وأفكار سوداء تراودني فوجدت الشيخ وجابر ورجلاً آخر جالسين في الديوان. دخلت مثل فرخة خائفة من طائر جارح ووقفت قرب الباب. نظر الشيخ إلي وسألني: وردة؟ جابر يريدك زوجة على سُنّة الله ورسوله. هل تقبلين به؟

كانت مفاجأة كبيرة لي.

زوج وبيت ولقمة خبز مرة واحدة.

قلت: ما يراه سيدي.

قال: أكتب الكتاب يا مأذون.

فسأل المأذون: ما مهرها؟

نظر جابر إلى الشيخ وكأنّه يستجير به ليحلّ المعضلة التي لم يفكّر بها فتبسّم الشيخ وقال: أكتب صداق رقبتها «منازل النور».

بهت المأذون ولكنّه لم ينبس ببنت شفة. قلت لأمي: منازل النور. تلك الأرض المشاع؟

أجابت: وهل كان أبوك يملك مهرًا؟

وبعد أن قرأوا الفاتحة ومسحوا وجوههم بأكفّهم قال الشيخ: خُذ عروسك يا جابر إلى بيتك.

وهكذا جئت إلى الدنيا بعد تسعة أشهر.

قالت لي أمي: كنت ارغب بان أسميك علي وهو إسم أخي الذي لم اره منذ غادرت الضيعة. وكان أبوك يرغب بان يسمّيك عمر وهو اسم صديق له في شبابه. ثم اتفقنا ان نسمّيك مصطفى.

كل فرد منّا يحمل قصة مجيئه إلى هذا العالم الواسع. قصص متنوعة منها المثير ومنها الباهت وأما أنا مصطفى جابر بلوط فيعجبني أنني ثمرة حب منذ النظرة الأولى بين جابر حوران وبين وردة لبنان. وحينما كان رفاقي يفخرون في ليالي السمر على البيادر او في ملاعب الصبّا على هضاب البلدة ونحن نلتقط الدريهمة والقصيقصة والبربه من بين الاعشاب ونأكلها بلذّة، حينما كانوا يفخرون باجدادهم وانسابهم كنت اقول: انا مصطفى بلوط. أعمامي أهل الشام واخوالي أهل لبنان.

في تلك الأيام، كانت الأوبئة عديدة، والفقر متفشيًا بين الناس، وكان المرض والجوع يفتكان بالبشر وبخاصة الأطفال.

أنجب والدي طفلين آخرين ماتا في صغرهما واحد منهما مات بمرض الحصبة الذي أودى بنصف أطفال البلدة في ذلك العام، وأمّا الثاني فقضى من الحمّى ولعلها الملاريا. ولأنني ولدتُ قويًا تمكّنت من العيش. هذه الدنيا لا يعيش فيها سوى الأقوياء. ولا مكان للضعفاء فيها وإن لم تكن ذئبًا أكلتك الذئاب بل الثعالب وبنات آوى.

أرسلني والدي وأنا في السّابعة من عمري إلى كُتّاب الشيخ صالح فحفظت ربع القرآن الكريم من سورة «الناس» حتى سورة «يس». كنت أمقتُ هذا الشيخ بسبب عصاه الغليظة التي كان ينهال بها علينا بدون رحمة، بسبب أو بلا سبب. وكنتُ أقرف من طريقة تناوله طعامه بشراهة وأتضايق كثيرًا عندما يسألني بوقاحة وقلّة حياء: «متى ستأتي وردة إلينا ومعها لقمة طرية؟» فأتساءل متى أتخلّص من منظره القبيح وأقول في نفسي إن هذا لن يتحقّق إلاّ بحفظي القرآن الكريم كله أو بموت الشيخ، وكنتُ أتمنّى الثانية.

في السنة الثالثة لدراستي منحنا الشيخ يوم عطلة لنتفرّج على عرس ابراهيم بن الشيخ خالد ولنأكل لقمة الفرح كما قال، فلقمة الفرح إن لم تقدّم إليك اسرقها. والحقيقة كما أظن أن الشيخ المعلّم كان يخشى أن يصل إلى مائدة العرس متأخرًا ويخسر قطعًا من لحم

الخروف ومن منسف الأرز.

كان عرسًا كبيرًا لم تعرف البلدة مثيلاً له. شارك فيه أهل البلدة وعدد من الضيوف الذين قدموا مدعوين من القرى المجاورة. من شعب وميعار وكابول وسخنين والدامون والبروة وغيرها. ذبحوا عجلاً وسبعة خرفان وطبخوا كيسًا كاملاً من الأرز.

كان أهل البلدة، رجالاً ونساءً وأطفالاً، يزفّون العريس من البيادر الغربية. الرجال في صف السحجة والحدّاء اللبناني الذي دعاه الشيخ لإحياء الحفل يصدح صوته بالغناء.. العتابا والميجانا والمواويل. والنساء وراء العريس يغنّين ويصفقن بأكفهن المخضّبة بالحنّاء الذي وزعته أم العريس مجانًا عليهن. وكانت أمي وردة واحدة منهم ترقص وتزغرد. البلدة فرحة مسرورة والكل يرقص ويغنّي والأطفال يمرحون واعدين أنفسهم بوجبة سمينة.

كنتُ أتدافع مع رفاقي لأحصل على كأس شراب حلو من خلقينة سليمان أبو خشبة الذي أعدّته زوجته إكرامًا للشيخ وزوجته وابنه العريس عندما سمعت، وسمع الناس، طلقًا ناريًا واحدًا في جهة الشرق أثار ريبة البعض. فالعرس لابراهيم ابن الشيخ والحدّاء لبناني والبرجاوي يرقص أمام صفّ السحجة رقصات بهلوانية. ومائدة العرس تنتظر الأفواه والمعد الجائعة.

ويبدو أن أحد الحاضرين أقلقه الطلق الناري فذهب يستطلع الأمر وعاد بعد دقائق يهمس في أذن الشيخ خالد كلمات قليلة.

بعد سنوات، عندما سألت زهرة العمشا عما حدث قالت لي: «كان رحمه الله معنا. أوكل له الشيخ خالد مهمّة الإشراف على الطبّاخات ومساعدتهن لإعداد مائدة العرس لتكون جاهزة حين وصول الزفّة إلى الدار. كان يعمل فرحًا وكان العرس عرسه. يجلب الحطب إلى الموقد وينقل طناجر اللبن والأرز واللحم ويرتّب الطاولات وهو يغنّي ويرقص. وفيما نحن في شغلنا وصل أربعة عساكر إنجليز يمتطون الخيول.

سأل الإنجليزي: فين شيخ؟

أجابه جابر: في العرس يا مستر.

عاد الانجليزي يسأل: فين شيخ؟

فأجابه جابر: في العرس يا كابتن. البلدة كلها ترقص وتغني. وبدأ يرقص أمام العساكر ويصرخ: «فانتازيا فانتازيا يا كابتن». فتناول الكابتن مسدسه من جانبه وأطلق رصاصة على رأس جابر فسقط على الأرض ودمه يتدفّق.

ورطن الكابتن كلمات ثم أداروا رؤوس خيولهم وانصرفوا.

يقول أهل البلدة إن الشيخ خالد تصرّف كما يتصرّف الرجال. فقد أمر أربعة رجال من

أقاربه أن يحملوا جثمان والدي وينقلوه إلى بيته ويقفلوا الباب ليبقى الأمر سراً حتى نهاية العرس.

والغريب أن أمي لم تعلم. كانت تغنّي وترقص وتزفّ العريس. أكلت وشبعت من طبيخ العرس والدم ينقّي من جثة والدي.

وأنا أيضاً ركضت ولعبت وأكلت وطربت.

قتل الإنجليز أبي وهو يرقص ويغنّي. وصارت وردة أرملة شابة بدون أهل وبدون أقارب.

وتركتُ كُتّاب الشيخ صالح بعد أسابيع من مقتل أبي لكثرة ما كان يسألني عن أمي ويقول لي: سلّم على أمك يا مصطفى.

وكنتُ أردّ عليه همساً: «لا سلم فيك مغرّ إبرة». ولم أنقل سلاماته لأمي.

لم يمر شهر على مقتل والدي حينما استدعى الشيخ خالد أمي فذهبت إلى داره التي لم تعبر خوختها منذ مصرع أبي المأساوي.

روت أمي لجارتنا عائشة العلي أنها لما عبرت خوخة الدار سمعت هاتفاً يناديها: وردة! وردة! فتسمّر قدماها ثم ردّت بصوت خافت: نعم يا جابر.

فشاهدت طيفه قرب المطبخ مضرجاً بالدم واختفى بسرعة رمشة العين.

وفيما هي مذهولة ناداها الشيخ خالد: وردة.. تعالي يا ابنتي!

تقدّمت ووقفت في باب الديوان فوجدت عنده الشيخ صالح، مدرّس الكُتّاب، فبادرها الشيخ خالد قائلاً: الشيخ صالح رجل تقي وورع وجاء يسألني أن يتزوجك ويعد بأن يرعى مصطفى كأنّه ابنه. والزواج سُنّة. والباب المقفل لا تدخل منه الريح.

وتنحنح الشيخ صالح وقال: أنا مستعد أن أنتظر حتى تنتهي العدّة.

بقيت صامتة للحظات فقال الشيخ خالد: صمت الفتاة البكر يعني الموافقة وأما الثيب فيجب أن نسمع رأيها. ماذا تقولين يا وردة؟

– لن يدخل فراشي رجل بعد جابر.

فقال الشيخ خالد: الدنيا غدّارة يا ابنتي ومليئة بالكلاب، والزواج يحميك منها.

حدّقتُ في وجه الشيخ خالد ثم في لحية الشيخ صالح وقلتُ: الكلب الحماري ينبح ولا يعض.

ابتسم الشيخ خالد وقال: روحي. مع السلامة. الله يستر عليك.

استدرت خارجة وأنا أسمعه يقول: «الغربه تضيع الأصل».

ماذا كان يقول طيف أبي المضرّج بالدم؟ هل نادى: «وردة. وردة» أم نادى: «مصطفى. مصطفى» ولم تقل لي أمي ذلك خوفاً ومحافظة عليّ؟

تقول العرب إن دم القتيل ينادي ويستغيث وسمعت أن روح القتيل تتحول إلى طائر غريب يقف على صخرة أو شجرة بالقرب من مقتل الرجل وينادي : إسقوني . إسقوني . .

عندما كنت أتذكّر أبي ، وكثيراً ما أتذكّره ، خاصة إذا سمعت أمي تبكي أو إذا اعتدى عليّ من هو أكبر مني وأقوى . . كنت أسير حتى أصل إلى مقربة من بيت الشيخ خالد وأبدأ بالبحث عن طائر أبي .

هل اختفى طائر أبي لأنه يراني صغيراً أم أنه لا يريد توريطي بعملية صعبة حتى لا أقول : ضيّعني أبي صغيراً وحمّلني دمه ؟ لماذا قتل الإنجليز أبي ؟

يا زهرة العمشا قولي لي : لماذا أطلق الإنجليزي الرصاص على رأس أبي ؟ أرجوك يا زهرة قولي لي ما هي كلمات أبي الأخيرة ؟

معة مرة سألتني وأجبتك يا مصطفى . كان جابر يرقص ويقول : « عرس . فانتازيا يا كابتن فانتازيا » ويضحك ويضحك فأطلق عليه الإنجليزي رصاصة من مسدّسه . لا أدري ما الذي أثار ابن الكلب . هل هي شتيمة ؟ كلمة عيب ؟ لأول مرة أسمع تلك الكلمة يا مصطفى . سألت أمك عن معناها فأجابت بأنها لم تسمعها من فم جابر طيلة السنوات العشر التي عاشتها معه .



كانت الحياة صعبة وقاسية على امرأة أرملة فقيرة لا دخل لها . كانت أمي وردة لبنان ، تذهب في أيام الشتاء والربيع إلى الحقول ، مع عمّال وعاملات الشيخ خالد ، تنكش وتقلع الأعشاب من بين الزرع مقابل أجرين اثنين والحد مقدم والثاني مؤخر . الأول رغيفان من الخبز مدهونان بزيت الزيتون هما زادها اليومي فتأكل رغيفاً وتخبّئ الآخر لي ، وأما الأجر المؤخّر فهو السماح لها بأن تلتقط السنابل التي لا تصل إليها مناجل الحصادين في حقل الشيخ في أيام الحصاد أو السنابل التي تساقطت في أرض الحقل وهم يجمعون الأغمار في حقل وأكداس كي تنقلها الجمال إلى البيدر .

كانت وردة تعمل كالنملة . تجمع السنابل من شروق الشمس حتى غروبها وتعود إلى البيت وهي تحملها على رأسها ثم تدرسها بيديها . تضرب السنابل بمخباط خشبي ثم تذروها وتجمع حب القمح وتخزنه .

وأما أنا فكنت أقضي النهار وأنا ألعب وأعدو . أغير على كروم العنب في الصيف وعلى كروم اللوز في الربيع . ألتهم منها ما تصل إليه يداي ، وأحياناً أملأ جيبي وفي الشتاء كنت أصطاد العصافير . كنت أحمل فخّين صنعتهما من سلك حديدي وجدته في مخلّفات فرقة من الجيش الإنجليزي كانت قد خيمت لمدة ثلاثة أيام في وعرة الثعالب . وذهبت يومئذ مع مجموعة من أترابي بعد رحيل العساكر نبحث عن شيء نأكله . علبة سردين

منسيّة أو علبة لحمة أو حبة بطاطا.

كنت أخرج مع شروق الشمس أبحث عن العصافير مثل اللاّمي والحلاّج والحنيني والشحيتي والزرزور والسمّان فإذا شاهدتها أغمر الفخ بالتراب قرب صخرة أو شجيرة تاركاً طعام الطير في فم الفخ ينادي العصافير. كنت أعرف ما يحبّه كل عصفور من الطعام. دودة الخرفيش أو دودة الأرض أو صرصار التراب. وكان فرحي كبيراً عندما أصطاد عصفورين أو ثلاثة وأعود بها إلى أمي لتطبخها لي. كان لحم العصافير هو اللحم الوحيد الذي آكله بالإضافة إلى لحم الأضاحي.

كان طعامنا بائساً. العلت والخبّيزة والبرغل مع المرار في الشتاء والربيع. والبرغل والعدس في الصيف والخريف. وأحياناً كنّا نكتفي بالخبز والزيت والبصل. وفي أيام الربيع عندما يكثر الحليب واللّبن عند الطرّاشين مثل الشيخ خالد والمختار والأفندي كانوا يستأجرون نساءً فقيرات لنقل اللبن الرائب إلى مدينة عكا وبيعه للحاج محمد اللبّان. كانت أمي تحمل دسْت اللبن الكبير على رأسها وتسري مع الفجر برفقة النسوة إلى مدينة عكا تبيعه بعشرة قروش تتقاضى منها قرشين أبيضين مثقوبين في الوسط. تمشي خمسة عشر كيلومتراً ذهاباً، وعلى رأسها دست اللبن الثقيل، وتمشي مثلها إياباً. وكنت أنتظرها عند كرم التين عند عودتها لعلّها تجلب لي شيئاً من الحلوى، قطعة كعكبان أو قطعة هريسة أو قطعة حلاوة سمسمية. وكانت تجمع القروش قرشاً فوق قرش لتشتري ملابس لي ولها.

وفي أيام قطف الزيتون كانت أمي تتبع حبات الزيتون الضائعة بين الأشواك أو المنسية على فروع الأشجار العالية وتعود مساء كل يوم تحمل كيساً صغيراً به شيء من ثمر الزيتون. تجمعه طيلة فترة القطاف فتملأ كيسين أو ثلاثة أكياس تنقلها إلى المعصرة وترجو البراكين أن يدرسوها لها. وكانوا يهملون زيتونات أمي في معظم السّنين حتى آخر الدراس فكيف لهم أن يتركوا غلال الزيتون الكثيرة للملاكين الكبار ويهتمّوا ببعارة أمي؟

في إحدى السنوات كانت غلّة الزيتون شحيحة ولم تجمع أمي إلا القليل القليل مما جعل البرّاك يرفض درسه لأنّه لا يملأ حجر البد فحملته ودرسته بيديها واستخرجت منه زيتاً طفاحاً طيباً زكياً.

عدتُ في يوم ما إلى البيت وطلبت من أمي العشاء فأحضرت لي رغيف خبز ورأس بصل بلدي وتأمّلتني بعينين حزينتين.

سألتها: أين الطبيخ؟

– لم أطبخ يا ولدي.

استغربت جداً ففي الأيام التي كانت أمي تعمل في التعشيب أو القليعة أو بيع اللّبن أو

التقاط السنابل أو بعمارة الزيتون كانت تطبخ حتى لو عادت بعد الغروب.

سألتها: لماذا؟

اجابت: نفد الزيت.

واشارت إلى جرّة الفخار التي تخزن بها زيت الزيتون.

سألتها: وسنبقى بدون زيت؟

اجابت: إلى ان يفرجها الله.

كنت الوك الخبز واقضم البصل وأنا أفكر متى سيفرجها الله علينا.

خرجت من البيت مهموماً وتجولت في شوارع البلدة وتفحّصت عدّة بيوت للاثرياء وقررت أن بيت الافندي فيه مخزن للزيت فعدت ومررت بجانب البيت وعاينته جيداً.

في منتصف الليل تناولت جرة الزيت الفارغة وخرجت من بيتنا وما كدت أسير خطوات حتى التقيت بدوخي الذيب عائداً من الخلاء حيث كان يقضي حاجته: إلى اين يا ولد؟

– انا لست ولداً يا عمّي دوخي.

– طيّب. إلى أين يا شاب؟

– إلى العين لأملا الجرّة.

– وهل الشبان ينقلون الماء من العين؟ هذه شغلة نسوان.

– أمي مريضة وعطشى.

– وتذهب في الليل إلى العين؟

– وهل اذهب في النهار ويراني الناس انقل الماء حتى يقولوا صار مصطفى بنّوتة؟

وافترقنا.

وصلت إلى الساحة قرب بيت الأفندي. الدنيا ظلام ونجوم قليلة في السماء ونسمة هواء باردة تتسلّل إلى عظام الجسم. اقتربت من البوّابة وإذا رباح، كلب الأفندي، يعدو نحوي نابحاً فتراجعت. رباح كلب شرس جداً. وقفت بعيداً يسترني الظلام حتى هدأ الكلب.

تذكرت اني أحضرت قطعة خبز في جيبي لأرشو الكلب بها. مشيت خطوات وأنا أحدّق في عينيه اللامعتين في الظلام. اخرجت كسرة الخبز من جيبي وقلت بصوت خافت: رباح. رباح. خذ.

ورميت كسرة الخبز امامه. فنبح وعدا نحوها. شمّها عدّة مرات ولم يأكلها. رباح شبعان ولا يأكل الخبز الجاف. كلب الافندي افندي. كيف غاب ذلك عن عقلي؟

انتظرت جانباً لعلّه ينام. حاولت ان أغافله عدّة مرات ولكن رباح كان يهب مثل الريح نحوي نابحاً.

كدت أيأس. جلست بجوار الجرّة فشعرت بالبرد ووقع نظري على طابون دار الأفندي الواقع في الساحة الخارجية. كان الدخان ينطلق منه بعد أن زبلته ريمة العرجا في المساء فتوجهت إليه باحثاً عن الدفء منتظراً نوم رياح.

جلست في زاوية من الطابون فتاذّت عيناي من الدخان وبدأت أفركهما بأصابع يدي. وهنا خطر لي خاطر شيطاني. تناولت القُفّة التي تستعملها ريمة العرجا لتزبيل الطابون وملأتها رماداً دافئاً من الرماد الذي يحيط بالفرن وحملتها وسرت نحو رياح فقفز نحوي نابحاً هائجاً فوضعت القُفّة على الأرض وعدوت عائداً إلى الطابون. شاهدت رياح بعد لحظات يقترب من القُفّة ويشمّها عدة مرات. تركها ومشى عائداً إلى البوّابة ثم عاد وشمّها ودار حولها ثم صعد إليها وتمدّد فيها.

يبدو أن رياح كان يشعر بالبرد فشمّ الدفء في رماد القُفّة. وبعد دقائق خرجت من الطابون وسرت على رؤوس أصابع قدميَّ متّجهاً نحو القُفّة فوجدت الكلب نائماً فحملت القُفّة وسرت عائداً إلى الطابون ووضعتها فيه وأغلقت الباب ساجناً الكلب فيه. وكدت أضحك من نفسي ومن الكلب.

حملت الجرّة واقتربت من البوابة وفتحتها ودخلت ساحة الدار متجهاً إلى مخزن الزيت فوجدته مقفلاً. أخرجت من جيبي كمّاشة صغيرة أستعملها في صنع الفخاخ فعالجت السكرة بها بحذر حتى خلعتها.

دخلت المخزن المظلم ومددت ذراعي أتحسّس خوابي الزيت الكبيرة ووجدت على باب إحداها مكيال الزيت فغرفت من الخابية حتى ملأت الجرة.

عدتُ إلى بيتنا قبيل الفجر فأفاقت أمي من نومها وسألتني: ما هذا يا ولد؟

– زيت.

– من أين؟

– الله بعث.

– هذه سرقة. هل تريدنا أن نأكل حراماً؟

– هذا ليس حراماً. هذا من بيت الأفندي. الأفندي هو الحرامي الأكبر الذي لا يفطن بأرملة لا نقطة زيت في بيتها لتطبخ لها ولابنها صحن برغل.

نظرت أمي إليّ مستغربة من كلامي وعملي وكأنها تقول: كبر الولد.

وفي الغداة اكتشف الأفندي أن باب مخزن الزيت مخلوع فأيقن أن لصاً سرق زيتاً منه فنادى رياح ووبّخه وسأله عدّة مرات: أين كنت يا كلب؟

وعلم الأفندي من ريمة العرجا أنها وجدت الطابون مقفلاً ووجدت رياح نائماً فيه فأخذ

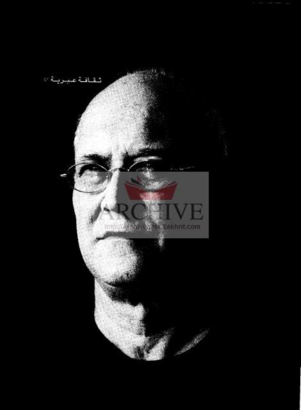
يحكُ جلدة جبينه كعادته ويفكّر بما حدث.

انتشر الخبر في البلدة وتساءل الناس عن جراة اللص الذي اقتحم دار الأفندي واحتال على رياح الشرس.

وبعد ايام التقيت في الحارة بدوخي الذيب فناداني وقال لي: انت قبضاي مثل جابر. اللّه يوفقك لأملك.

وبقي السرُّ مكتوماً بيننا.

(فصل من رواية جديدة، قيد الكتابة، بعنوان «الجرّة»)



# أهارون شبتاي: شيزوفرينيا الوطن

ولد أهارون شبتاي في تل-أبيب في العام ١٩٣٩. درس التراث الإغريقي والفلسفة في الجامعة العبرية وهو يعمل الآن مُدرِّسًا للأدب العبري في جامعة تل-أبيب. ينتمي إلى جيل الشّعراء العبريّين الّذين ترعرعوا مع قيام دولة إسرائيل، ويُعدّ من أبرز مترجمي الدّراما الإغريقيّة إلى اللّغة العبريّة حيث يواصل مشروعه هذا منذ سنوات. وقد ترجم حتّى الآن ٢٤ عملاً دراميًا إغريقيًا من الأصل الإغريقي إلى اللّغة العبريّة. له مؤلّفات شعريّة كثيرة حيث نشر منذ العام ١٩٦٦ ستّ عشرة مجموعة شعريّة بالإضافة إلى مؤلفات وكتابات أخرى. يكتب شبتاي الشعر الحرّ، إضافة إلى شعر منظوم بتقنيّات عالية يعتمد الوزن والقافية، ما يقف عائقًا أمام الترجمة إلى لغات أخرى.

شبتاي هو واحد من الشّعراء الإسرائيليّين المعاصرين المثيرين للجدل. مضامينه الشّعريّة متعدّدة وهي، من جهة، تشمل العادي الشّخصي الّذي يبوح بتجارب حياتيّة لا تختلف كثيرًا عن يوميّات وتجارب الأفراد في كلّ مكان، وحتّى التّعبير عن التّجارب المُغرقة في الفردانيّة والإيروسيّة دون أن يجد حرجًا في استخدام الألفاظ المباشرة الدّارجة على ألسنة النّاس في الحديث اليومي، في الشّارع وفي غرف النّوم. ولكنّه من جهة أخرى يحاول أحيانًا توظيف هذه الألفاظ والعبارات والصّور اليوميّة في القول الشّعري من خلال وضعها في سياق متناقض مع ما يُضفى عادةً على الشّعر من هالة قداسيّة. كذلك يحاول أن يوظّف هذه التّعابير في سياق متصادم مع ما يجري من أحداث راهنيّة على السّاحة السّياسيّة. بذلك فهو يُحدث هزّة في ذهن القارئ ويجعله مُجبرًا على رؤية ذاته المنفصمة في شظايا مرآته المشدوخة ابتغاء دفعه إلى إجراء مصارحة ذاتيّة في خلْوته بينما يكون متحرّرًا من القيود الّتي تكبّله في ممارساته اليوميّة لطقوسه الإجتماعيّة، أو تهرّبه من الجوّ السّياسي العام.

ليس ذلك فحسب، بل نراه لا يجد غضاضة في التّعبير المباشر والتّقريري عن رأي في الواقع السّياسي والعام فهو ينزع أحيانًا إلى كتابة شعريّة مباشرة غير مُبطّنة يكشف من خلالها عن مواقف سياسيّة تثير الجدل في الشّارع الإسرائيلي. فهو يعلن الحرب على

الاحتلال الإسرائيلي، أو بطلب، وبسخرية لاذعة، من الطيّار الّذي يقصف جنين بأن يطلي الصّاروخ بالشّوكلاطة لكي يبقي لأهلها ذكرى حلوة بعد أن تنهار الجدران على من فيها. وها هو في مكان آخر يعبّر عن مدى الإحباط الّذي يشعر به الفرد، الشّاعر، تجاه ما يجري على السّاحة فيقوم بممارسة طقوسه الإنسانيّة اليوميّة، ومن خلال ذلك يذكّرنا بأنّ المياه نفسها الّتي يغلي فيها الشّاعرُ الباسطا هي نفس المياه الّتي يغسل فيها القنّاصة بزّاتهم العسكريّة، وأنّ هذه الحال دائمًا كانت كذلك على مرّ التّاريخ. وحين يرى صور رئيس الحكومة ووزير «الأمن» في الصّحيفة الّتي تظهر فيها العناوين الحمراء البارزة كما لو طليت بلاكة حمراء مثل أظافر عاهرة، يهرب إلى طقوسه اليوميّة، إلى علبة الفاصولياء، إلى النّقانق والكزبرة. حتّى يبلغ به المطاف أخيرًا إلى تخيّل عقد قران ابنته على حفيد حيدر عبد الشّافي، الشّخصيّة الفلسطينيّة المرموقة من غزّة.

لقد نشر شيناي قصائد مباشرة من هذا النّوع في الملحق الثّقافي لصحيفة «هآرتس» فأدّى هذا النّشر إلى حملات تحريضيّة نظّمتها قوى يمينيّة متطرّفة ضدّ الصحيفة داعيةً إلى وقف الإشتراكات فيها.

وهنا، ومع ترجمة وتقديم هذه القصائد للقارئ العربي للمرّة الأولى باللّغة العربيّة، رأيت أن أطرح سؤالاً مثيرًا له علاقة وطيدة بماهيّة قراءة الشّعر وعلى العموم، وماهيّة قراءة هذا الشّعر المترجم من اللّغة العبريّة على وجه الخصوص. والسّؤال الّذي لا أجد مناصًا من طرحه هو، هل يمكن أن تكون ثمّ قراءة عربيّة واحدة للشّعر العبري؟ وهذا السؤال الّذي قد تبدو الإجابة عليه في غاية السّهولة للوهلة الأولى، ليس كذلك بأيّ حال من الأحوال إن رغبنا التفكّر فيه مليًّا. في رأيي، القراءة الفلسطينيّة لهذا الشّعر هي شيء واحدٌ وسائر القراءات العربيّة شيءٌ آخر يختلف تمامًا. فالقراءات العربيّة الأخرى للشّعر العبري قد تكون نابعة من حبّ استطلاع أو قد تكون قراءات سياسيّة تنطلق من تضامن عروبي مع الفلسطيني. غير أنّ القراءة الفلسطينيّة للشّعر العبري، بالإضافة إلى ما سبق، فهي قراءة لها أبعاد أخرى. فقراءة الفلسطيني للشّعر العبري، إن تمّت هذه في الأصل العبري أو عبر التّرجمة العربيّة، هي قراءة الفلسطيني للتّجربة الفلسطينيّة بمنظار الإسرائيلي، وهي حالة خاصّة تجعل هذه القراءة، على ما تحمله من شحنات، أكثر قربًا من وجدان القارئ الفلسطيني، وأكثر تحدّيًا له. ورغم كلّ الّذي جرى هنا، أو ربّما بسبب هذا الّذي جرى ويجري هنا، ففي وسع هذه القراءة أن تُوسّع للفلسطيني تجربته مع ذاته ومع مكانه. فعلى سبيل المثال، حين يكتب شيناي: «في كلّ ذرّة من دان إلى إيلات يمتدّ الوطن»، لا يستطيع القارئ العربي، مهما كان متعاطفًا، أن يصل إلى عمق القراءة الفلسطينيّة. فالقارئ العربيّ في مكان آخر يفهم مصطلح الوطن من

مكان بعيد فيحيله إلى ما يفهمه هو عن مكانه ووطنه. لكنّ الفهم الفلسطيني لهذا المصطلح هو شيء آخر، إذ انّ هذه الحدود الّتي يرسمها شبتاي لـ «الوطن» هي هي الحدود الّتي يرسمها الفلسطيني للوطن ذاته ولكن بأسماء أخرى، أسمائه هو. أي انّنا نجد نحن انفسنا، فلسطينيّين وإسرائيليّين، في متحف وطنيّ واحد نقف مشدوهين أمام لوحة واحدة نسائلُها وتسائلنا، هي لوحة هذا الوطن المصاب بالفصام.

وحتّى حين يتطرّق إلى «أحفاد كنعانيّين يلْهَجُون بلُغة المزْوُزات»، فلا مناص من رؤية هذا الوجه الآخر لهذه العملة ذاتها الّتي طالما تداولتها أيدي الشّعراء الفلسطينيّين في محاولة لاقتناء الماضي. وبكلمات أخرى، فإنّ هذا التّشبُّث بهذه الأرض ليس تشبُّثًا بما هو فوق سطح هذه الأرض من شجر وثمر فحسب، إنّما هو تشبُّث بما هو تحت هذه الأرض من قبور ومن أساطير سطّرها الأوّلون.

وعلى خلفيّة هذه المسالة تعلو قضيّة أخرى لها علاقة بمسالة التّرجمة بصورة عامّة، والتّرجمة إلى العربيّة على وجه التّحديد. فالمفردات، التّعابير والأسماء الّتي تحمل شحنات حضاريّة في شعريّة ما، هل يمكن ترجمتها إلى مفردات وأسماء قائمة في لغة شعريّة أخرى؟ القضيّة شائكة فيما يتعلّق بالتّرجمة بين العبريّة والعربيّة أي بين ما تحمله هاتان اللّغتان من أبعاد حضاريّة يهوديّة من جهة، وعربيّة إسلاميّة من جهة أخرى. وعلى سبيل المثال، هل يمكن ترجمة اسم ذي شحنات تراثيّة يهوديّة مثل «مغارة الماخبيلاه» أو «حبرون» أو «يهودا» إلى أسمائها العربيّة «الحرم الإبراهيمي» أو «الخليل» وما شابه ذلك، المشحونة في العربيّة بالشّحنات الإسلاميّة؟ وماذا سيتلقى القارئ من ترجمة كهذه؟ فإذا بلغت ذهنه الشّحنات الإسلاميّة فهي أبعد ما تكون عن الأصل العبري للنّصّ الشّعري، إذ لا يُعقل أن يكون الشّاعر العبريّ قد شحنَ نصّه بالدّلالات الحضاريّة العربيّة والإسلاميّة. إذن، في حال كهذه حريّ بالمترجم الإبقاء على الاسم كما ورد في النّصّ الأصلي، على غرار التّرجمات العربيّة للتّوراة والإنجيل. ولكن ومن جهة أخرى، لا يمكن لهذا المبدأ في التّرجمة أن يسري دائمًا دون مساءلته بين فينة وأخرى. إذ على المترجم أن يبقى مُنصتًا لسياقات النّصّ الأصلي على الدّوام، كما يجب عليه النّظر في كلّ نصٍّ على حدة، فالأسماء والمفردات هذه ليست تأتي دائمًا محمّلةً هذه المعاني في طيّاتها، وفي حال كهذه لا غضاضة في استخدام الأسماء العربيّة المقابلة لها، وهذا ما فعلته هنا مع هذه التّرجمات. والقصائد المنشورة هنا هي من المجموعات التّالية: غرفة المعلّمين (١٩٦٦)؛ القصيدة البيتيّة (١٩٧٦)؛ طلاق (١٩٩٠)؛ زيقا (١٩٩٠)؛ في شهر أيّار الرّائع (١٩٩٧)؛ بوليتيكا (١٩٩٩)؛ بلادنا (٢٠٠٢).

*

شاعر وباحث فلسطيني من المغار، يقيم في القدس

# أهارون شبتاي / قصائد

## العالم

العالمُ أُعطِيَ لنا كما تُعطى مكنسة
إنْ شئتَ استعملتَ قساطلَها
أوْ شئتَ فهيَ عصا ملاّحين
كُلُّ ما ستصنعُهُ سيكونُ قُدْوةً
لكنْ، لنْ يُقطِّبَ أحدٌ الجبين
لوْ قعدتَ مكتوفَ اليدَيْن
ويَبقى الخيارُ:
واحدٌ يُنظِّفُ
وآخرُ يجْلِدُ.

عن مجموعة : «طلاق»



## الوطن

في كُلِّ ذرّةٍ منْ دان إلى إيلات يَمتَدُّ الوطن
ولستُ موْجُوداً في أيِّ مَكانٍ غيْرِ الوطن
سَيسألني أحدٌ ما: «أينَ أنتَ؟» وسأرُدّ: «في الوطن»
حتّى لو حَمَلني منْ قنزعةِ شعْري ورماني في الغُربة
ثُمَّ سألني مُهدِّداً مُتوعِّداً، سأرُدّ: «أنا في الوطن»
ولنفترضْ أنّه سيُمْسكُ وَتداً، ويضربُ به صُدْغي
ويَخرُجَ سائلاً فُلاناً أوْ علاّن:
«أينَ هو الرّجلُ الأبْلهُ الّذي قضيْتُ عليْه؟»

سَيَكُونُ الجوابُ بالضَّرُورَة: «الآنَ أيْضاً، الرَّجُلُ في الوَطَن»
لأنَّ أهارون لأنَّ أهارون لأنَّ أهارون هُوَ فَقط في الوَطَن.

( من مجموعة: طلاق )

## المُرتَحل

مِنْ حَلٍّ صِرْتُ لِمُرْتَحلٍ
هذا التَّضادُ لا يَنْعَكِسُ بِكَثْرَةِ التَّنَقُّلِ
بَلْ بكَوْنِ قَلْبِي لا يَرْغَبُ بَعْدُ في احْتِوائي
بأنَّ قَلْبِي غَيْرُ مَحْفوظٍ بَعْدُ كَأُرْجُحَةٍ في عُلْبَة
لكِنَّنِي سَأكُونُ مُرْتَحِلاً مُؤدَّبًا
وَلَنْ أُحَرِّكَ بِلا سَبَبٍ ذِراعَيَّ
لأنَّ ثَمَّ عِلْماً عَظِيماً وَمَفْتوحاً على مِصْراعَيْه
في أجْنِحَةِ العَصافير.

( من مجموعة: طلاق )



## بن چوريون

يا بنْ چُورِيُون، السَّيِّدة يُومِيرانْتس
عَشِقَتْكَ كَما لَوْ أنَّكَ أسَدٌ مِنْ خَشَبٍ
عَلى خِزانةِ التَّوْراةِ المُقَدَّسَة.
في وَجَباتِ الفَطُورِ لِسَنَواتِ الأرْبَعِين
كانَتْ تأكُلُ نِصْفَ بَيْضَة
وَنِصْفَ حَبَّةِ بَنْدورة وَتَتَكَلَّمُ
عَنْ دُويْتشْلانْد وَإنْجِلانْد –

عَنِ الأَوْلادِ الأَشقِياء، وَعَنكَ أَنتَ

مَلِكُ مُستَعمَرَةِ المَشفَى التَّوراتيّة،
في هذه الصَّباحات مِنَ الشّاي وَمِلعَقَةِ العَسَل
وَدُونَما انتِباه كانَتْ تُقَرِّبُ أَشراطَ السّاعة
وَصَلَتْ لِدِبلِطيمور وَلِـليكْ ساكْسِيسْ
كَما لَوْ لَمْ تَكُنْ تِلكَ التَّجرِبةُ الرُّوحيّة
وَصِرنا ثانيةً أَولادًا في حِبرُون[1]
في صَباحِ التَّتويج[2]،
نُغَنّي في حَرَّةِ يهودا وَالشَّرْخِ الكَبير
لَحمًا وَدَمًا لِلمَملَكَةِ المُطلَقَة.

إشارات:

( ١ ) حبرون: هو الاسم العبري لمدينة الخليل.

( ٢ ) صباح التتويج: الصّباح الذي تُوّج فيه داود ملكًا.

( من مجموعة: غرفة المعلمين )





## جدّتي چيلا

جدّتي چيلا، في الحَرير
الأَسوَدِ القَديمِ لِساراي،
نَملَةٌ صَغيرةٌ عَلى أَطْراف
أَرضِ الـكِيرِنْ كَيّيمت[1]،
لَدى أَكْواخِ بُيُوتِ الخَلاءِ القَرَوِيّة،
بَيْنَ الماعِزِ وَخَرْدَةِ أَعمامي،
غَيرَ بَعيدٍ مِنْ جُرحِ الأَرضِ، الوادي،

الَّذي وَراءَهُ العَرَبيُّ المجنون .
في سَاحاتِ الكلابِ والغَسيل
نَعيشُ وَلا نَنْقُلُ إلاّ
وَعَيْ أَوْعيةِ التَّنَكِ وَأدَواتِ الإِيمائِل ،
لأحفادِ كنعانيِّينَ يَلْهجُونَ بِلُغَةِ المزْوزات[٢]
وَيرتَدِعُونَ من رائحةِ البُكاءِ وَقطراتِ الأَنْف .
غُرْفَتُها كانَتْ مَغارةَ الماخْبيلاه[٣]
أيّامًا طِوالاً قَبْلَ مَجيءِ الكَلْب
الَّذي عَضَّها حَتّى المَوْت .

(من مجموعة : غرفة المعلمين)

إشارات :

(١) كيرن كييمت : هو الصندوق القومي اليهودي الذي عمل على شراء الأراضي والممتلكات في فلسطين قبل قيام إسرائيل من أجل تحويلها إلى ملكية يهودية استعدادًا لقيام الدولة .

(٢) مزوزة : هي تميمة تحتوي على آيات توراتية تُثَبَّتُ في أبواب البيوت التي يسكنها اليهود .

(٣) مغارة الماخبيلاه : هو الإسم العبري للحرم الإبراهيمي في مدينة الخليل .

# القصيدة البيتيّة

(مقاطع)

(١)

أنا أكتبُ
شِعْراً

لا يَقْبلُ التأويلَ
إلى أكْثَرِ منْ وجْه

مَوْضُوعي
هُوَ
نَفْسٌ
تضْرِبُ جُذُوراً

(٢)

الموضوع:
إخْلاصٌ

الأسْلوب
يُلائِمُ الفِكْرَة

عَنْ علاقاتٍ مُقدّسَة

عَنْ حُبّ
وَعَنْ إخْلاص

(٣)
عَنْ إخْلاص
عَنْ ثَبات
عَنْ تَواصُل
عَنْ شُغْل

( عَنْ شُغْل البَيْت
وَعَنْ الشُّغْل في الخارج )

عَنْ التَّنظيف

( ... )

(١١)
طاهِرٌ هُوَ النَّعْتُ
لِلْفَم

الفَمُ يَخْلقُ
كلمةً . الحَديثُ

( « الإفراز الحقيقي
للرّخويّ المُسَمّى إنسان » . فرانسيس بونج )

(١٢)
الفَمُ هو
عُضْوُ حُبّ

إضافةً إلى ذلك،
يَخلقُ كَلامًا
يُطوِّرُ التَغْذيَة
يُنتِجُ ويَبثُّ الذَّوْق

(١٣)
أحبُّكِ
إحْدَى عَشْرَةَ سَنَة
أنا أُحبُّكِ

قبلَ سَنَواتٍ ستٌّ ونَصْف
عقَدْتُ قراني عَليْكِ

نحنُ رَجُلٌ وامْرأة
لا يَتطلّقان



(١٤)
نحنُ نَسْكُنُ هُنا
كلانا رَجُلٌ وامْرأة
لا يَتطلّقان

نحنُ نَسْكُنُ هُنا
كلانا رَجُلٌ وامْرأة
لا يَتطلّقان

( من مجموعة : القصيدة البيتيّة )

# إلى الطيّار

أيُّها الطيّارُ، إذْ تَحُومُ في سَمْتِيَّتِكَ،
في المرّةِ القادمَة
فَوْقَ جنين،
تذكّرِ الأولادَ
تذكّرِ العَجائزَ
في البُيُوتِ المَقْصُوفة.
إطْلِ صارُوخَكَ
بِطبَقةٍ مِنْ شُوكُولاطة،
وَحاوِلْ أنْ تُدقِّقْ،
كَيْ تكُونَ لهُمْ
ذِكْرى حُلْوَة
عِنْدَما تَنْهارُ الجُدْرانُ.

(من مجموعة: بلاده)



# إلى ابنتي

(إلى لوطم)

حاوَلْتُ أنْ أشْرَحَ لابْنتِي
أنّ الإنسانَ يبحثُ عن الرّزق
قُلْتُ لها – النّسْرُ أيْضاً
شَبيهٌ ببائعِ الكَعْك
في زاويةِ شارع هِسْ وألنْبي(١).
مِنْ أجْلِ أنْ أُحِبَّ كَمَا يُرام
عليّ أن أبيعَ شيئاً ما

أن أهْتمَّ بسلامة مِنقاري
مَا سَمَّاهُ هوميروس: «جدارُ الأسْنان»
وَعَرَبِيٌّ من المَجْدَل باحَ لي مَرّة:
فَقطْ مَنْ يقِفُ على رِجْلَيْن
يُنْبِتُ الرِّجْلَ الثالثة، الأحْلى ضِعْفَيْن.

(من مجموعة: طلاق)

إشارات:

(١) هِسّ والنّبي شارعان في تل-أبيب.

## الحصان

امتطيْتُ حصانًا في ذاتي
ولكنّي لا أقْعَ أغدقْتُ عليه الدّلال
شخصٌ ميْسورُ الحال غذّاهُ من أجْلي بالرقائق
وَجدْتُ لَهُ بيتًا وامْرأةً
الحصانُ شَمَخَ أنْفهُ وأكلَ عِنبًا
وقارَبَ أنْ يَمْلُصَ أيْري
لولا أنّي استَيْقظْتُ يوْمًا ما وشِعاري على جَسَدي
وذَهبْتُ كابْنِ الخيّاطِ لِتعَلُّمِ تركيبِ طاولةٍ بِيَدَيَّ
وَحَياتي صَعْبَة
لأنّي مَنحْتُ أجْمَلَ أعْوامي، بالجُمْلَة، لِحصاني.

(من مجموعة: طلاق)

## الباب

آلةُ الجارة الموسيقيّة هيَ الباب
في البداية سُكوتٌ
حتّى فهِمْتُ أنّ هذا مُؤلّفًا لآلاتِ النّقْر
فانْتَهَى الغَضَب : أُعِيرُ انْتِباهي إلى
المهارَةِ الّتي يَنقُرُ فيها العازِفُ لَحْنَ الدُّخُول والخُروج .

( من مجموعة : طلاق )

*

لا أنْتَبِهُ إلى هِجْرَةِ العَصافِير
إنّما فقط إلى اخْتِفاءِ كَلَسُونِك
بالضّبْط أقرَأ كَيْفَ يَذمُّ الحَكيمُ ديموقريطس
أناسًا مِثْلي
لا يُشاركون في إصلاح الدّوْلَة
وهي السّفينةُ الّتي يُبْحِرُ فيها العَوامُ
جَوْفُها هُوَ التّرْبِيَة
مَجاذيفُها العُلُومُ والفُنُون
غيْرَ أنّي أطْوِي الكِتاب
يَكْفِيني عَوْدَةُ كَلْسُونِك

( من مجموعة : زيقا )

*

هَيّا نَصِلُ فَتَحات شَفَتَيْنا
فَمّا لِفَمٍ، عُضْواً لِعُضْوٍ
حَدِيقَتِي الوَحِيدةُ تَنْمُو في الأُذنَيْن
سَقْفِي جَبْهَتِي
أنا ابْنُ خَمْسِين، ولا بَيْتَ لي
نَوافِذُهُ الوَحِيدةُ زُجاجُ نَظّارَتِي
إذَنْ عَلَى الأقَلّ، زِيقَا، أسْكُنُ في طِينِك!
(من مجموعة: زيقا)

*

القَصِيدةُ هِي كَلْسُونٌ أنفَحةٌ،
فِيها مَخْرَجانِ لِفَخِذَيْكَ
وَتَفْتَحُ ثُقْبًا لاسْتِقْبالِ الخَصْرَيْنِ
إخْتَرْتُ كَلِماتٍ تَحْفَظُ الدِّفْءَ لَكِنَّها مُشْرَعةٌ مَصارِعَيْها لِلهَواء
هذا النَّسِيجُ مُلْتَصِقٌ لَكِنَّهُ يُحافِظُ على فُسْحَةٍ ما:
يَجِبُ احْتِرامُ حَقِّ الطَّيرِ في صَوْغِ مَقُولَةٍ لَها.
(من مجموعة: زيقا)





## الأوقات سيّئة

الأَوْقاتُ سَيِّئةٌ، أُقْسِمُ يَمِينَ الوَلاءِ لِلطاوِلة
بِغِطاءِ الفُورْمايْكا الأبْيَض، لِفِنجانِ الأَقْلام، لِلمِنْفَضة.

حَلَمْتُ أنّ الدّولةَ ماتَتْ وَفاتَتْ،
ونحنُ وَأطفالنا سَكَنّا في ثلاثة مُجلّدات القاموس.
بَيْتِي سَيَقُومُ بِجانبِ كَلِمَةِ ساقٍ، عَلَى دَرْبِ كَلِمَةِ أخلاق.
سَأَبْدُلُ نَفْسِي لأجْلِ خانةٍ واحدةٍ فقط -
سَريري وَسَريرُ طانيا، مِتْرانِ عَلَى مِترٍ ونِصْف.
رَأيتُ صُوَرَ رئيس الحُكومة وَوَزيرِ الدِّفاع
في الصّحيفةِ المطْلِيّةِ بلاكةٍ حَمْراءَ كما أظافر عاهرةٍ.
أُبْعِدُ عَنْهُما هَواجِسِي،
صَوْبَ عُلْبَةِ فاصولياء مَطْبُوخَةٍ، صَوْبَ نَقانِق، صَوْبَ كُزْبَرَة.

(من مجموعة: پولينيكا)

## رأس السَّنة

حتّى بعدَ قَتْلِ الوَلَد مُحَمَّد
في رَأسِ السَّنة
لم يُصبحِ الوَرَقُ أسْوَد،
في المِياه نَفْسِها الّتي
يَغْسِلُ فيها القَنّاصَةُ بِزّاتِهِم
أغْلِي بَاسْطَا،
أسْكُبُ عَلَيْها زَيْتَ زَيْتُون
به قَلَيْتُ بُذُورَ صَنَوْبَر
وَطَهَوْتُ دقيقتين
مع بندورة مُجَفَّفَة،
هَريسَةِ ثُومٍ، وَمِلْعَقَةٍ من وَرَقِ الحَبَق،
عِنْدَما آكُلُ يَظْهَرُ
عَلَى الشّاشةِ الوَزيرُ المُثَقَّفُ

لشؤونِ الخارجيّةِ والشُرطة،
وَعندما يُنهي
أكتُبُ القصيدةَ،
لأنَّ الحالَ هكذا كانتْ دوْمًا،
القتلةُ يَقتُلون
المُفكّرُ يَصنعُ العلاقاتِ العامّة
وَالشاعرُ يَشعر.

(من مجموعة: بلادنا)

## حرب

أنا أيضاً أعلنُ الحرْب،
سَتُضطرُ إلى سحْبِ بعضِ القُوّات
المتأهّبة للقضاءِ على العَرَب،
لطردِهم من بيوتِهم
وَلِسَلْبِ أرْضِهم،
وَتوجيهها ضدّي.
لكَ دبّاباتٌ وطائرات
وكتائبُ عَسْكَر،
بيدكَ الأبْواقُ الّتي
تُحرّضُ الجماهير،
لديْكَ مُحقّقون ومُعذّبون
وغُرفُ اعتِقال.
كُلُّ ما لَدَيَّ هُوَ هذا القلْبُ الّذي
يمنحُ مَلْجأً
لوَلدٍ عَرَبيّ،

صَوِّبْ نَحْوَهُ مَدافِعَكَ،
حَتّى لو فَجَّرْتَهُ،
دائمًا وَأبدًا
سَيَهْزَأُ مِنْكَ.

(من مجموعة: بلادنا)

## حضارة

وَصْمَةُ قابيل لن تَنْمُو على جَبين
الجُنديِّ الّذي أطْلَقَ النّار
عَلى رَأس الوالد
عَلى ثَنيَّةِ التّراب
عندَ سياجِ مُخَيَّمِ اللاّجئين،
لأنّ تحتَ خوذَتِهِ
من النّاحيةِ الاصْطِلاحيّةِ
لَهُ رأسٌ مِنْ كَرْتون.
في مُقابِلِ ذلك، الضّابطُ
قرأ «الإنسان المتمرّد»،
لَهُ رَأسٌ مُتَنوِّرٌ،
ولذلكَ فهو لا يُؤمِنُ
بِوَصْمَةِ قابيل؛
لقد زارَ المتاحفَ
وعندما يُصَوِّبُ بُندقيَّة
باتّجاهِ فتًى،
بِوَصْفِه سَفيرًا للحضارة
فهو يُكَرِّرُ وَيُجَدِّدُ

نُقُوشَ چُوِيَا
وچيرُنيكَا.

(من مجموعة: بلادنا)

## شارع

الشّارعُ يُعرَفُ بأنَّهُ ما خارجَ
صَفّيْنِ منَ المباني
المباني هي رُزْمَةٌ للعائلات
وأنا الّذي ترَكَ العائلَة
مَحْظُورٌ عليَّ العَمُوديُّ والصّاعِدُ
لا دَخْلَ لِي ولا أملُكُ أيَّ حَجْم
إستَرَحْتُ مع إله الأُفُقي

(من مجموعة: طلاق)





## القلب

أعُودُ من القُدْسِ بقَلْبٍ كَسير
لِي وَلَدٌ بعُمْرِ سَنَتَيْنِ ونِصْف
في حلكة البَهْو توقَّفَ وقالَ هايْ هايْ
تجاهَ مُحَيّايَ خَلْفَ الزُّجاج
حينَ وَقَفْتُ في الظّلام في الشُّرْفَةِ قريبًا من النّافذة
تحتَ حذائي غطاءُ المجاري كَما قطعة نَقْدٍ رومانيّة
مَرّةً ثانيةً قالَ هايْ هايْ
فَصِرْتُ حصانًا بُنّيًا مع أيْرٍ أسْوَد

سَيَخْتَفِي بينَ الذُّرى التي هيَ لِحيَةُ الشَّيطان
إِفْهَمُوا أنَّ ثَقافَتي وَمَوْهِبَتي طَبْعُهُما الإِمّحاء
يا وَلَدي، يا وَلَدي، هذا ما أَمْلِكُ أنْ أَمْنَحَكَ من الحُبّ

( من مجموعة : طلاق )

## قُبلة لـڤيڤيان

قَبَلْتُ ڤيڤيان عَلى الخَدّ، وفي التّاكسي
فَكَّرْتُ كَيْفَ كُنْتُ يَوْمًا ما مُحْبَطًا
إزاءَ هذهِ الجَوْهَرَة، وَمَا أَسْهَلَ أنْ
تَنالَ امْرأةٌ بِنَظْرَةٍ إلى أَمْس

مِنْ شُبّاكِ سَيارَةٍ بَعْدَ عِشْرينَ عامًا،
إذْ لا يُحَمِّلُ المَفْهومُ للغايَةِ السّامي
على زَوْجٍ وركَيْنِ لصيقَيْنِ بِالظَّهر؛
هَلْ يُشْتَقُّ مِنْ كُلِّ هذا استِنْتاجٌ

أَنّنا نَتَعلَّمُ اليأسَ عَلى مَرِّ الأيّامِ
كيْ لا يُنتقَصُ من اليَسيرِ الموجود؟
أَمْ أنّي تَذَكَّرْتُها عَلى سَبيلِ الحُجّة

في حلْكَةِ التّاكسي في الطّريقِ إلى سَهْلِ السّاحِلْ
مِنْ أجْلِ البُكاءِ مع صَوْتِ الرّيحِ الصّافِرَة
عَلى حَياةِ المُفْتَرينَ وَعَلى قَلْبي الذّابِلْ؟

( من مجموعة : في شهر آذار الرائع )

# نوسطالجيا

الرَّجُلُ القَصيرُ القامَة
الّذي يُلَوِّحُ بالسَّوطِ الحديدي،
في ساعات الفراغ
يُداعِبُ مَفاتيحَ البِيانُو،
التّاريخُ يُعيدُ نَفْسَه.
حقًّا، مِنَ الشَّرْقِ المتأخِّر
نَعُودُ إلى الغَرْب؛
فهو سَيَحلُّ مَشاكِلَ العَمَل،
العاطِلُونَ سَيُشغِّلونَ دبّابات
أوْ سَيُمْسِكُونَ بمِعْوَل
وَسَيَحْفِرُونَ القُبُور،
وَفي المساء سَنَسْتَمِعُ
إلى موزارت وشوبرت.
يا بلادي، يا بلادي،
في كُلِّ صَنْدَل،
في كُلِّ خَيْط
مِنْ بِنْطالي الكاكي،
أحْبَبْتُك،
كانَ بِوُسْعي أن أنْظِمَ مَزاميرَ
لِسَلْطَةِ البَصَلِ الأخْضَر
مَعَ الجُبْنَةِ البَيْضاء.
وَالآن، بِمَنْ سَألْتَقي
حِينَ ألجُ إلى مَطْعَم؟
بِسَخْاني چرامشي؟
وأيُّ صَوْتٍ سَيَخْتَرِقُ النّافذة

المظلة على الشارع؟
وحين ينتهي كلُّ شيء، عزيزي القارئ،
على أيِّ المقاعد
سنضطرُّ نحنُ الجلوس،
الذين صرخوا
«الموتُ للعرب!»
والذين لم يعرفوا؟

(من مجموعة: بلادنا)

## في شهر أيّار الرّائع

في شهْرِ أيّار الرّائع السّاحر
عندما تفتّحت جميعُ البراعم
آل العشقُ كومة من حجارة
في قلبي العليل بلا دواء.

في شهْرِ أيّار تركتني،
عندما غنّتْ جميعُ الأطيار،
ارتحلتْ عيناها عنّي،
إذاك بدا العشق.

(من مجموعة: في شهر أيّار الرّائع)

# عندما يقول محيّاكِ

عندما يقولُ مُحيّاك
« لا أهواك »
يَضْربُ في جَبيني وَتدٌ
وَتنغرزُ ثلاثةُ مَسامير.

وإذاك، الزُهورُ أيضاً تَعْرِف،
الحَشَرةُ التي وُلِدَتْ أمْس،
الرَّضيعُ الذي لمْ يُختَنْ بَعْدُ
والملاكُ عندَ أباهيم الله:

لَقد انتظرَ الحبُّ طويلاً
ولشدّةِ ما كانَ جائعاً
افترسَهُ كما الذئب
وَخلّفَ كَومَةَ قمامَة.

(من انطولوجيا: «ما هو الحب»، إعداد: زيسي ستاقي)





# الحياة للعرب

أوّلَ أمْسِ في رَفح
قُتِلَ عَربٌ تِسْعَة،
أمْسِ قُتِلَ ستةٌ في
الخليل،
واليومَ فقط اثنان.

قبلَ عام
حينَ تظاهرْنا في شينكين
صاحَ في وَجْهنا
راكبُ درّاجة ناريّة :
«الموتُ للعرَب!»
في زاوية شارع هعقُودا،
قبالَ سُوق بِشْتَلْفيل،
بجانب مَلْحَمَة بْراوْن،
في زاوية بُوجْراشُوف –
«الموتُ للعرب!»
عامًا كاملاً ظلَّتْ
هذه القصيدة
ملقيّةً على الرّصيف
في شارع الملك جورج،
واليومَ أرْفَعُها
أُؤلّفُ خَرْجتها :
«الحياةُ للعرَب!»

– الاسماء الواردة في النّصّ هي أسماء مواقع وشوارع في تل-أبيب
(من مجموعة: بلادنا)

## لُوطِم عبد الشّافي

يَغْني القلبُ بلا فَضاء للحُبّ، بلا أُفُقٍ إخلاقِيّ،
تخيّلُوهُ عُصفوراً حَبيسًا في صُندوق،
قلْبي يتوقُ إلى حُبِّ أولئك الّذينَ عَبْرَ الجدار،

إليهم فقط يمكنُ الذّهابُ حقًّا، أي التَّقدُّم.
بدونِهِمْ أشْعُرُ كما لو أنّي نِصْفُ إنسان.
روميو انْتَسَبَ إلى مونتيچيو، وجولييت إلى كابوليت،
وأنا تلميذُ شيكسبير، وليسَ بنْ-چوريون،
لذا سأفرحُ إنْ تزوّجَتْ بِنْتي حَفيدَ حيدر عبد الشّافي.
بالطبع، أعرفُ أنّ هذا مثالٌ، لكنّ المثالَ هو أخلاقي أنا،
ولأنّهُ يَمسُّ لحْمِي أكْثَرَ من الأسنان والشَّعْر،
فَلْيَسَتْ الفكْرَةُ وَهْمِيَّةٌ وإنّهُ انْطِلاقًا من حرِّيّةٍ شِعْرِيّةٍ
أضَعُ مَصيرَنا في فَرَجِ بِنْتي.
حقيقةُ أنّي أمْنَحُ ذاتي هذه الهديّةَ الخياليّة،
تَشْهَدُ على مَدى عَيْشِنا حتّى الآن في عالمٍ سُفْليّ،
يُحدّدُون فيه لنا العُمْرَ ومُسْتَقبَلَ الأميبا.
لكنْ، كُلُّ الأساطير تبدأ من حشرات
تَبرزُ من الأرض وتَفْتَرسُ بعضُها بعضًا،
حتّى يَحدُثَ قرانٌ مُقدّسٌ ويَدْمُلَ شُرُوخَ الكَوْن.
أيضًا العَروسُ العربيّ من غزة سيُقدّمُ لبنتي
فُستانًا طُرِّزَتْ عَلَيْه البِلادُ النّاجيةُ منْ وَكْرِ الإبادة،
بِلادُنا الكاملةُ، مُلْكُ أولادِها أجمعينَ بالتّساوي،
عندئذ، سَيَرْفَعُ المنديلَ عَنْ وَجْهِها، وَسَيَقُولُ لها:
«الآنَ أنْتِ زَوْجَتي، لُوطِمْ عبد الشّافي.»

(من مجموعة: بوليتيكا)

نقلها من العبرية: سلمان مصالحة

رؤى »

# عن أشياء ممكنة، يومًا ما

بالنسبة لغالبية البشر يمكن الإجابة عن السؤال «من أين أنت؟» بكلمة واحدة: باريس، دلهي، طوكيو، كييف.. أما بالنسبة للفلسطيني، فهناك عدة طرق للإجابة، كلها مركّبة، وتقود الى مكانٍ صعب المنال أو غائب الحضور كمدينة عربية. اللد اليوم هي «لود»، المحاذية لمطار تل أبيب، لكنها كانت مرّة مدينة عربية أسوة بالرملة، التي هُجّر اهلها الـ ٦٠ الفًا من قبل القوات الإسرائيلية عام ١٩٤٨. إذن فكيف لشاب، بعد خمسين سنة ونيّف، لاحقًا، وُلد في الكويت ويعيش الآن في ديترويت ان يواصل القول إنه من اللد؟ القضية، بالطبع، انه يواصل ذلك.

لقد تحوّلت «فلسطين» في المنظور العالمي الواسع إلى استعارة عن المشاكل، عن عدم الإستقرار والعنف: بالنسبة للفلسطينيين تصوّر هذه التوليفة حقيقة، ذاكرة، تتداعى معها مطامع وشخوص، لتُستبدل بمواطنة او جواز سفر. وفي الحقيقة، فإن هذه الوثيقة تؤسس لحرية الفرد بالتحرك من مكان لآخر. نص غير شخصي مع صورة فوتوغرافية بإمكانهما تأدية المهمة، أما اللاجئ الأقلّ حظًا الممنوع من التحرك فيظل عاجزًا. لأن شخصًا ما وشيئًا إضافيًا ما يجب ان يُستبدلا.

غالبًا ما يعيش الفلسطينيون تحت حظر التجوّل، كونهم لاجئين بدون دولة، وهم ممنوعون عادة من العمل أو السفر. وفيما هم محاصرون وبيوتهم تتعرض للهدم؛ يصبحون مشرّدين للمرة الثالثة أو الرابعة. وبكونهم محاطين بالقيود ووصاية العقلية البيروقراطية الحديثة – قوانين وقصاصات ورق تسمح لك بالذهاب إلى مكان ما أو تمنعك من الذهاب إليه – يصبح على الفلسطينيين ان يلجأوا إلى الإبتكار او المثابرة على الصّعاب للتغلّب على هذه العراقيل. معظم الوقت يعيش الفلسطينيون في حالة انتظار: في انتظار الحصول على تصريح، في انتظار تلقي مستنداتهم مختومة، في انتظار اجتياز الدور، في انتظار تلقي تأشيرة دخول. دهور من مضيعة الوقت تمر دون أن تترك أثرًا.

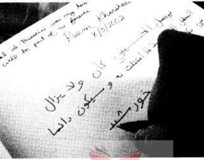
مجموعة إميلي جاسر « من أين أتينا » تتسلّل من خلال كل هذا، وفيما هي تختصر ذلك الخليط المُهمل بعناد نحو السؤال الإنساني البسيط : « ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك في فلسطين، حيث بإمكاني الذهاب أينما يتعذّر عليك؟ » لتقوم بما طُلب منها، فإنها تحوّل الجواب إلى مجاورة إبداعية للطلب. لقد تمّت تلبية الطلب، وقد تجسّد أيضًا في صورة ونص : الكتابة والصورة تُحضران معًا بذكاء ووضوح ما لا يتمكن غالبية الفلسطينيين من ممارسته في الحاضر. إنشاؤها يتسلّل من خلال شباك البيروقراطيات والحدود غير القابلة للتفاوض، من خلال الوقت والفضاء، ليس بحثًا عن أحلام كبيرة أو أوهام متخثّرة بل عن أشياء عادية وإيماءات بسيطة : زيارات، معانقات، سقاية شجرة، وتناول أكلة - من نوع الأشياء التي ربما سيتمكن الفلسطينيون من مزاولتها يومًا ما، حين يصير بإمكانهم قطع طريقهم نحو البيت، بسلام وبدون قيود.

مقال خاص نشر في مجلة « جراند ستريت » ( نيويورك )، عدد أكتوبر ٢٠٠٣، شاء القدر أن يكون آخر نص كتبه إدوارد سعيد، وهو عن معرض «من أين أتينا».



من الإنجليزية : « مشارف »

« من أين أتينا »، هو عنوان مشروع / معرض إميلي جاسر، حيث طلبت من فلسطينيين مقيمين في المنافي، لا يستطيعون الدخول إلى فلسطين، أن يرسلوا لها طلباتهم / أمنياتهم الشخصية لكي تقوم بتنفيذها بدلاً منهم. ثم قامت بتوثيق ذلك بالصور. بعضها ينشر إلى جانب نص إدوارد سعيد.








**الطلب**: التوقيع في دفتر التعزية الخاص بالمرحوم فيصل الحسيني، الذي كان بالنسبة لها البطل والقدوة.

**صاحبة الطلب**: ريم، من مواليد مدينة الكويت. تعيش في مونتريال بكندا. تحمل جواز سفر أردني. الاب من يافا والأم من القدس كانا هاجرا في العام ١٩٤٨.

**ريم خورشيد**: السبب الذي كان يمنعنا أنا وأخي دائمًا من الذهاب إلى فلسطين هو صعوبة الحصول على «ڤيزا».

**إميلي جاسر**: سرق الإسرائيليون دفتر التعزية الخاص بفيصل الحسيني عندما احتلوا «بيت الشرق» في القدس. ولا أحد يعرف ما الذي فعلوه به أو اين وضعوه. ديالا الحسيني اشترت دفترًا جديدًا وقابلتني في الصباح وقد وقعتُ اسم ريم بدلاً عنها. إسمها هو أول إسم في الدفتر. وسيتم الإحتفاظ بدفتر التعزية الجديد هذا في منزل فيصل الحسيني حتى يتمكن الجميع من إضافة أسمائهم مرة أُخرى.





**الطلب**: الذهاب إلى قبر الوالدة في القدس بمناسبة عيد ميلادها لوضع الزهور والصلاة.

**صاحب الطلب**: منير، من مواليد القدس، أقام بعد ذلك في بيت لحم. جواز سفر فلسطيني وهوية الضفة الغربية. الأب والأم من القدس كانا هاجرا في العام ١٩٤٨.

**إميلي جاسر**: عندما وصلتُ قبر والدته فوجئتُ حين رأيت مجموعة من السيّاح يحيطون بقبر قريب. كان ذلك قبر أوسكار شندلر، الرجل الذي قاتل من أجل الحريّة، والذي يرقد الآن بجوار السيّدة التي لا يستطيع ولدها المجيء لزيارتها دون الحصول على تصريح. لقد وجدتُ العديد من الصلبان وتماثيل السيّدة مريم العذراء المحطّمة. قال لي حارس المقبرة إن مجموعة من اليهود المتعصّبين هاجموا المقبرة والحقوا الدمار بالعديد من القبور. لقد أراني الحارس الصلبان والتماثيل التي أعادها إلى أماكنها.







**الطلب**: القيام بأمر ما عادي في حيفا، أمر كان يمكن أن تقوم به لو كانت تعيش هناك الآن.

**صاحبة الطلب**: ماري تيريز من مواليد نيو يورك وتعيش هناك. جواز سفر أمريكي. والداها من حيفا وكانا هاجرا في العام ١٩٤٨.

**ماري تيريز** (لم تذهب في حياتها إطلاقًا إلى فلسطين): «لم يكن هذا واردًا أبدًا. فأن نرى حيفا ومنازلنا، وقد احتُلت، أمر مؤلم جدًا. حيفا لم تعد حيفا التي عرفها والداي. وإنني أتساءل: ألن أتأثر بقوّة بسبب المرارة والحزن إذا ما ذهبتُ إلى هناك؟! في الوقت نفسه، أشعر أن هذا من حقّي وعليّ أن أقوم به».

**إميلي جاسر**: قضيتُ الليلة مع مجموعة من الفتيات اللواتي يعشن بشقة في حيفا. شربنا القهوة وتحدّثنا في أمور الحياة، الزواج، المهن. كما قارنا ما بين العيش في حيفا ورام الله والقدس. تحدّثنا حتى ساعات الصباح الباكر.



# في انتظار بربارون

وقائع وسيرة (٢٠٠٢)

الإهداء: إلى حسين جميل البرغوثي[١].. طبعاً

(١)

سيجارة أخيرة هي ما تبقى في علبة السجائر. لا أذكر إن كان هناك فيلم سينمائي بعنوان «الرصاصة التي بقيت في الجيب».. أو: الدينار الأخير في البيت! لكنني أعرف ذاك السؤال: ماذا بعد الأشياء الأخيرة؟!

انظر إلى زوجتي، وهي تنظر إلى علبة السجائر، تبتسم وتقول لي: «دخّنها، لا عليك بي». وأتساءل: «لماذا يعتبر الناس المرأة عميقة؟ الأنهم لا يلمسون العمق لديها أبداً؟».

لا أذكر من قال: «حتى تنتصر خارجياً عليك أن تنتصر على دواخلك أولاً». وأحاول تذكُّر اسم أحد أبناء الخلفاء العباسيين؛ أحدهم كان مولعاً بـ «رمي» التراب، وقد أحضر والده الخليفة كلّ أطباء الخلافة علّهم يبرؤونه من «المتعة القاتلة» ولم يفلحوا. لكن شاعراً قال له: «أين منك همة الرجال؟».. وبعد مدة عندما التقى ابن الخليفة بالشاعر، قال له: «روّضت نفسي، ولو أمرتها أن تمتنع عن الهواء لفعلت».

أنا أيضاً استطيع محاربة أهوائي ومتعاتي وعاداتي وغرائزي، لكن، بشرط واحد: أن أقرر أنا ذلك، لا أن يقرر لي ذلك أحد، ولا أنفذ ذلك تحت وطأة ظروف لست أنا من يتحكم بها.. ربما كان هيغل من قال: «لم يتحقق أيّ شيء كبير دون أهواء».. ولا أذكر إن كان نيتشه هو الذي قال: «الذي لا يعرف كيف يوظف إرادته في الأشياء فليُضف عليها معنى ما على الأقل.. فذلك يوهم بأن فيها إرادة مسبقاً».. ماذا سأفعل كاستباق لما قد يأتي؟

أنا الذي يأسرني «مالك الحزين» أو قل: طائر اللقلق! ولهذا الطير خاصّيته الاستشعارية تجاه الرياح، فهو يستشعر قدوم العاصفة، وفي الحال يستكشف منطقة لا تمسّها العاصفة فيبني عشاً جديداً، يبدأ بنقل أفراخه إليه، فتمر العاصفة دون أن تدمّر عش اللقلق، فكيف

<< غزة، فلسطين / وكالة الصحافة الفرنسية

لي أن أقاوم الحزن والقهر؟!

في بيتونيا إلى الجنوب من رام الله، حيث سكنت في شقة «أقرب إلى السماء»، وعندما كانت التطوّرات تشير إلى أنهم سيحتلون بيتونيا، فلقد فرحت لذهاب زوجتي إلى غزة كي تنجب وليدنا الأول بين أهلها، وإن كان ذلك طبيعيًا، فإن الأمر الأهم بالنسبة لي هو أنها لن تراني إن هم أذلّوني أو ساقوني كعبد. عندها كنت أسائلني: هل سأقول لهم:

«خذاني فجرّاني ببردي إليكما فقد كان قبل اليوم صعبًا قياديًا»!

أنهضُ، صامتًا، أحاول إظهار توازني وقوّة إرادتي، بل وكبريائي أمام زوجتي. لهذا، تركت السيجارة في مكانها وذهبت باتجاه الشرفة.

لقد اعتدت أن أقول للبحر: سلامًا أيها الأزرق. لكنني أراه الآن باهت اللون. كل ما يبدو لي هو لون يمتزج فيه الرمادي المطفأ بالأزرق المطفأ أيضًا. ليست عيوني هي التي تراه هكذا، وليست السيجارة الأخيرة، وما بعدها، ما يجعلاني أرى البحر هكذا.. هل أُصيب البحر بالقلق أيضًا!!

أذكر أنه في تحليل النفس السريري لفرويد يُسأل المريض عن البحر: صف البحر! ماذا يعني لك البحر؟ هل تجيد السباحة؟ إلى أي مدى تسبح؟ في الأعماق أم على الشاطئ فقط؟ على هذه الأسئلة يجيب اللاوعي عن موقف المريض من الحياة ورؤيته لها.

«هل تسمّمت حياتي»؟

«لماذا روحي توجعني»؟



للسماء أيضًا ألوان تبعث على الكآبة. ثمّة غيوم تسبح بين الأبيض المتّسخ والرمادي المستهلك والأسود المطفأ.. هل أرى قلقي شبحًا يتخفّى بين الألوان ما بين البحر والسماء؟

من هذه الشرفة كنت شاهدًا على وقائع حية لانقضاض طائرات الـ«إف ١٦» على الشاطئ الذي أراه على بعد فراسخ قليلة.

آكاد أجزم أنني سمعت صرخات بعضهم -المقصوفين- قريبًا من فندق «ماريوت غزة» (في طور الإنشاء). شاهدت سيارات الإسعاف تصل إلى المكان. لكنني لم أتمكّن من متابعة المشهد، وكان مشهدًا يوحي بالسيادة المطلقة. الطائرات أغارت ثانية في اللحظة التي بدأ فيها رجال الإسعاف مهامهم. وقبل أسبوع من تلك الغارة العربيدة، وفي عين المكان (كما يقول التوانسة) لم يكن الصيادون قد أناروا قناديلهم، كان فجرًا، وكان ذلك نذير شؤم.

أصوات زنين مزعج كانت تملأ الفضاء، خلفها للطائرة «الزنّانة» كما يسمّيها أطفال غزة،

وهي ذاتها التي أطلق عليها أطفال لبنان «أم كامل». لكنها كانت أصوات الزوارق الحربية التي يسمّيها الإسرائيليون «الدبّور»!!

«دبّور» و«زنّانة»!!

قصفت «الدبابير» قريباً من الفندق طور الإنشاء. وكنت أعدّ عدد الإطلاقات منذ لحظة خروجها من فوهات المدافع حتى لحظة انفجارها قريباً من «ماريوت غزة»، الذي ربما تسكنه الأشباح فقط.

كل انفجار كانت ترافقه صيحات أطفال جيراني، كانت صيحات ممزوجة بالهلع وبالنشيج.

لا أدري إن كانت السيجارة الأخيرة تجعلني أسمع الآن الصرخات تلك! وكذلك أصوات سيارات الإسعاف التي تعرضت للقصف أيضاً.

الآن، تقتحم مخيّلتي مناظر جنود وكأنهم يأتون من البحر ويعودون بشباب الحي مقيّدي الأيدي ومعصوبي العيون كأنهم عبيد.

(شيء خفي يطالبني بإعادة قراءة سبارتاكوس وعنترة) عند ذلك كيف سيكون منظري أمام زوجتي؟ وكيف سأظهر توازني وكبريائي؟! أغلق النافذة كما أغلق ديوان شعر لا شعر فيه، وأجلس أرضاً كالذي ركلته تلك الصور.

كانت نظرات زوجتي تُرافق حركتي وها هي الآن توجّه نظراتها إلى علبة السجائر، كأنها توحي وتومئ لي بأن أدخن السيجارة الأخيرة، هل حقًا تكون المرأة الملاك والشيطان في آنٍ واحد؟!

اللعنة!

اللعنة..

أين أنت أيتها الطمأنينة الآن؟ حقًا ما يقوله حسين، في «ذاكرة عادية في زمن غير عادي»: «الاحتلال يترك إحساساً بالعجز والتوتر»..

ربما لهذا السبب انتحر خليل حاوي(٢)، وربما لهذا السبب أيضاً احتفظ محمود درويش بمسدس عندما رفض الخروج من بيروت ١٩٨٢.

انظر إلى البحر وأبتسم، أطرد تهيُّؤاتي عن الجنود وأتوهّم خضير ميري(٣) يرسو في مركب فينيقي يحمل اسم «آتيه» إله الجنون ومعه كل فلاسفة التاريخ وعظام المجانين، وأراه بلحيته من السرخسيات وشعر من المرجان في يده اليمنى «الجنون عند نيتشه»(٤) وفي اليسرى «صحراء بوذا»(٥) وعلى صدره يافطة تقول «الفكر المشتّت»(٦).

أذهب إلى مكتبتي لابحث عن خضير ميري، أو « معدان »[٧] وارد بدر سالم. أنظر إلى كتبي القليلة وأحنّ إلى مكتباتي التي تركتها أينما حللت.

قال لي مهيب البرغوثي: «إن عربياً كان مع الجنود الذين اقتحموا شقته على « روف رام الله » وانتقى « أمهات الكتب » .. هل افتدى مهيب حياته بالكتب أم بحكمة الجنون أم بجنون الحكمة؟

أقلب قنوات التلفزيون كأنني ابحث عن قناة تقول خبراً دراميًا يحل عقدة هذه التراجيديا التي ربما هي عصية على «إسخيلوس» المؤلف الخالد للتراجيديات الإغريقية، الأمر هنا لم يعد بيد « افروديت » ولا « زيوس » ولا « أبولون » أو أي من تلك الآلهة بما في ذلك « آتيه » . الأمر هنا متعلق بـ « بروميثيوس » آخر سلب المعرفة والافكار والحكمة، وقدم نار الحرب..

أقلب قنوات التلفزيون ابحث عن أي شيء.

ثمّة مسرحية كوميدية، فأقلب. فيلم مصري ممجوج، فأقلب. أغنية من أغنيات الموضة المتشابهة في كل شيء حتى بأصوات المغنين. أخرج من القنوات الفضائية إلى المحلية.

تلفزيون « الأمل » الذي يبث من الخليل يعرض مشهد الجنود الإسرائيليين وهم يجرون فلسطينياً في شوارع المدينة. تلفزيون « النورس » يعرض مشهد المواطن الخليلي الذي أصابه الجنود في رجله وأبقوه في الشارع يلوح برجله التي « انقصفت رقبتها » . التلفزيون الفلسطيني الرسمي يقدم نشرة الأخبار وهي مليئة بالمشاهد الكارثية. التلفزيون الإسرائيلي في إحدى قنواته يقدم حواراً مع ملتحين يضعون الـ « كيبه » على الرؤوس. أقلب. في « القناة الثانية » ثمّة دعايات إعلانية تقدم مزيجاً من الفنتازيا والشبق، وسرعان ما تطلُّ المذيعة ذات الوجه الطفولي تتحدث بغنج خفي ودلع واضح. في صوتها رنّة موسيقية تزيدها رقة وشفافة، شيء ما يشبه صناعة البهجة المزعومة للتأثير في المتلقي في حالات عدم الرضى الشعبي في الحروب. أشعر أنها تنظر إلى المشاهد بعينين ساحرتين وكأنها تراوده عن نفسه. تنتقل الكاميرا إلى أعداد كبيرة من الجنود والمجنّدات فأفهم أنه برنامج ترفيهي للجيش.

يصفّق الجنود الحضور ويهتفون مبتسمين، وأتساءل: هل أحد هؤلاء الجنود هو من أطلق الرصاص عليّ؟ وهل هؤلاء الجنود هم الذين يقتلون ويدمّرون ويستبيحون كلّ شيء؟! هل هم من يقتحمون البيوت الفلسطينية ويملؤونها بالرعب. بالسحل. بالإعتقال. بالتيتيم.

بالشكل. إنهم يبتسمون. ويغنون. ويتمايلون. تُظهر الكاميرا وجوه المجنَدات الجميلات جداً. شيء ما يشبه نجوم هوليوود.

أذكر انه في «العهد القديم» عند الحديث عن الحرب المقدّسة ثمّة وصايا للمحاربين اليهود، أذكر منها: «انه إذا بنى أحدكم بيتاً جديداً ولم يدشّنه فليرجع إلى بيته لئلا يموت في الحرب فيدشّنه سواه، وإذا غرس أحدكم كرماً ولم يقطف ثمره فليرجع إلى بيته لئلا يموت في الحرب فيقطف ثمره سواه. وأي واحد منكم خطب امراة ولم يتزوّجها، فليرجع إلى بيته لئلا يموت في الحرب فيتزوجها رجل آخر». وأتساءل: كيف يخوضون هذه الحرب القذرة؟ فاتذكّر انهم لا يبنون ولا يزرعون! وقد تركوا ذلك له العبيد الكنعانيين»..

في الحال يدخل «موفاز»[٨] إلى الاستوديو الطبيعي فتتعالى الهتافات والتصفيق ويزداد صوت المذيعة شبقاً وهو يتداخل مع موسيقى خاصة. شيء ما يذكر بموسيقى ڤاغنر والأنوار الكشّافة المركزة على الزعيم.. حيث المشية البطيئة للدكتاتور باتجاه المنبر وسيل كلامه العنيف والموقع.. وهي تتمنّي وتمجّد الهذيان الجماعي للحضور. يتبادل موفاز القبل مع المذيعة التي تكشف عن عري ظهرها. تبدأ الحديث مع موفاز. التقط بعض الكلمات العبرية ذات الأصل العربي واللاتيني. لا اذكر إن كان الحاخام «ابن ميمون الأندلسي» هو الذي وضع قواعد اللغة العبرية وفق قواعد اللغة العربية. أسمع موفاز يقول: «ملحماة نيجد تيرور» فافهم «ملحماة» من «ملحمة» أي: لحم/ حرب/ تلحيم. واظن «نيجد» من negation بمعنى نفي أو ضد ولا أدري لماذا تذكّرني بالنكد!! الآن كليهما تضاد! ولأن «تيرور» واضحة المصدر من terrorism. فافهم انه يتحدث عن تلحيم الإرهاب.

ويقول أيضاً «پيجواع».. فاعتقد انه يقول فقع / انفجر. فاظن انه يتحدث عن العمليات. يتّجه نحو جنده الحضور بالكلام. الامر الذي يجعلهم يهيجون ويرفعون قبضاتهم ويصرخون فتخلو وجوههم من كل العلامات التي كانت تعلوها في بداية البرنامج.

لا أدري لماذا تخيّلته يتلو عليهم خطبة عن الحرب المقدّسة من العهد القديم «وأما مدن هؤلاء الأمم التي يعطيها الرب إلهكم ملكاً فلا تبقوا احداً منها حيّاً بل تحللون إبادتهم وهم الحثيون والأموريون والكنعانيون كما أمركم الرب». حقّاً «إن وحي الحرب هو أخوّة الحشد الفوضوي المستسلم إلى المذبحة في نشوة مماثلة للرغبة الجنسية» (ڤان سلون في كتابة «المنبوذون»). فالنوازع الغرائزية تتّخذ صفة مقدّسة، وبذلك تحديداً تصبح انفعالية، حينذاك، كل شيء ينحني أمام هذا الخير المطلق، وكل شيء يكون مسموحاً به، الحيلة

والكذب والنيّة السيئة والاغتصاب والنهب والتعذيب، ويظهر شكل جديد من التقدير إزاء الخصم، لأن الإحتقار إزاء عدو معيّن يؤدي إلى الازدراء بالكذب عليه. ويقتصر تبجيل التضليل على الذين يعتبرون مساوين. لا أدري لماذا أخضع كلاوزفيتس الحرب للسياسة؟!

عند موفاز أرى شغفاً وحيداً ومتعة وحيدة في رياضته «التدمير الحقيقي». أظنه يقول: «الحرب هي صحة الدولة، الاكتفاء الذاتي، التخطيط، هي صحة الاقتصاد. فالإنتاج العالي الوتيرة يجب أن يعتمد في نجاحه على التدمير العالي الوتيرة»!

ثمّة من يعتبر الحرب مثل العيد أو الكرنفال، ويبرر ذلك بأن الدولة تؤكد نفسها وتبرّرها وتمجّدها عبر مجابهتها لكلية أخرى. لذلك فإن الحرب تشبه الكرنفال وتشكّل ذروة مساوية له، ويبرر ذلك في أنه عندما لم تكن الدول قد فقدت بنيتها المقدّسة، كانت تعيش على الطقوس السحرية الدينية. لكنها عندما أصبحت دولة عنصرية باتت محكومة بالقوة والبطش في الحرب التي تضعها في مواجهة الدول الأخرى، وليس في الكرنفالات التي تتطلب المشاركة الجماعية بين الناس والمجموعات.

لو كانت إسرائيل دولة دينيّة لليهود لفعلت ما تفعله دولة الفاتيكان.. واكتفت بطقوسها.





اللعنة!
انقطعت الكهرباء في الشقة!
اللعنة!

قالت زوجتي: «إنه الموعد الروتيني لانقطاع الكهرباء». كأنها بذلك تقول لم يقطعوا الكهرباء إيذاناً ببدء الاجتياح، وتشعل شمعة.

قدحة النار قدحت رائحة السيجارة في أنفي فأنظر إلى علبة السجائر الزرقاء وقد منحتها ظلال الشمعة توهّجاً خاصاً.. أتذكّر أن الحرب الحقيقية بالنسبة لزوجتي هي العتمة لأنها مسرح للآخرين، (The Others)، المسلسل الامريكي عن الأشباح والرعب.

أنظر إلى السيجارة بحقد وأتذكر كم تشاجرت مع خضير ميري كلّما قضى على سجائري بشراهة تدخينه المترافق مع جدالاتنا الطويلة جداً في ليالي «الأيام النحيلة»[٢٩]!! أذكر أننا ناقشنا ذلك ولا أذكر إن كان «سارتر» أم «ميري» هو القائل: «من خلال التبغ الذي أدخنه كان العالم هو الذي يحترق هو الذي يدخن وهو الذي يتم ابتلاعه كالبخار

ليدخل إلي ».

ربما أراد أن يتحدث بذلك عن ردة فعل الإمتلاك التدميري للشبغ، والتي ربما كانت تساوي عنده « رمزاً تدميرياً امتلاكياً للعالم بأسره ».

في اتصالاتي مع الشاعر الصديق خالد درويش وقد وقع عليه حظر التجوال في رام الله / بيتونيا قال لي : « لقد كانوا - ( الجنود ) - جزءاً من التفكير كيف نؤمّن السجائر ».

لا بأس يا « خضير » أنا الآن بلا سجائر لكنني سأبحث عنك، سأقرأ « صحراء بوذا » ثانية وثالثة وألف وأنا أذكر تلك الليلة من العاشرة مساء حتى الرابعة فجراً عندما قرأتها لي وهي مخطوطة.

« أبو العيون » كيف أسطرت حياتك وحياتنا هكذا؟!

أعود إلى الشرفة..

قناديل الصيادين قد بدأت تتماوج كهودج مائي. شيء ما يعطي انطباعاً بأن الصيادين مطمئنون أو غير آبهين. أحس بالرّغبة في أن أكون بينهم ليس لاصطاد إنما أن أكون مستلقياً على لوح خشبي مثل قوم « المعدان » في أهوار العراق..

تقترب منّي زوجتي وتقترح عليّ الذهاب إلى بيت أهلها المجاور لنا. يجبُ استخدام الدرج، ثمّة رياضة قسرية أيضاً.

كنتُ قد حفظت عدد الدرجات من وإلى الطابق السادس وكنت قد تعلّمت ذلك من أصدقائي « العميان » ومن لاعبي الجودو الذين يقولون « عندما يفقد البصر أهميّته فعليك بالذاكرة ».

يا إلهي، ماذا حلّ بذاكرتي، من يعصف بها، من يحاول غسل دماغي!

لم يعد لي ذاكرة من رُقم طينية يا شوكت الربيعي[10]!

عندما كنت صغيراً كنتُ أظن أنهم يفتحون الرأس ويغسلون الدماغ كما تغسل أمي الصحون. لكنني فيما بعد عرفت أن تعرض الإنسان إلى ظروف شديدة القسوة وعصية على التحمُّل الإنساني وفي الوقت ذاته تُقدّم له أفكارٌ أخرى نقيضة لأفكاره فهذا هو اختصار عمليّة غسل الدماغ.

اللعنة!

يا إلهي

من يطيعني؟!

أظن أنني قرأت في كتاب العين أو الصحاح أو مختار الصحاح ما يلي :

طبّع الدابة أي روّضها.

تقول زوجتي إنّ الزهايمر يصيب الذاكرة القريبة. وأسألها أي مرضٍ يُعنى بالذاكرة البعيدة؟

تقول: ربما أُصبت بمرض «لعنة العراق» إثر زياراتك الكثيرة إلى جنوب العراق الذي تعشق. وأقول لها: ليس فقط لعنة العراق إنما لعنة بيروت ولعنة دمشق ولعنة كوبا ولعنة إسبانيا ولعنة رأس الخيمة ولعنة تونس ولعنة عمان، وأخيراً لعنة حيفا وعن هذا تدور مخطوطة كتابي «اللّعنات».

تقول زوجتي: أقصد استخدام اليورانيوم المنضب ونتائجه في العراق وفي البالوع رام الله!

وأقول لها: ربما.. وربما فارقتني ذاكرتي البعيدة عند جسر «اللنبي» بعد مروري تحت نجمة داود الكبيرة جداً. ربما نسيتها في زيارتي اليتيمة إلى طيرة حيفا. هناك حيث قبر جدي تحت الحديقة العامة.

«للذاكرة صفة عملية.. تتم عندما يأتيها المنبّه المطلوب» تقول زوجتي وتتابع: «إنها مجرد ضغوط» ليس أكثر.. وأقول: ربما، وأغلق باب الشقة ونتّجه في العتمة صوب الأدراج.





بين أدراج العمارة تحفظ زوجتي أماكن الشقق الفارغة التي لا تزال «على العظم» فهي بالنسبة لها مأوى «الآخرون». وأنا أحفظ عدد الدرجات غيباً كي لا أتعثّر!

عند باب العمارة ونحن نحاول التقاط لهاثنا قالت زوجتي: «لو لم نكن مدخّنين لما تقطّعت أنفاسنا»..

أطرد تلك الفكرة من عندي كي لا تكون تبريراً سفسطائياً لتروبضني كما يشاء الآخرون. أريد أن أكون نفسي لا أريد أن أكون كما يبغي الآخر. أخرَجتْ علبة السجائر ذات السيجارة الوحيدة ومدّتها لي، وطبعاً قلت لها: دعيها لك، نلتقي في بيت أهلك.

كان الظلام يخيّم على هذه المنطقة من غزة! أنا أسكن في غزة لكنني لا أعيشها! لا أعرفها! لا أراها!!

أعود إلى غزة بعد غياب عنها دام عامين تقريباً قضيتُها في رام الله. جئت غزة لأوّل مرة في حياتي مطلع العام ٢٠٠٠ بعد عودتي إلى ما تيسّر من وطن. آنذاك انشغلت بالركض وراء تأمين وظيفتي. آنذاك كنت مشغولاً «بالإفلاس وبالمحبة» ما جعلا الشاعر سركون بولص[١١] «يجنّ ويدخل جمرة».

تزوّجت في غزة وفي اليوم العشرين لزواجنا ذهبت إلى رام الله، بعد أسبوع فقط على اندلاع الانتفاضة. ولم أتمكّن من العودة إلى غزة.

بعد سبعة شهور تمكّنت زوجتي من الحضور إلى رام الله بعد أن « سافرت » من غزة إلى رفح إلى مصر إلى عمان إلى رام الله طبعًا، وحدث لها ما يحدث للفلسطينيين من إهانات وإذلال في النوم على المعابر، وتأخُّر على الحواجز. وعادت إلى غزة قبل أربعة شهور لتضع وليدنا الأوّل في رعاية أهلها.

في الشهر السابع للحمل أطلّ الجنين السبعاوي. عاش سبعة أيام ومات في السابعة مساءً. أسميتُه نمر على اسم والدي، والنمر يقترب من السبع. كان ذلك سببًا كافيًا لأجيئ إلى غزة التي تحتضن في ترابها جنيني. وغزة الآن ليست أكثر من سجن كبير. حتى البحر الصديق العتيق يتواطأ على هذا السجن كأنه جلاّد يبكي بصمت.

الدكاكين الآن تشعل شموعًا أو قناديل زيتية، بعضهم أنار مصابيح كهربائية. السيارات تطلق « زماميرها » بافتراض من السائق أنه سيقلّني قبل أن يقلّني سائق آخر.

لم أتمكّن من ممارسة المشي بسبب مطاردة السوّاق « بزماميرهم ». لهذا أمشي بالاتجاه المعاكس لحركة السير. لقد جعل الاحتلال حياة المواطن الفلسطيني موثّقة إلى الشيكل بالشكل الذي فرض عليه أن يقضي حياته في الركض وراء الشيكل.



أذكر وأنا أشتري كعكة وزعتر من أحد بائعيها في رام الله كيف وقع الشيكل الذي أعطيته إياه.. وتدحرج الشيكل إلى الشارع وركض البائع وراءه فكادت إحدى السيارات تخطف حياته منه.. لهذا أتمعّن طويلاً بالآية القرآنية « فليعبدوا ربّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » ربما لهذا السبب قال ماركس: على المرء أن يأكل ويشرب ويلبس ويحتذي ( من حذاء ) ويأوي تحت سقف قبل أن يبدأ بصنع التاريخ والسياسة. فبالسوط وبالشيكل أسّست إسرائيل استعمارها! فهل بالسوط وبالشيكل نرد لإسرائيل استعمارها ؟! ( لا يعجبني استخدام مفردة استعمار لأنها مفردة استشراقية توحي بأن الغزاة جاءوا ليعمروا العمران. أفضل استخدام مصطلح كولونيالية ).

ذهبت إلى الدكان الذي اعتدت أن أشتري منه احتياجاتي. عند دخولي اعتقدت أنني لم أرَ جيداً بسبب العتمة. لقد أدهشني البائع عندما أشار إلى المكان الذي يضع فيه السجائر، كان خاليًا تمامًا ومن كل الأنواع.

« مش معقول » قلت له:

– لا يوجد سجائر في السوق . أجابني .

الكثير من الدكاكين في غزة تمتنع عن بيع السجائر على خلفية دينية، لهذا سألته سؤالاً آخر إن كانت بعض التنظيمات قد فعلت ذلك تنفيذاً لمقاطعة المنتجات الامريكية، لكنّه اجاب بالنفي . فأُفسّر لنفسي : ربما قام المدخنون بشراء كمّيات كبيرة من السجائر كتموين للأيام القادمة أو للاجتياح الإسرائيلي القادم .

في المحل الثاني كان هناك جمع من الرجال يتجادلون على الطريقة الفلسطينية عن احتمالات أو عدم احتمالات غزو إسرائيلي قادم . اكتفى البائع بتحريك كفّ يده اليمنى لي بما يعني « ما فيش » . وعاد يصرخ وهو يقول : طيّب، الخواجات ما بيكذبوا : لقد قالوا إنهم سياتون ! شو رايك يا أُستاذ ؟! لم أُجب .

تذكّرت صراع الكيميائيين على صناعة السّم وكيف مات أحدهم من سماعه لدقات الهاون كل يوم، والوهم الذي قتله . .

وتابعت المسير، بدأت أقوم بتمارين استرخاء، أتنفّس بعمق مع المشي . أركز عيني في شيء يشبه النجمة قد بدأ يلمع الآن . أعتقد أنه ليس نجمة . ربما كان « قمراً » اصطناعياً . . وذلك لقربه الشديد ولمعانه القوي . فتبسّمت له حتى تظهر صورتي مبتسماً .

أتمشّى وأشعر أن دمي يقول لي إنني حرمته من النيكوتين . ثمّة حرقة في العيون وطنين في الآذان وجميع المحلات لا يوجد فيها سجائر . في الطريق رايت أكياساً رملية وُضعت لتكون سواتر وحواجز لمقاومة الاجتياح المفترض . . شيئاً ما يشبه الشراك التي كان يقيمها الهنود الحمر في الأدغال لاصطياد الغازي الأبيض !

الشباب منهمكون « بتضبيط » الساتر . إنها المقاومة بسلاح الحد الادنى . تغزوني الآن مشاهد من الفيلم السينمائي « البؤساء » يحكي عن الثورة الفرنسية وعن المتاريس في الشوارع .

ربما كان ماركس من قال عن الذين صنعوا كومونة باريس إنهم « هبّوا لاقتحام السماء » . لقد أسماهم بالفوضويين الثوريين ولهذا نحت مصطلح « ديكتاتورية »( !! )

لا أدري لماذا سمّى ماركس أيضاً المؤمنين بالحرية المطلقة للفرد بالفوضوية « الأناركية »، فأنا أفهم ديكتاتورية من « ديكتا » التي تعني لي « إملاء » .

عندما كتبت عن مشهد الصراع اليومي في المدخل الشمالي لمدينة البيرة ( البالوع ) قلت : إن الشباب أيضاً « هبّوا لاقتحام الفضاء » . لأن المشهد أخذني إلى وقائع الصيّاد مع الغزلان أو إلى وقائع مصارعة الثيران .

في أوّل مرة شاهدت فيها مصارعة ثيران في إسبانيا كان المصارع من أصل فلسطيني. اذكر أنه من عائلة قرق. وأنا أشاهد المصارعة تقمّصت حالة الثور، لقد كان فيّ الكثير من الهيجان والكثير من العناد أو قل الإصرار بلغة الأنسنة. كان فيّ من القوة ليقال عني «ثور حرائة».

كنت أتأوّه كلما طعن الفلسطيني القرق الثور وكنت أهيج بين الجمهور لكن بهياج آخر عنهم. ربما كنت الوحيد المؤيّد لفريق الثور! لا أدري لماذا رأيت الإسرائيلي في دور المصارع وأنا الفلسطيني في حالة الثور!

كانت جدتي مفتونة بحكايات «كليلة ودمنة»، كافتتانها بسيرة بني هلال وعنترة والزير السالم، وكانت تحفظهما كأي حكواتي من عصر العصملي رغم أنها كانت تحمل ختماً تدمغ فيه شهادات الولادة التي تمنحها للأطفال الذين تسحبهم إلى الحياة بوصفها قابلة / داية. كانت تقول لي بعد كل هيجاناتي الثورية (من ثور): «فلسطين راحت بالسياسة يا ستي». ولطالما طالبتني باتخاذ الذكاء عن الثعلب والصبر والتحمّل من الحمار والعناد من الثور والشجاعة من الأسد.

عندها، في نهاية أيلول ١٩٨٢، وكنت عائداً «كسيراً حسيراً ظهري» من لبنان ودمشق إلى كوبا مروراً بمدريد، فكّرت بطريقة تشكل فيّ حيواناً جديداً فيه من الأسد والثعلب والحمار والثور، وإلى الآن لا أزال أحاول تشكيله لأن القلق قد أسرني.

اللعنة!

لا يمكن لنقص النيكوتين في دمي أن يجعلني أفكر بطريقة حيوانية.

اللعنة!

آه لقد تذكرت!

إنها الحرب.

اللعنة!

الذاكرة!

الحرب!

الحرب تشكّل حالة استيقاظ للغرائز للحيوانية ودون كوابح ربما في شكلها الأكثر بدائية والأكثر فظاظة. النوازع الغريزية - ربما - تتخذ صفة «مقدسة» ولذلك تصبح انفعالية، فالحرب تفتن وترهب والغرائز التي تستثيرها يبدو أنها تحوم حول الإنسان مثل سلطة مجهولة، فكلما كانت الحرب أكثر إجرامية، كلما اتخذت الغرائز التي تكشفها - الحرب

– صفات غير إنسانية وقاتلة . إنها « الغريزة التي تنحط وتنقلب ضد الحياة بحقد جوفي » .

أجدني الآن عند تقاطع شارع النصر، شارع عمر المختار . لقد قطعت مسافة طويلة جداً في هذه الأجواء « الاستنفارية »! أجواء تشبه إلى حدٍ كبير الليلة الأخيرة من المهلة التي منحها جورج بوش للعراق قبل الحرب ١٩٩١ .

كنت آنذاك عائداً من زيارة الفنان الكويتي مسافر عبد الكريم الذي قرر في تلك الليلة أن يرجع إلى الكويت حتى ولو مات هناك . وهذا بالضبط ما لاقاه .

كانت بغداد المدينة ، كعادتها تماماً، تمارس حياتها الليلية . . ضجيجها، أنوارها، محلات بيع اللحمة المشوية، البارات التي تضاعفت آلاف المرات منذ أن أحصاها التوحيدي، وكذلك حزنها العتيق الباطن والظاهر . كل شيء على حاله، بل، ربما كان له بريق آخر .

السائق كان صامتاً لا يتحدث . ربما كان يخشاني كما أخشاه أنا . كنت أتأمل المدينة كالذي كان في غيبوبة واستفقت على سؤال السائق لي :

– « شنو » ( أي ماذا ) ؟

– « شاكو » أجبته ( وأيضا تعني ماذا ) .

قال : كأنني سمعتك تقول « مش معقول كان شيئاً لن يحدث غداً » .

عندها كانت كلمات الشاعر خيري منصور[11] تجول في رأسي من ذلك النقاش الذي خضناه في مكتب سميح سمارة[12] في مقر سفارة فلسطين في بغداد .

كان سميح يعتقد أنّ الحرب لن تقوم لأنها بالنسبة له قد خيضت إعلامياً وسياسياً . وعلى سبيل النكتة قال خيري منصور إذّ يوم ١٦ / ١ / ١٩٩١ لن يأتي لأننا منذ ٣١ / ١٢ بدأنا نعدّ الأيام بـ ٣٢ / ١٢ . . ٣٣ / ١٢ . . ٣٤ / ١٢ . .

السائق ينطلق بالحديث وقال : لا تغرنّك اللا أبالية هذه، لقد أمّن غالبية سكان بغداد مأوى لهم في ريف بغداد ولقد ملأوها بالتموين . . وأخذ يتحدث بحرقة ويضرب على مقود السيارة بقبضته « إنّ هذه الشوارع الجميلة سوف تدمّر وهذه المساكن وهذه الجسور » – وكنّا نصعد الجسر المعلّق – وبدأ السائق يبكي كما يفعل غيلان الشاعر عندما يهيج بحب العراق والعراقيين، ويبدأ يهزج : « هذا بيتنا ونلعب فيه . . شلها غرظ بينا الناس »[13] .

في الصباح اكتشفت صحة ما قاله السائق .

غيلان الذي لم نفترق إلاّ في ساعات نوم ما تبقى من ليل . كان قد أمن مأوى لزوجته الكردية الرسامة في شمال العراق وعاد في اليوم الثاني .

والشاعر عمر رشراش ذهب مع عائلته وعائلات فلسطينية أخرى إلى منطقة تسمى

( طوزخورماتو ) يسكنها غالبية من التركمان والمسيحيين العراقيين.

كان « الفيلسوف » خضير ميري لا يزال في مشفى المجانين، والشاعر حسن النواب قد التحق كسائق دبابة في البصرة، ولم أعرف شيئًا عن الشاعر خليل الاسدي.

لم اقلق كثيراً على جان دمو الذي امعن في تقمُّص القط . فكلما وجدوه نائماً على اعشاب الحدائق العامة كان يقول لهم « اعتبروني قطة نائمة ».

ولم اكن قلقًا ايضًا على ضياء والشاعر نصيّف الناصري اللذين امعنا في الفرار من الجيش. لكنني، كنت قلقًا على المخرج المسرحي ناجي عبد الأمير وأين سيكون مأواه! كنت قد استفسرت لدى الدكتور عوني كرومي عنه عندما حضر إلى موعدنا صباح ١٦ / ١ / ١٩٩١ كي نرتّب فيلماً سينمائيًا عن فلسطين.

بعد يومين على بدء الحرب عاد الذين خرجوا من بغداد إليها بعد ان اكتشفوا انه لا يوجد مكان آمن لا تطاله الحرب!

إحدى العائلات الفلسطينية التي كانت تسكن قريبًا من ملجأ العامرية، قرّرت الرحيل إلى عمان. لكنّ افرادها لم يتمكنوا من عبور الحدود. حكاية وثيقة السفر الفلسطينية .. عادوا إلى الملجأ في الليلة نفسها التي حدثت فيها الكارثة ..



أجد الآن صديقًا قديمًا عرفته في بيروت، كان محاربًا ثوريًا يسمّي نفسه « غيفارا »، الآن يطلق لحيته واتّخذ له لقب « الغيفاري »، فلقد أصبح أقرب إلى الصوفيين منه إلى السياسيين.. أفكر بالذي ينجو من ميتات محتمة، فإما يتحى تجاه التصوُّف ومجاهدة النفس واهوالها، أو يزداد تعلّقًا بمتع الدنيا.

تعانقنا بما يليق بالأصدقاء. كان يبحث عن سجائر أيضًا . بدأنا نتمشّى ووجدنا انفسنا نتحادث في دائرة الهموم ذاتها. وبوصفه ضابطًا قياديًا سابقًا، كانت تسكنه حسرة خاصة، ربما كانت حسرة الضابط الذي لا قوة له امام عربدة الجيش الإسرائيلي، وقال:

« لقد فجّرت عبوّة ناسفة في غزة الدبابة الأكثر تطوراً في العالم. لكن هل كانت تلك العبوّة هي اليتيمة، وهل الذي فعلها احتكر ذلك لنفسه؟! فاتساءل مع نفسي: من أين ياتي الإحساس بالتوتُّر أو الإحساس بالارتياك؟! هل ياتي من وحشية استباحة الجيش الإسرائيلي للإنسان قبل الارض، ام انه ياتي من الهوة التكنولوجية بين الهندي الأحمر والغازي الأبيض؟

وأسأله: « كيف شايفها »؟

فيقول: لم نتخلص بعد من « روح العبودية » وعاداتها واخلاقها.

فأقول له: كيف؟

يقول: ألم تقرأ نيتشه أبو السوبرمان؟

قلت: ماذا بالتحديد؟

قال: «أخلاق العبيد في أساسها أخلاق منفعة. وفي أخلاق العبيد يُنظر إلى الإنسان الخيِّر نظرة فيها لون من الاستخفاف. وحينما تسود أخلاق العبيد تصبح كلمة طيّب مرادفة للأبله. ويصدر ذلك عن نية حسنة.. الخيِّر في طريقة تفكير العبيد هو ذلك الشخص المأمون الجانب، ففيه طيبة وغفلة، وربما قدر من البله، إنه الرجل المغفّل.

«فإذا تصورنا أن المغلوبين على أمورهم والمظلومين والمعذّبين والمقيّدين وغير الواثقين من أنفسهم - والذين يحسّون بالعناء من أنفسهم - إذا تصوّرنا أن هؤلاء قد وضعوا نظاماً أخلاقياً؟ فعلى أي نحو يكون العنصر المشترك بين تقييماتهم الأخلاقية؟ الأغلب أنهم سوف يعبّرون عن تحدٍّ متشائم لموقف الإنسان بوجه عام وربّما حملوا على الإنسان ذاته في حملتهم على موقفه. لهذا يلقى ضوء ساطع على كل الصفات التي تصلح لتخفيف أعباء الحياة عن عاتق المعذبين. فتمجّد الشفقة واليد المعينة المنقذة والقلب الرؤوف والصبر والجدّ والتواضع والتزلّف.. وأخذ يسأل وهو محتدّ: «هل نحتاج لمن يقول لنا كُرّ فأنت حُرّ، أم نبقى نردد: «وبين الملايين نفوساً وفلوساً ونتظرهم وفي ذلك إشكالية ما»؟ ويصرخ بصوت عالٍ إلى درجة أنه أسمع كل من كان في الشارع: «ما هذه المافوق-ليبرالية والتشوّهات التي خلقها وخلّفها الاحتلال. هل تتوافق الحرب مع الليبرالية»؟!

أهدّىء من روعه، لكنه وبعصبيّة أقل يتساءل: أليس حريّ بالذي يقف وراء عمليات المقاومة أن يقوم بمواجهة رد فعل الآخر ولو بالحد الأدنى؟!

هدِّئ من روعك يا رجل، أقولها له وكأنني بذلك أشعلت نيران غضبه فثار وهو يقول: «أحدهم قال لي إن الذين يصفّحون المدرعات والآليات الإسرائيلية هم عمال فلسطينيون يعملون في إيرز»..

اللعنة!

هل عدم التدخين يغذي الأجواء هذه؟!

اللعنة!

سأطرد هذه الفكرة الأخيرة، إنها محاولة تبريرية أخرى. إنها إذعان لرغبة الآخر وليس لرغبتي.. وأمشي. مع العتمة والزمامير التي تختلط بصياح المؤذّن وهو يعلن صلاة العشاء رغم انقطاع الكهرباء. ذهب صاحبي إلى المسجد.

لقد مضى عليّ وقت طويل جداً، من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء، دون تدخين.

اجدني الآن في النقطة التي انطلقت منها عند أبراج العودة والتي يسمّيها الناس «أبراج المقوسي» وأعود بلا سجائر لكن بكثير من القلق والحسرة.

ادخل إلى «سوبرماركت»، ورغم العتمة التي تُبدد منها الشمعة الكثير، فقد ذعرت من حملقته في وجهي. كدت أذعر من ذعره مني وأدهشني صمته وهو يمدّ يده إلى درج الطاولة ويخرج لي علبة السجائر قائلاً: إنه يحتفظ بها لنفسه، وقال لي: تفضل..

أريد ان اعرف كيف كانت ملامح وجهي. كيف كان لون وجهي وحجم عيوني وطبيعة نظراتي..

وضعت علبة السجائر في جيبي ورحت أنتقي معلّبات سردين، فول، حمص، كيس من الشموع، كيس من العدس، بطّاريات صغيرة، وأخرى كبيرة، زجاجة زيت. طبعًا لا يوجد خبز ولا بيرة. واشتريت زجاجات ماء، دواء للصداع ونارجيلة مع كل توابعها.

قال البائع: التجار يصنعون أزمات في الحرب. فعلوا ذلك بالطحين والخبز والآن بالسجائر.. «قرصته» بعوضة، وبدأ يحكّ مكانها. قلت له: هكذا هم.

وطلبت من الرجل ان يحسب قيمة المشتريات. ولمّا فعل، قلت له: أضفْ المبلغ على حساب ديوني إذا سمحت، وعدت أدراجي. لن أصعد إلى الشقة، العتمة لا تزال سيّدة الموقف. قررت ان اتمشّى ريثما تعود الكهرباء. لهذا تركت الأغراض عند حارس العمارة، أوصيتُه بها وانطلقت.





(٢)

العتمة الآن تجعل المكان مثل مقبرة.. حقًا إن العتمة هي مسكن التأمّل والتخيّل وهي مبعث الطمأنينة والهلع من المجهول في آن. في العتمة تأوي التهيّؤات والإسقاطات النفسيّة. ربما كانت العتمة الأولى هي التي خلقت الغولة لأجدادنا، وربما هي التي خلقت العفاريت للنواطير وللعشّاق الليليين.

لهذا أرى في العتمة غارًا للحكمة وأغوارًا للجنون وأتذكر «بروميثيوس» الذي علّم الناس سرّ النار وكيف أنزل «زيوس» به أقصى العقوبات، وأتذكر العتمة والنور اللذين قامت المانوية عليهما.

وأخيرًا أتساءل عن سبب انقطاع التيار الكهربائي هنا في غزة، ولماذا بقيت كهرباء فلسطين تحت رحمة شركة الكهرباء الإسرائيلية؟!

وقع حصان يشدّ عربة يلفت انتباهي. انا أعشق هذا الحيوان الجميل وأظن انه يكاد يتكلّم لو كانت له حبال صوتية.. وعندما تمر العربة بجانبي أرى الحصان رغم العتمة واشعر انه «يتقمّز» مثل «الوّيح» دبكة، لكن، وربما باشعة ما فوق حمراء في عينيه، تجعله يشق هذه العتمة وكأنه سيّدها. سائق العربة يبدأ بتجويد القرآن بصوت رائع..

علبة السجائر لا تزال في جيبي، لم افتحها بعد، لا يعجبني التدخين وانا امشي، أفضل الاستمتاع بفعل التدخين مع فنجان قهوة. كذلك لا أريد للتدخين ان يعكّر عليّ هذه النسمات - الشان البحري في كسر هدوء المقابر.

آخذ نفساً عميقاً، ارفع راسي، وامشي ببطء شديد باتجاه البحر، البحر الذي كتبت إليه في بغداد:

«أشتري علبة سردين -

لأشمّ البحر»!

عرفت البحر أول ما عرفته من روايات الأهل، ومن تندُّرات الآخرين على أبناء بلدة طيرة حيفا، الذين ينسب إليهم أنهم أطلقوا الرصاص على البحر لانه هاج وماج بينما كان بعضهم يشرب الخمر قريباً من الشاطىء فعكّر سكرتهم! ويقولون وفق لهجة أهل الطيرة «فرقع البحر فوّصه»!!

سبّحني والدي في بحر اللاذقية وانا ابن ست سنوات، كان همّي الوحيد أن أعود بالبحر إلى أمي، فاخذت قنينة من ماء البحر وكذلك عدت بأكبر هدية، بكيس مليء بالسلطعونات الصغيرة جداً، وقلت لها: هذا ما تتحسّرين عليه منذ إخراجكم من البلاد. لم تفعل شيئاً أكثر من البكاء..

أبي وأمي أمضيا حياتهما يتحسّران على رائحة البحر. كانا يقولان: «يا ريحة البلاد».

في زيارتي اليتيمة إلى طيرة حيفا (أيار ٢٠٠٠) عرفتُ أن للبلاد رائحة حقاً وعرفت أنها لا يشمّها إلا الذي يحيا غريباً عنها أو غريباً فيها. فذاكرة البلاد في المنفى وطن..

الإسرائيليون الذين يعيدون احتلال المدن الفلسطينية هم أيضاً يتحدثون عن منفى وعن وطن. الإسرائيليون الذين يشهرون سيف داود، نعم داود، هل يعلمون انه كان لاجئاً سياسياً عند الفلسطينيين عام (١٠٠٠) قبل الميلاد، فقد لجأ مع (٦٠٠) من رجاله خوفاً من أن يهلك على يد شاؤول. «وأقام داود عند أخيش بن معوك ملك جيت»، كما تقول الرواية التوراتية.

شيء ما بين الملهاة والمأساة!

لقد كان في قيام الوطن الإسرائيلي في القرن العشرين تحطيماً للوطن الفلسطيني المقام

منذ اكثر من عشرين قرناً.. وعندما تخلّصوا من المنفى أوجدوا منافي للفلسطيني..

وعندما يحطم الفلسطيني منفاه فإنه سيحطم بذلك وطنهم.. شيء ما مثل أنبوب مليء بالهواء إذا تم ملؤه بالماء فإنه سيطرد الهواء، وإذا أعيد إدخال الهواء إليه فإنه سيطرد الماء.

اللعنة..

واية لعنة!

لعنة وطن؟ ام وطن لعنة؟ وطن خرافة؟ ام خرافة وطن؟.. خرافة؟ خريف؟ خرّاف؟ واحدهم خرّ وراف.. وطن؟ وثن؟ وذاك الذي وطئ ثم طنّ، ربما وتداً فصار وطّان الأوطان والإستيطان؟

في اللغة العبرية فإن «هآرتس» تعني أرض وتعطي دلالة وطن، وفي اللاتينية فإن كلمة وطن تعني «باتريا». لا ادري ما هي علاقتها بـ«بترا»، وباتريا هي مصدر «فاذر» في الإنجليزية ومنها جاءت البطريركية / الأبوية..

عندما زرت موطئ راس ابي عند سفوح الكرمل وهاتفته من هناك قريباً من أنقاض بيته وبيت أجداده، فإن أوّل شيء قاله بعد ان كفّ عن البكاء: إذهب إلى قبر ابوي / جدك.. إغسله وأقرأ له سورة الفاتحة.





عائلة الحاجة «أم حسين» هي العائلة الوحيدة المتبقية في طيرة حيفا، طلبت مني ان أسأل والدي اين كان بيته بالتحديد.. واخذ يصف لي بأدق التفاصيل وأنا أقوم بنقل ذلك تباعاً أردد ما يقوله كلمة كلمة و«أم حسين» تهزّ برأسها، وتقول لابنها: «بالله يمّا» وانطلقنا بالسيارة توجّهنا «أم حسين»، بينما أنا وابنها نتبادل النظرات وفي العيون شيء من الريبة بشأن العثور على المكان.

تقول «أم حسين» إن الإسرائيليين هدّموا الطيرة بعد زيارة السادات إلى القدس ولم يبق سوى ثلاثة بيوت. امّا ما هو قائم الآن من ابنية مجمّعات سكنية فلقد تمّ إنشاؤه بعد مؤتمر مدريد ١٩٩١.

ما أثار استغرابي هو تطابق الوصف القادم عبر الهاتف من مخيم اليرموك مع الذاكرة الموجودة في الطيرة.

بعد تجوال لا بأس به أمرت «أم حسين» ابنها بالتوقّف، وقالت: هنا كان بيت أهلك بالقرب من مقام الشيخ خليل الذي يقف بأحجاره القديمة قريباً من تلّة يسكنها الصبّار والعوسج.

في ١٩٤٨ كان في الطيرة أكثر من ثلاث مقابر. في أيار ٢٠٠٠ كانت المقبرة الرئيسة قد

حوّلها الإسرائيليون إلى حديقة عامة. وعند المقبرة الصغيرة قرب مقام الشيخ خليل احتجنا إلى اختراق الصبّار والعوسج كي نقرأ أسماء الموتى.

«أبو أبوي» لم يخرج من فلسطين، بقي مع ابنة أخيه. كانت الـ«بلماح» قد اعتقلت ابنه / عمي واعتقلت أخاه وابن أخيه.. عندها قال للذين أخرجوا في العام ١٩٤٨:

«قبر أبوي وأبو أبوي وجدّ جدّي هنا، وساموت هنا.. لن أخرج».

كان يعقوب، أبو الإسرائيليين، قد أوصى بني إسرائيل قائلاً: «أموت الآن وأنضمُّ إلى آبائي. إدفنوني مع آبائي في المغارة التي في حقل عفرون الحثي».

لكن جدي أحمد يعقوب مات في سبعينيات القرن العشرين بعد أن أعطاه الإسرائيليون الجدد هوية مواطن إسرائيلي.

هكذا ببساطة أصبح مواطناً إسرائيلياً. نعم بتلك البساطة التي حول فيها البريطاني بلفور الوعد الإلهي إلى وعد سياسي.

لا أدري لماذا كنت أرى في الانتماء الحقيقي لفارس غلوب باشا إلى صفوف الثورة الفلسطينية الكثير من التكفير عن ذنوب بل عن خطايا البريطانيين بحق الفلسطينيين والعالم.



في أثناء إقامتنا المشتركة في تونس استشاط فارس غضباً عندما قدّمته إلى أصدقاء آخرين بوصفه إنجليزياً وبعد أن احمرّ وجهه الأبيض أخرج جواز سفره وبلهجة فلسطينية سليمة جداً قال لي أمام الأصدقاء: إقرأ هنا، وقرأت: مواليد القدس..

مسح فارس بيده على ذقنه الحمراء وقال بهدوء «إنجليزي»: لقد تنازلت عن جواز سفري البريطاني وحصلت على جواز سفر ايرلندي. وما أن رحل الأصدقاء وقد أدى فارس صلاة العشاء حتى أخذ يحدّثني عن السياسة البريطانية في تعيين الايرلنديين والأقليّات الأخرى في الجيش الإنجليزي بل وتحميلهم مسؤوليات كبيرة في بلدان المستعمرات كالهند مثلاً. طبعاً كان يقصد الحديث عن والده الجنرال أبو حنيك الذي غيّر الخطة العسكرية للجيوش العربية في ١٩٤٨ من خطة هجومية إلى دفاعية ثم انسحابية، آنذاك صاح أحد الجنرالات العرب إنها حرب عروش وليست حرب جيوش!

انتهى حديثنا أنا والصديق فارس بأنني طلبت منه أن يقرأ قصائده التي كتبها في حصار بيروت ١٩٨٢ الذي استبسل فيه كأي فلسطيني أصيل، عندها كتب:

«سنُلقي قمصاننا في نور الفجر
لأن أجسادنا ليست إلا قمصاناً
ولن نموت»..

تموت أو لن تموت، تلك هي المسألة. ذلك هو الحديث الشائع والفعل المضارع دائم الحركة. فالموت والحياة تساويا!

هكذا يردّد الكثير من الشباب الفلسطيني.. وعندما سألت الكثيرين: وكيف يستوي النقيضان؟! عرفت أن العلاقة بين هذا التساوي هي علاقة رفض لهذا الزمن ورفض للغد، لان القبول بالغد هو قبول بالمجهول، بينما اليقين الوحيد هو يقين الماضي، فلقد تم تحديده وهو التاريخ، لهذا يمكن العودة إليه عبر الموت دون بذل الجهد الذي يتطلّبه الذهاب إلى المستقبل.

ربما كان الموت هو الشيء الأكثر صفاءً وهدوءاً بالنسبة للكثير من الشباب الذين نفد صبرهم إزاء الحاضر المليء بالمهانة الشخصية والوطنية، ومع ذلك لا توجد حالات انتحار كفعل عصابي مرضي. لان الفارق عندهم كبير بين الشهادة والانتحار، وأتساءل: هل حقًا كان دستويفسكي قد مدح الحرب بسبب الفضائل الخلقية التي تتطلبها: روح التضحية، الأخوّة، ولانها تؤسس للعزّة والفن والثقافة؟!

لكن، الحرب التي تدور رحاها هنا ثمّة من حولها إلى غاية في ذاتها، إذ لم يعد تمجيدها اخلاقيًا إما غيبيًا، ربما بسبب الوعي والذي يأتي به مثل الوعية بتلقي الإنسان وحبها من ذاته الفردية.

الحرب!

اللعنة إنها الحرب!

الطائرة الزنانة يسبقها زنينها. هل قدوم الطائرة هو إشارة للهجوم؟!

تمنّيت لو انني أستطيل وأستطيل بما يكفي لامد يدي إلى السماء والتقف هذه الطائرة الخبيثة لألقيها في البحر كي يغسل آثامها فتكون ماوى للاخطبوط أو للمرجان وأن أقول للبحر:

أيُها البحر

أيُها الأزرق العظيم

يا من تردّ الأشياء دائمًا كأيّ معطاء عظيم

إذا أعدت هذه الزنانة ذات يوم إلى الشاطئ فلتكن بلا زنين وبلا عيون سحرية.

في كثير من الليالي أحتاج إلى أكوام من القطن لاضعها في أذنيّ كي أنام قليلاً فلا أحد يمكنه النوم في غرفة تقاسمه إياها ذبابة زرقاء أو بعوضة غير مرئية. هاتفي الخليوي يرنّ.

كنت قد وضعت له موسيقى السيمباثي ( Sympathy ) لهذا ادعه الآن يرن طويلاً كي تقوم هذه « السوفت ميوزك » بإعطاء المشهد موسيقى تصويرية . أفضّل على من يتصل بي أن يستمر في اتصاله لتتواصل الموسيقى . .

اتذكّرني عندما تعلّمت هذه الموسيقى على آلة الترومبيت هناك في مخيم اليرموك قبل ما يقارب ثلاثين سنة . وكيف كن طالبات الثانوية يلححن بإعادتها .

لكن الطائرة « الزنّانة » تقترب وتنشر الزنين والطنين في الاجواء فيتداخل زنينها مع السيمباثي تداخل الزيت بالماء . .

يستمر رنين الهاتف وتستمر السيمباثي مختلطة مع الزنين المثير للقرف ، ربما لو كان في يدي الآن « ترومبيت سحري » لرفعته باتجاه الطائرة « كحسام ضاحك » ونفثت كل ما بي ضد هذا الزنين القبيح لكنني اتذكر انه عليّ بالاسترخاء وعليّ بالابتسامة فهي سر الاسترخاء ، لان الحرب بالمحصلة هي حرب أعصاب طالما كانت صراعاً بين فكرتين وبين حالتي وعي منها حالة السيادة وحالة العبودية .

كانّ الطائرة الزنانة تقف فوق راسي ، بل كان غزوة دبابير تدور حولي ، ارفع الجهاز عالياً كانني آكشّ به غزوة الدبابير وابتسم كي تظهر ابتسامتي إلى جانب « نور » الهاتف في التصوير الذي تقوم به الزنانة . هل تصوّر موسيقى السيمباثي ايضاً ؟ . . فابدأ بغناء السيمباثي بصوت خفيف والمشي باتجاه البحر . توقف الهاتف عن الرنين ، كلانا انا والزنانة نمشي باتجاه البحر . . ينضم هدير البحر إلى الموسيقى التصويرية . . ارى امواجه في العتمة متحركة منفعلة وربما متفجرة مثل بركان . لكن بحمم من رغوة ثلجية وليست كـ « قارب رامبو السكران » .

اجلس قريباً جداً من الشاطئ بالشكل الذي يجعلني المس ما يوصله المد إليّ من ماء .

زنين الطائرة الخبيثة يبدأ بالابتعاد . ربما ازاحته السيمباثي عن مسامعي .

أخرج علبة السجائر من جيبي برفق وحنان ، وكذلك افتحها ، وبذلك أسحب سيجارة . اشعر ان السيجارة هي « حبيبتي » التي ستقاسمني هذه اللحظات والتي عليّ ان اتبادل معها القبل . فالمرأة والسيجارة كلاهما تنعشان القلب وتضرّانه ايضاً . . وكلاهما نبدأ معهما بالدلع وننتهي بهما بالولع . . والسيجارة والمرأة كلاهما تحترقان وكلاهما تحرقان . .

ابدأ بالبحث عن « علبة الكبريت » في السترة المليئة بالجيوب « سترة الصحفيين » التي تشبه ايضاً السترة الواقية من الرصاص . ثمّة سحّابات كثيرة ، فتحت ثلاثة منها واغلقتها حتى وصلت إلى علبة الكبريت . . ينقطع زنينها تماماً ، ربما اندحر لبرهة ليعود بجعير طائرات « آباتشي » و« إف ١٦ » .

في هذه الاثناء يرن جهاز الهاتف . كان مهيب البرغوثي . وفوراً وجدتني اقول له: ما هي اخبار حسين؟

تلعثم مهيب وكاد صوته يختنق . عندها صرخت : لا تقل لي . .

إرتفع هدير البحر وهاجت امواجه واحدني وقد ارتميت على ظهري والماء يبلّلني .

– آلو مهيب . .

– نعم احمد . .

– الوضع خطير، ولقد ارسل له احد اصدقائه دواءً من عمّان، ولكن اعتقله الجنود عند الجسر .

– هل استطيع الحديث مع حسين؟

– إنه نائم .

– قبّله عنّي قبلة طويلة . قل له هناك فصل آخر سيكشف عن اللوز .

في بغداد ( ١٩٩٨ ) عرفت حسين البرغوثي لأوّل مرة من خلال « حجر الورد » المنشور في مجلة « عشتار » .

حسين:

أيُها الصّديق الصّدوق

انت تعلم ان من يتجاوز الاربعين من العمر يصعب عليه تكوين صداقات كالتي كونها في شبابه .

حسين:

أيُها الشّفيع الاشقر

العالم يهلك والصداقة هي اقصر الدروب للوصول إلى وطن .

حسين:

هل الخسارات ميراثنا الازلي؟!

اللّعنة!

لقد تبلّلت علبة الكبريت . . اخذت السيجارة من فمي ثم عضضت عليها بنواجذي ووجدتني اقول:

أستاذن الخمر؟

كفى!
أينبغي الجميل؟
أعرف أن حسين معجب بالقط الذي يسقط واقفًا في كل الأحوال. هل ستقف ثانية يا حسين؟ أم أن القط استنفد أرواحه السبعة؟
لا..
لا..
القط من سلالة النمر أيضًا
آه يا حسين..

واقفًا على حرقة البلاد
والبلاد متلبّدة ببلادة الغزاة والحوذيين
ثمّة من ينتعل الخرافة ويتقافز في الحَرَل ولا يعرف: «ماذا قالت الغجرية» لـه المرايا السائلة»
ثمة هنود زرق أيضًا.





وأمام «حجر الورد» ثمّة سؤال أزرق:
يا لهذه الشمعة تبكي وتنشبك!
حسين..
الموت مثل جندب مجنون على كرسي هزّاز
لكنّه
يقفز من أعلى إلى أسفل وذات اليمين وذات الشمال
ويطيب له الاسترخاء في فراش دافئ
وقد يفتح كتابًا باردًا عن أسطورة جحيم بلا صواب

حسين..
هل ثمّة وقت لديك لنبحث في مخلّفات المماليك؟ الكلاب التي جرّت العربات على ثلج من زهور اللوز!
وماذا عن حصان السباق؟ عن لغة العلف التي تسبقها مسافة إصبع! هل ينالها أخيرًا ثمّة نرد بعد أن نلقيه بين المعنى والمعنى

ثمّة صباحات زرق تُنهض كوارتز البحر لاستقبال المدن الثملى والثكلى
ثمّة وقت بعد لسيزيف
وثمّة وقت لي لأرجوزة أخيرة
ربما احتفل ببطاقة وجهك وهي تطالعني من خلف زجاج البحر .

أستاذن الجمر
كفى
أينبغي الجميل؟

طائرات «آپاتشي» تجعر من بعيد وزوارق «الدبّور» كذلك
السيجارة في فمي .. العتمة لا تزال تتجوّل في المدينة، مضى عليّ وقت طويل دون أن أدخن وقد ازداد احتراقي الداخلي .

الطائرة الزنّانة تجعر .. وزوارق «الدبّور» ايضاً .. في الحال، أضيء شاشة جهازي الخليوي . وابدأ اقلب خصائصه الفنية إلى ان أصل إلى خاصة العزف الموسيقي ( Edit Music ) واضغط على (play) فتعود موسيقى السيمبالي وهذه المرة كأنها تخرج من نور الجهاز لتصل إلى «نور» الجمر الذي بي وبين بحر العتمة وبحر غزة ..

الموت .
إنه الموت في كل مكان ..

تنطلق موسيقى السيمبالي من جهاز الهاتف الخيلوي، علّني أواجه بهما الزنين والطنين .. فاتذكرني ثانية اعزفها على البوق / الترومبيت .
في «بهاء الأيام النحيلة» كتبت :

« وأنا اعانق الساكسفون كامرأة حميمة
أنفث - أشعاري / جوعي / حزني / قلقي / منفاي -
لحناً
لحناً تنتشي له أشدّ الحيوانات افتراساً
يجمع اللّقالق حول رأسي
والنوارس على كتفي

يامر الغيمات أن اتركي البحور القديمة
يجعل أشجار الأرز تتبعني أينما مشيت
أيتها الأفراح السمراء
كم انتظرك؟
كنت قد رحلت
لكن المطر ما عاد في حقائب آذار
وأنا نحيل كخيط من ماس» . .

الآن عند بحر غزّة . . في الأيام النحيلة أيضاً
اقف على بلوى البلاد كالذي من بلاء لاذ
أتلو «رسائل المنفى» إلى أفول الاصنام
أُحاول ان ارى بحراً في البحر . .
البحر في غزّة ليس جميلاً يا حمزاتوف! قد بشّعته الحرب وجعلته أجرب . .
من رأى بحراً لا تأمّه الناس ليلاً نهاراً؟
من رأى بحراً تعتقله الزوارق الحربية؟
الصيادون سكنة البحر الدائمون لا يفعلون شيئاً سوى تقليب ساعات الرمل على الشاطئ.



عرفت البحر في غابات الفرلنق في مدينة جبلة السورية القريبة من لواء إسكندرون، وكذلك شواطئ اللاذقية وبانياس وطرطوس على الساحل السوري وجونيه وبيروت وصيدا وصور وطرابلس وتونس والإمارات وشط العرب في البصرة، وكذلك المحيط الهادئ، والبحر الكاريبي وقناة بنما . .

وفي كلّ بحر عرفته كانت زوارق خفر السواحل تؤمن الراحة والطمأنينة إلى رواد البحر. لكن زوارق «الدبّور» الإسرائيلية تؤمن الجحيم للفلسطيني! تعتقل حقّه بالمتعة في البحر! والبحر هو الحياة، لهذا بالضبط يتحدث موفاز عن سعيه لهزيمة الوعي الفلسطيني لان «الهزيمة العسكرية ليست كافية» بالنسبة له. لهذا أوجدوا الإحباط، واليأس، والشعور بالعجز، والإرباك، والتخبُّط، وفقدان الثقة بالنفس، وفقدان الطمأنينة . .

اللعنة!

أين انت أيتها الطمأنينة؟

ربما خضير ميري من يقول: «العدو، إنه يغرس فيك الحياة نزقًا ثم يساعدك على أن تصدّق بانها حياتك. هو من ينهال عليك بالاخلاق والدسائس ثم يفتح لك جحرًا في الأرض لتدخل وحدك عاريًا وهو الذي يحضنك طويلاً لتكون سلّمًا لا طائرًا، وهو من يطعمك لتنام وإذا نمت نقص عقلك»!

في (١٩٨٢) وربما اعتقدنا نحن الطلبة الدارسين في الجامعات الكوبية إن الحرب التي أعلنها بيغن وشارون على لبنان متوقف حسمها علينا. اوقفنا دراستنا الجامعية وأتينا للدفاع عن لبنان بكل الطمأنينة والثّقة بالنفس.

وعندما قصفتنا الطائرات الإسرائيلية في الجبل، ولم يزل غبار السفر عالقًا على ملابسنا الجامعية التي أتينا بها، تطايرنا بكل ثقة بالنفس.

إنتقلنا إلى شمال لبنان.. حيث كان هناك تحسبًا لغزو إسرائيلي من الشمال.. كان موقعنا قريبًا من ميناء طرابلس.. على الساحل تمامًا في منطقة تسمى «الفرير» قريبًا من جزيرة الأرانب، منطقة كثيفة الشجيرات.

كانت مهمّتنا تتلخّص بحراسة الشاطئ تخوفًا من أي إنزال بحري وبالتحديد هجوم ضفادع بشرية إسرائيلية. فنخرج عند حلول المغيب إلى الشاطئ مباشرة ونتمترس خلف تلال صغيرة من الرّمل اقامتها الجرافات.





كان يحظر علينا التدخين، وكنا ندخن وليس من قبيل رفض الأوامر، إنما بسبب المغالاة بالثقة في النفس.. أذكر عندما شاهدت شابًا وشابة يتبادلان القبل على شرفة الطابق العاشر من عمارة مجاورة، ففرحت أقصى درجات الفرح لانني أشارك في حراسة المدينة وكي يتبادل العشاق القبل.

في ١٥/١/٢٠٠٢ احتلوا بيوتنا وكان فجرًا في فلسطين. كنت وحدي في الشقة، أصوات طائرات الهليوكوبتر في كل مكان من الشقة.. حتى خلت أن إحداهن تقف على الشرفة. كانت أصوات المدافع الرشاشة تقتل الصمت والعتمة، وأصوات انفجارات قريبة تهزّ العمارة كتلك الهزة الأرضية التي عشتها في سانتياجو دي كوبا.

كانت عتمة ليست للتأمل. خرجت إلى البلكونة التي اعتدت الجلوس عليها ليلاً حتى الصباح لارى أضواء مدينة اللد من خلف الوادي الاخّاذ.. نعم فلسطين هناك.

لم أر في السماء طائرات مع أن هديرها يصم الآذان وصوت سرفات جنازير الدبابات في كل مكان.

وعندما أضاء حسني الطيراوي، صديقي العتيق، شمعة في شقته المقابلة لشقتي، جاء من السماء نور قوي. عندها شاهدت الطائرة مثل رخ فقد الصواب.

وعندما سمعت صوت انطلاق الصاروخ تراجعت إلى خلف باب البلكونة.. كان الصاروخ يمضي لكن باتجاه رام الله.

في بغداد لم أر في السماء أية طائرات أمريكية كانت أم عراقية طيلة (٤٥) أيام الحرب. كنت أسمع أصوات «بي ٥٢» وأعيش ما يتلو ذلك من زلازل تاتي من السماء. ورأيت صواريخ «توماهوك» و«كروز» و«سيماهوك» تعبر الظلام. وتتصدّى لها الدفاعات الأرضية العراقية فكانت السماء تشتعل ولطالما سقط أكثر من صاروخ قريباً جداً منّا ومع ذلك كانت هناك الطمانينة. حتى عندما اشتعلت الأحداث الداخلية في العراق كنت مطمئناً.

وعندما أصبت في منطقة البالوع / البيرة باكثر من رصاصة مطاطية كنت هناك بكل الثقة والطمانينة.

وعندما وصلت مع المتظاهرين إلى سيارة الجيب الإسرائيلية التي يطلق منها الجنود الرصاص كنت أزهو بالثقة والطمانينة. كذلك كان القادة الشهيد أبو علي مصطفى وأبو ليلى وصالح رأفت ومروان ود. مصطفى البرغوثي وآخرون.. عندها أوصلنا للجنود اليافطة التي تقول: أخرجوا من أرضنا! فأشبعونا بالغاز وبالرصاص المطاطي بل والحي من فوق الرؤوس.



وعندما أصابتني رصاصتهم الحية (من حيث أفعى) الآتية من (يساجوت الكولونيا) واخترقت بطني وكنت أترجم قصائد عن اللغة الإسبانية للشاعر التشيلي الفلسطيني الأصل، محفوظ مصيص، وراء مكتبي في الطابق الثاني، نزلت الأدراج إلى الطابق الأول بكل طمانينة وبها ذهبت إلى المشفى.. وبها كتبت «البقاء على قيد الوطن».

وعندما ذهبت إلى مكتب الشؤون المدنية في السلطة الوطنية للحصول على تصريح لحضور دفن جنيني في غزة.. كانت الدبابات تقف عند أبواب مقر المقاطعة وكان المكتب قد انتقل إلى عمارة تقع في «شارع الإرسال» أي وراء الدبابات.

كان عليّ أن أمر بين الدبابات، وفي تلك الأثناء وصلت مظاهرة الاحتجاج على الإحتلال من جهة المقاطعة، وبدأت الدبابات بإطلاق النار، وأصبحت أنتظر اللحظة التي أرتمي فيها أرضاً، أنتظر شيئاً دافقاً سيندلق من رأسي.

وعندما قلت لنفسي إنه في الحال التي تخترق فيه رصاصة رأسي لن أتمكّن من رؤيتي كيف أسقط.. عندها، تابعت المسير بوصفي ميتاً، لكن، واقفاً وماشياً بكل ثقة!

وعندما ذهبت إلى الخليل كي أتمكن من المجيء إلى غزة في الباص الذي يخرج من ترقوميا عبر الممر الآمن كي أحضر إلى غزة وقد منعوني، أوقفنا الجنود عند حاجز منطقة «أبو

جورج». كان أحدهم متمترساً وراء أكياس الرمل ويصوّب البندقية على الركّاب بما يعطي الشعور أنه يوجهها على كل واحد منا.. عندها تذكرت أحدهم في بيروت عندما أشهر عليّ مسدسه، كان تحت تأثير المخدر الذي يعطيه العدوانية.

ولما استنفدت معه كل أساليب الثعلبة وهو لا يرعوي، قلت له: من يشهر مسدساً عليه أن يطلق.. فاطلق فوق رأسي تماماً.. ولما شعرت أن رأسي لم ينفلق قلت له: من يطلق يصيب، فارتبك.. بعد لحظة انهار باكياً حبيبته التي أكلتها طاحونة الحرب.. فعرفت أن تحوالي ليلاً مع الفتاة التي كانت برفقتي قد استفزّه.

في ١٩٦٧ كنّا أطفالاً نتقافز على أسوار المدارس والملاجئ في مخيم اليرموك، بينما كانت الطائرات تحدث اختراقًا لجدار الصوت ورجال الحيّ يتحلقون حول خطابات أحمد سعيد. كنا نبكي لبكاء أمهاتنا وجدّاتنا!

لقد بدأت حياتنا بالحروب والعويل!

في ١٩٧١، وكانت حرب الاستنزاف، شاعت أسطورة الطيّارين السوريين فايز منصور، بسام حمشو، والفلسطيني محمود عزام، في تصديهم للطيران الإسرائيلي، وكانت قد شاعت أيضاً أغاني عالرباعية، كنا نمتطي الجدران كان كلّ منا هو الزير سالم!

في ١٩٧٣، وقد صرت في الأول الثانوي، كنّا قد ذهبنا إلى سوق الحميدية لتناول «بوظة بكداش» بعد أن حضرنا فيلماً سياسياً في صالة «الكندي»، احتجنا لذلك أن نبيع بعضاً من كتبنا المدرسية في السوق، لفت انتباهنا جميعاً كثرة المسلحين المدنيين، وعند الثانية ظهراً من ٦ تشرين، عندما انطلقت صافرات الإنذار، وأصوات الطائرات الحربية في السماء، واستنفر المسلحون فوراً، عندها عُدنا إلى المخيم مشياً على الأقدام وكدنا نموت من شدّة القهقهة في الطريق التي لازمتنا مع كل قصف ومع كل صاروخ ومع كل سرب طائرات عسكرية..

عُدنا إلى مخيم اليرموك بكل الطمأنينة.

في اليوم التالي تلقينا، ذكوراً وإناثًا في ثانوية اليرموك، تدريبات أوّلية في الإسعاف المدني، وكان علينا أن نرابط عند مداخل الملاجئ في المخيم لا أن ندخلها، وأن نمنع السكان من إشعال أي ضوء في الليل، بل وحثّهم على طلاء زجاج بيوتهم بـ«النيلة الزرقاء». وفي النهار كنّا نقف ونتابع سير صواريخ «سام» وهي تطارد الطائرات الإسرائيلية وتصطادها، ونقفز ونصرخ كالذي يشاهد مباراة كرة قدم، مرةً قفز طيار بمظلته فهرع كل سكان مخيم اليرموك تقريبا وهم يضحكون ويمزحون. كان كل واحد وواحدة يعتقد أن المظلة ستهبط في المكان الذي يقف فيه وعندما ركضنا مسافة أكثر من ٥ كلم وجدنا سكان المناطق

المجاورة قد خرجوا لإلتقافه، فالتقفته الشرطة العسكرية!

حتى عندما انقلبت الحرب لصالح إسرائيل وقال دايان إنه سيتناول طعام الغداء في دمشق، كانت الطمأنينة في النفوس.

وفي ١٩٧٨ عندما اجتزنا الحدود السورية اللبنانية على أقدامنا باتجاه جنوب لبنان (اجتياح آذار ١٩٧٨)، فعلنا ذلك بكل الطمأنينة والثقة بالنفس.

في بيروت، وكان لكل يوم سيرة ووقائع من الحرب مع الخارج والداخل، وكانت موضة السيارات المفخخة والاغتيالات وتصفية الحسابات، كانت الطمأنينة سيدة الموقف.

في ١٩٨٨، وقد وصلت بعض الصواريخ الإيرانية إلى بغداد، كنت وغيلان وجان دمو في المطعم الذي عصف الصاروخ قريباً منه، وعندما قُصف ملجأ العامرية الذي يبعد ١٠٠ متر عن مأواي، وعندما اهتزت الأرض وربما السماء، لم يكن هناك أي شعور بالارتباك أو بالعجز.

.. كانت الطمأنينة سيدة الموقف.

اللعنة!

ماذا يجري الآن؟



أنا لا أعرف الاحتلال المباشر من قبل، عرفته بالفكرة وبتأثيراته ونتائجه البعيدة!

لم أكن واهماً يوماً من الأيام أننا نستطيع أن نهزم الجيش الإسرائيلي عسكرياً بمعنى المواجهة المباشرة التي تشبه النزال بين ملاكم وزن ثقيل ومحترف مع ملاكم وزن الريشة وغير محترف.



كنت أقول دائماً يجب عدم الذهاب إلى نقاط قوة العدو إنما إلى نقاط ضعفه من أجل الفوز بالنقاط وليس بالضربة القاضية!

ولطالما رددت حكمة: «ملعون من يخوض حرباً يمكن تفاديها وملعون من لا يخوض حرباً لا يمكن تفاديها».

أعرف جيداً أنهم فرضوا الحرب منذ مؤتمر «بال» في سويسرا وأجبروا شعوب المنطقة على خوض حروب كان بالإمكان تفاديها طيلة قرن مضى.

في حربهم الأخيرة عندما احتلوا رام الله ومخيم بلاطة ومخيم الأمعري وتحدثوا عن «نمور من ورق» تذكرت قلعة شقيف! أسطورة «ماسادا» حقيقية!

احتلّني إحساس بالتوتر وبالارتباك، تساءلت: أما كان بالإمكان أكثر مما كان؟ وهل تمّ الدفاع كما يليق بالدفاع عن مدينة هي بمثابة عاصمة؟! وهل يتمّ الإعداد للدفاع والمقاومة في الحد الأدنى؟

السيجارة لا تزال تراوح بين فمي وأصابع يدي..

وأكرر:

استأذن الجمر

كفي

أينبغي الجميل؟

أغادر الشاطئ..

وأنا اقترب من العمارات السكنية أجد مجموعة من الشباب يحملون البنادق، وبالقرب منهم ثمّة سيارتان تسدان الشارع، لكن كلا منهما تقف في الإتجاه المعاكس للثانية.

ولما اقترب منهما أجد السائقين يتحدثان بصوت عال يقول أحدهما للآخر:

«ببالك تعود هديك الأيام و ترجع نشتغل بتل أبيب؟!»

فيرد عليه السائق الثاني:

«منين يا حسرة. باينتها رح نضل عبيد للسلطة وزلامها»..

إنها المفاضلة بين عبوديتين ذكرتني بأحد ملوك طوائف الأندلس وكان يستشير مجلسه الوزاري عن كيفية التصدي للجيش الإسباني، اقترح أحدهم الاستنجاد بالمرابطين من المغرب، فردّ آخر: لكن المرابطين سوف يستعبدوننا بعد أن يهزموا جيش الفرنجة. فقال الملك جملته الشهيرة:

«رعي الجمال ولا رعي الخنازير».





في العراق القديم ثمّة حوار مذهل بين السيد وعبده، إذ يقول السيد لعبده:

- يا خادمي، هل توافقني الرأي؟

- نعم، سيدي، نعم.

- يا خادمي سأعشق إمرأة.

- إعشق يا سيدي إعشق، فالرجل الذي يعشق إمرأة ينسى الفاقة والبؤس!

- لا، أيها العبد، لن أعشق امرأة.

- لا تعشق يا سيدي، لا تعشق! المرأة باب مسحور، مكيدة، خطر خافق، المرأة سيف فولاذي حادّ قادر على قطع عنق رجل شاب!

- يا عبدي هل توافقني الرأي؟

- نعم، يا سيدي، نعم!

- إجلب لي ماء لليدين وصبَها فوقها، ساذبح قرباناً لآلهتي.
- إذبح، يا سيدي، إذبح لان الرجل الذي يضحي لآلهته يريح قلبه وينال خيراً مضاعفاً.
- لا يا عبدي، لن اذبح قرباناً لآلهتي.
- لا تذبح، يا سيدي، لا تذبح. دع آلهتك تتبعك كالكلاب.
- يا خادمي، هل توافقني الرأي؟
- نعم، يا سيدي، نعم.
- لقد قررت ان أوزع الصدقات.
- وزع، يا سيدي، وزّع. فالذي يوزع الصدقات كانه يضع الخيرات في يد مردوك.
- لا، ايها العبد، لن أوزع الصدقات.
- لا توزع، يا سيدي، لا توزع. لو انك صعدت إلى التلال البعيدة ونظرت إلى القبور الغابرة الزمان هل بمقدورك ان تميّز بين من كان خيّراً ومن كان شريراً؟!

لا ادري إن كان ذلك بمثابة التقية الأولى في التاريخ. تقية المظلوم خشية التنكيل! وأتذكر البطش والحديد والنار، وقمع الإنسان للإنسان.



تفترق السيارتان، فأسمع أحدهما يقول، بل، يصرخ: «روح حط راسك ونام أحسن لك.. حط راسك بين الرووس وقول يا قطاع الروس»..

نعم إنها الحالة الرابعة للوعي التي يتحدث عنها نيتشه.. الإصطفاف بين ومع المجموعة، لكن كيف وفي اي مكان.

يناديني أحد الشباب المسلحين: «مرحبا أستاذ أحمد».

لم اتمكن من تمييز صوته.. فترددت بالإجابة، وتابعت متجاهلاً ذلك. فجاءني الصوت ثانية: «إيش يا شاعرنا مش عارفنا ولاّ إيش، سلامة نظرك».

الحقيقة ترددت في الإجابة. بدأ رفاقه يبررون تجاهلي بأنني ربما لم اسمع ولا استطيع التمييز ليلاً..

لكنه أصرّ في مناداتي باسمي الكامل وبصوت قوي، عندها توقفت وألقيت السلام.

المشكلة أنني لم أكن على استعداد للحديث مع أحد.. أريد الذهاب إلى الشقة وتحضير النارجيلة وأن أجلس على النافذة في انتظار البرابرة. وليكن ما يكون.

اتّجه الشباب المسلحون نحوي. كانوا يتفاوتون بالاعمار، ما بين ١٩ إلى ٣٠ سنة. أمّا الذي ناداني، فهو مهتم بالشعر، ومتابع جيّد للشعر وللشعراء، وبدأ يحدّثني عن الكثير مما نشرت وقلت في التلفزيون.. ويصر على أن يسمعني شيئاً من اشعاره التي يحفظها

اللعنة!
السجائر
الحرب
المقاومة
الموت
الجنّة
النار
العتمة
الظلام
الامام
الحسام
الكلام

يرن جهاز الهاتف.
أدعه.
لا أريد التحدث.. لا أريد الاستماع.
تبدأ القنابل المضيئة في غزو سماء المنطقة.



الهاتف يرن.
تصفرُّ الأجواء.
السيجارة في فمي.
الضوء الأصفر يحول الليل إلى ما يشبه خسوف القمر.
ساعة الصفر تقترب.
الهاتف يرن.
أرد.
إنّه الطفل عمر يقول:
« معنوية عالية. بدنا نحارب. بدنا نصالح.
بدنا نطيِّر. تعال. بدي الكشّاف تبعك ( يقصد مصباح البطارية الصغير). أنا بخاف من العتمة. تعال ».

يقول عبد الله: يهود كلبين أما الثاني عمر فيقول: هذا قاز .. فينزعج عبد الله ويقول: لا ترد عليه هدول ما بفوزوا علينا هدول كلبين.. فأساله: ليش كلبين؟ يرد عمر: هدول كلبين لاني بخاف منهم زي ما بخاف من الكلب.

يبدأ عمر بالعواء على التلفزيون. بينما يقول لي عبد الله:

– عمر ما بيعرف لانه ما بروح على الروضة. أنا بعرف بروح عالروضة. عمر لا.

ويسالني:

– مش عزرائيل هو اللي يقبض أرواحنا؟

قلت له: ليش؟!

قال: هل الجندي الإسرائيلي هو عزرائيل؟

يقول عمر: يعني اليعازر؟

أصمت طويلاً طويلاً.

نهرني الطفل وقال: «ليش ساكت. رد عليّ. مش إنت كبير وبتعرف كل شيء؟»

عندها قلت له: طيِّب شو رايك إنت؟

قال: «مش الملائكة بساعدوا ربنا سبحانه وتعالى».

قلت: طيب!

قال: «يمكن الملائكة بتخانقوا مين يساعد ربنا أكثر، ومين بيشتغل احسن من شان ما يزعلوا ربنا»..

قلت: طيب!

قال: جبريل ما عنده شغل لانه النبي محمد مات. لكن إيش اسمه اللي بينفخ في قرن الخروف الكبير يوم القيامة؟

قلت: اسرافيل؟

قال عمر: «إسرائيل».

قال: «أبوه اسرافيل، بترجّى ربنا إنه يخلّيه ينفخ. فعزرائيل بيغار وبيقول لا.. أنا بدّي اشتغل لإنه إذا نفخ إسرافيل.. ما بضلّ في عندي شغل».

قلت: وبعدين؟

قال لي: «يمكن عزرائيل بيوقف مع اليهود وإسرافيل معنا».

عندها تدخّل شقيقه الأصغر وأراد أن يتحدّث فقال له الأخ الأكبر: «بس أنا بحكي إنت بتسكت». ودار شجار بينهم في «البقاء على قيد الوطن». شظّيت مفردة عزرائيل فاصبحت عزرا + إيل.. وإذا كانت إيل تعني الرب فإن عزرا عنت لي: آزر = عاضد =

ساعد = ناصر. وفي مفردة إسرافيل وجدت فيها إسراف + إيل فهل تعني أنها لحظة الإسراف الإلهي في العقاب عندما ينفخ إسرافيل البوق!

لقد أسرف الموت هنا في قتل الطفولة، رمز كل شيء عذري وخلّاق.

في الطريق إلى العمارة التي يسكن بها أهل زوجتي.. عدد من المسلحين. نتبادل التحيّة. أحدهم يطلب مني سيجارة. ولما أردت إعطاءه لاحظت سيجارة في يد أحد رفاقه. فعرفت أنه يريد الحديث معي ليتأكد من شخصيّتي. قال: الحق على العتمة! قلت: وعلى المستعربين والملثّمين.. فضحك وقال: الحذر واجب. قلت طبعًا! وقلت بسري: اللعنة، أين رحلت الطمأنينة؟

قال أحد المسلحين لطالب السيجارة: ما يتعرف الشاعر.. ما شفته على التلفزيون؟ فأجابه: أنا لا أفتح على تلفزيون فلسطين. وما بحب الشعر. قلت له: شكرًا. ومضيت.

صعدت الطوابق.

قبّلت عمر. أعطيته «قنديلي».

لاحظت زوجتي أن ملابسي مليئة بالرمل والطين. طلبت منها أن تبقى عند أهلها. رفضت وعدنا إلى شقتنا.

أضاءت هي الشموع.. وعمّرت أنا النارجيلة.. وضعت الفحمات على الغاز. وذهبت لأخذ حمّام ماء فاتر.. تذكرت إصابتي بالرئة وكيف قال لي الأطباء الكويتيين إن احتمالات بقائي على قيد الحياة مفتوحة إلى سبع سنوات فقط، وأمروني أن أقلع عن التدخين فورًا. وبعد عام من تلك النصيحة عادت رئتي وبنشرت وأعادوا عليّ النصيحة. كان ذلك في ١٩٨٣. في بغداد ١٩٩٣، أصبت بمرض السل وأمروني أن أُقلع عن التدخين. تذكرت غابرييل غارسيا ماركيز في «مذكرات مدخّن متقاعد» وكيف أُصيب بذبحة صدرية عندما أقلع عن السيجارة.

لقد مضت عشرون سنة تقريبًا على تحذيرات الأطباء الكويتيين، ولقد دخلت فيها ميتات محتمة..

صنعت زوجتي قهوة.. وجلسنا عند الشرفة أُدخن النارجيلة..

أصوات القصف المدفعي ترتفع من مكان قريب.. ثمّة ومضات انفجارات بعيدة.

وأقول لزوجتي:

– ثمّة احتمالات أربعة.

– ما هي؟

– أن يبقونا في البيوت تحت حظر التجول. أن يقتادوني مع شباب الحي إلى معسكرات

الاعتقال. أن أتعرّض لإصابة. أن أموت.

وببرودة أعصاب وبعد أن وضعت جانبًا أوراق «الضوء الأزرق» لحسين البرغوثي تقول: هناك احتمال خامس.

– ما هو؟

– أن لا يأتوا.

اللعنة!

لقد أحدثت كتابات حسين البرغوثي نقلة جهنّمية في تفكيرها. لقد نسفت كلّ احتمالاتي.

لا أذكر إن كان نيتشه هو الذي قال: «الرجل هو الذي خلق المرأة. من ضلع إلهة من مثله». عندما درست نيتشه لأوّل مرة في الجامعة الكويتية تمايزت غيظًا لموقفه من الاشتراكية التي يعتبرها حالة حسد تسكن الضعفاء، ولموقفه من النساء اللواتي يراهن على الطريقة الشرقية على «أنها – المرأة – شيء» يُمتلك وقد كتب عليها أن تُستعمل في الخدمة المنزلية وبذلك تحقق ذاتها» بل «على الرجل أن يحمل السوط كلّما ذهب إلى المرأة»!

ربما فكرت آنذاك في دراسة العقد النفسية التي كانت عند نيتشه وأقارنه مع عالم النفس الألماني الذي يستبعد النساء من حظيرة العبقرية إلا في الحالات التي تتّصف فيها بعضهن ببعض صفات الرجل مثل «الملكات الرجال بزي النساء».



وأذكر أنني قرأت شيئًا من هذا القبيل لنيتشه: «الروح الحرّة لا تعيش مع المرأة، وإنما تحلّق وحدها».

ربما لأن «الإنسان كي يعيش وحيدًا عليه أن يكون حيوانًا أو إلهًا أو أن يكون حيوانًا وإلهًا معًا، أي فيلسوفًا».

ربما لهذا السبب عندما طلّق «الفيلسوف» خضير ميري زوجته قال لها: إقرئي نيتشه ثانية!

(٣)

الساعة السادسة.. بنفسج الصباح يتنفّس الأزرق تمنيت لو كنت ظلالًا لولادة هذا الصباح.

أرى طيرًا أخّاذًا لم أره من قبل.. من بعيد اعتقدت أنه «هدهد».

في بغداد اشتريت هدهدًا بسعر يمكّن من شراء ٢٠ دجاجة محشيّة. أردت أن أتأمّل

الهدهد، مدلل سليمان وسارق قصر بلقيس . كادت رائحته تقتلني فاطلقته في الحال .

بعض العراقيين الذين طحنهم الجوع بدأوا يستعينون بالسحر والشعوذة لمواجهة طاحونة الحياة . كانوا يشترون الهدهد وقيمته تعادل أربعة أضعاف راتب معلم مدرسي ويأخذون منه عظمة ما ويزرعونها في عضد الساعد كي يأخذ القوة عدا عن استخدامات أُخرى لدم الهدهد . الطير يقف على شجيرة أراه يفزّ . .

كان نصفه الأعلى أسود بينما صدره ونصفه الداخلي يمتزج باللون البني والقرمزي وتحت إبطيه ثمّة برتقالي ناصع .

لكنّه وهو يطير اصدر صوتاً كان ما بين النعيب والنعيق . ربما كان غرابًا . . لا اعتقد انه كان غراب إدغار إلن بو .

لكني بدأت اضحك وانا اتذكر حكاية نيرودا مع الشاعر الإسباني ميغيل أرناندث عن ذلك الطير الذي استغرق أرناندث طويلاً في شرح صفاته ومواصفاته لنيرودا ولم يستطع نيرودا التعرُّف عليه لان المناخ التشيلي لا يلائم هكذا طيور .

عندها صعد ميغيل إلى الشجرة التي كانا يقفان تحتها وبدأ يقلّد أصوات ذلك الطير ويحرّك رأسه ويديه كما يفعل ذلك الطائر . .



وأعود أقطب الحاجبين وأنا أتذكر بقية الحكاية عندما تحدث نيرودا - ( سفير تشيلي في مدريد آنذاك ) - مع مدير عام وزارة الخارجية الإسبانية مقترحاً تعيين ميغيل أرناندث في وظيفة لائقة باعتباره شاعراً مهمًا لا يقل أهمية عن لوركا .



فما كان من مدير الخارجية إلا ان أصدر فوراً كتابًا يمنح أرناندث منصب مدير في الوزارة مبقيًا الكتاب مفتوحًا كي يختار أرناندث المكان الذي يعجبه ليداوم فيه حتى ولو كان في اي سفارة خارج إسبانيا . . لم ينبس ميغيل عندما سلّمه نيرودا الكتاب . وكل ما فعله أنه غادر ولم يعد إلا بمرور أسبوع .

وعندما سأله نيرودا عما إذا كان قد اتّخذ قراراً بخصوص التعيين كان أرناندث بغاية العصبية وهو يقول لنيرودا : ليت مدير عام الخارجية يؤمّن لي قطيعًا من الأغنام لأرعاه في مدريد . . ( قتله الكتائبيون لاحقًا كما فعلوا بلوركا ) .

تبسّمت زوجتي : لم يأت البرابرة !

قلت لها : البرابرة قادمون في اي وقت وإلا فلن يكونوا برابرة . . وهم بربارون ، ففي اللغة الإسبانية تستعمل ( ون ) للتضخيم فيصبحون برابرة جداً جداً .

بعد ساعتين من النوم، وبعد تردُّد كبير أمام رنّات جهاز الهاتف، صحوت. كان من يقول لي:

– أحمد.

( يا فتاح يا عليم كان اسمي أحمد )

– أحمد..

– حسين مات.

( ٤ )(*)

( ٥ )

مرة قال لي حسين تأمل هذا لنيتشه:

« إن التشاؤم من علامات الإنحطاط والتفاؤل من علامات السطحية! ليكن التفاؤل المأساوي هو الحل. وهو حال الرجل القوي الذي يطلب الشدة وسعة الخبرة. حتى ولو دفع ثمنها الويل والكرب. ويبتهج إذ يجد أن الصراع هو قانون الحياة ».

إن ما يجعلني أتغلّب على كآبة خيبة الأمل هو أنني أرى العالم كموضوع للتأمل. فالرعب والإرباك والعجز والإحباط، يجب معاملتهم فنيا على الأقل ولتكن دراما.

غزة، ٢١ أيار ٢٠٠٢



هوامش

١. حسين البرغوثي، الشاعر والمفكر الفلسطيني الذي ذهب في رحلة طويلة إلى قلب الجبل ربما ليحاور المكان أو الموت.

٢. الشاعر اللبناني المعروف الذي انتحر عند رؤيته الجنود الإسرائيليين يتجولون في بيروت.

٣. مفكر وناقد عراقي شاب دخل مصح المجانين مدة عامين.

٤. مؤلف لخضير ميري.

٥. مؤلف لخضير ميري.

٦. مؤلف لخضير ميري.

٧. عنوان رواية للروائي العراقي وارد بدر سالم، ومعدان، اسم لمجموعة من العراقيين الذين يسكنون في اهوار، جنوبي العراق.

٨. وزيرة الأمن ة الإسرائيلي.

٩. عنوان نص شعري كتبته عن ايام الحصار في العراق كسيرة ووقائع شعرية.

١٠. فنان تشكيلي عراقي.

١١. شاعر عراقي، من أهم الأسماء في قصيدة النثر يقيم في أمريكا. أسّس مع الشعراء: جان دمو وصلاح فائق وفاضل العزاوي ومؤيد الراوي وانور الغساني جماعة كركوك الشعرية في ستينيّات القرن العشرين.

١٢. شاعر وكاتب فلسطيني.

١٣. كاتب وباحث فلسطيني توفي بعد عودته إلى الوطن ١٩٩٦.

١٤. (اي غرض للناس بنا)، والشاعر غيلان، من شعراء قصيدة النثر المهمّين ومن أكثرهم تمرّداً من أجل الحرية المطلقة للإنسان.

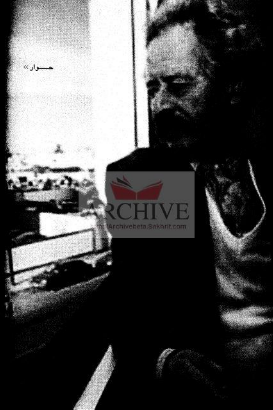




* البياض مقصود أشبه فصل البياض.

شاعر فلسطيني مقيم في غزّة / فلسطين

حــوار»



# محمدٍ شكري: لم أكن، قطّ، ثوريًا، بل متمرّدًا، وهناك فرق!

بعض الكتاب يجدون بعد وفاتهم ألف من يكتب عنهم مُدّعيًا صداقتهم. وهناك آخرون حتى أقرب الناس إليهم يتبرّأون منهم أحياءً وأمواتًا. محمد شكري، لحسن الحظ، من الصنف الأول. لذا فبعد رحيله كتب عنه الجميع. الجميع تقريبًا. ربما لأن أدبه كان قريبًا من كل هؤلاء. وصداقة الأديب أعمق وأبقى.

كان شكري صديقًا للجميع. حريصًا منذ سيرته الأولى على أن يُحيّي الجميع..

«صباح الخير أيها الليليون.

صباح الخير أيها النهاريون».

ثم يتوغّل في عنف طنجة وفي لياليها المكتظة. باحثًا للمدينة عن معنى.

طنجة لم تعد طنجة. يقولها دون كبير أسف.

لكن ماذا عن طنجة الأخرى أيها الشحرور؟

ليست هناك طنجة أُخرى. فطنجة هي طنجة.

لكن ماذا عن..؟

لم يكن يجيب. كان علينا أن نفهم من تلقاء أنفسنا أن الأسطورة لم تكن سوى شكري نفسه. وإلا فالنبيذ موجود في كل الحانات. والحانات في كل مكان.

في مطعم «ريدز»، ونحن في أواخر شهر كانون الثاني / يناير الماضي، لم يكن يشرب نبيذًا. كان يخلط الفودكا بالماء ويحكي عن الكتابة والحب وغدر الأصدقاء. لم أعد أذكر كيف انتقلنا إلى الحديث عن الموت. هل استدرجتُه؟ لم أكن أقصد. هل استدرجني؟ إذن فقد استشعر الفصل الأخير. قال لي شكري يومها إنه يتمنّى أن يموت في الحانة فجأة وأمامه كأس الفودكا، على أن ينال المرض من كبريائه ويُنكّل بشيخوخته. لكنه مرض بعد أشهر. وبعد أشهر قليلة مات. مر كل شيء بسرعة، تمامًا كما يجدر بفصل أخير من سيرة لم تكن عادية أبدًا.

حينما استبدّ به المرض واستشرى السرطان في كليتيه ورئتيه وكبده، زرته بالمستشفى العسكري بالرباط. كنت متهيباً. فالمرض خبيث والاخبار التي يتداولها الاصدقاء ليست مطمئنة. لكن شحرور طنجة الابيض كان يتحرّك في غرفته بالمستشفى كما لو كانت تلك الاخبار مجرّد إشاعات يعطي الدليل بحيويته على الا اساس لها من الصحة. وكان يتحدّث عن المرض وكأنه معركة عابرة. «خضت معارك كثيرة في حياتي، قال، ومعركتي مع المرض ليست الأولى ولن تكون الأخيرة».

لكنها كانت.

كانت الأخيرة يا شكري.

فيوم السبت ١٥ تشرين الثاني / نوفمبر، على الساعة الواحدة و٤٥ دقيقة زوالاً، حلّق الشحرور بعيداً. مات صاحب «الخبز الحافي» و«الشطار» و«وجوه» و«مجنون الورد» و«السوق الداخلي» مخلفاً جنب سريره دفتراً صغيراً لا يدري أحد حتى الآن ماذا كتب فيه: هل هي مجرد التماعات وانطباعات عابرة؟ أم لعلّه الفصل الاخير من سيرته المثيرة للجدل؟ فصلٌ لم يخمّنه احد. إذ لا احد كان يتصوّر ان عاشق طنجة و«مؤرخ مباءاتها الليلية»، كما كان يحب ان يصف نفسه، سيسلم الروح بعيداً عن معشوقته. لكن جثمانه عاد إلى طنجة ليُدفن بمقبرة «مرشان» وسط المدينة فوق هضبة تُشرف على البحر.

شكري صعلوك بالنسبة للكثيرين. لكنه في هذا الحوار كان يتحدّث كحكيم. خذوا الحكمة إذن من أفواه الصعاليك.



لم يسبق للعنة المنع ان لاحقت رواية عربية بنفس التشبُّث الذي لاحقت به سيرة محمد شكري الذاتية الروائية «الخبز الحافي»، ولم يسبق لكاتب عربي ان نال من الشهرة والانتشار في قارات العالم الخمس مثل ما نال شكري الذي صدرت لاعماله حتى الآن ٤٧ ترجمة. فه«الخبز الحافي» وحدها تُرجمت إلى ١٩ لغة عالمية. وما بين الشهرة والمنع، يعيش الكاتب المغربي وحيداً بلا زوجة ولا اطفال في مدينته طنجة التي يعتبرها حبيبته وزوجته أيضاً. إنه كاتب التاريخ المتجوّل لهذه المدينة، ومؤرخ مباءاتها الليلية.

## أريد التخلُّص من «الخبز الحافي»

خصوم شكري يقولون إن شحرور طنجة الابيض تجسيد حي للفضائحية في الادب. فهو يُروّج للمثليّة والإنحراف والإدمان وعقوق الوالدين. أما شكري، فهو لا يفهم عمّ يتحدث

هؤلاء. إذ لم يسبق له أن روّج لشيء. كل ما في الأمر هو أنه كتب سيرته وسيرة المدينة. كتبها كما هي «بلا رتوش». إنه مجرد مؤرخ جوال للمدينة. والحكايات الأخرى كلها لا تعنيه. لكن بعض هذه الحكايات تعنينا نحن آ السي محمد. قلت له في مطعم «ريدز» وهو يطلب كاسه الثاني. كان يخلط الفودكا بقليل من الماء والسيجارة معلقة بين شفتيه حين سألني: من أين نبدأ؟ قلت له: من البداية، من «الخبز الحافي» طبعًا. فضحك شكري..

م.ش لكن «الخبز الحافي» ليس البداية فقط. يبدو أنه قدري. هل تعرف أنني أُريد قتل هذا الكتاب والتخلُّص منه نهائيًا لكنه لا يريد أن يموت. لقد كتبت أعمالاً أهم منه في قيمتها الادبية، لكن الجميع يتحدثون عن «الخبز الحافي» وحده.

ي.ع وما السر في رأيك؟

م.ش السر يكمن في أن «الخبز الحافي» كتب أصلاً ضدّ الأدب. لو لم اكتبه لأُصبتُ بالجنون أو لانتحرت. كنت خارجًا للتو من حياة صعبة. دعارة، تهريب، ومخدّرات. ثم الندوب التي خلّفتها في نفسي التربية السيّئة التي تلقيتُها من والدي الذي كان يضربني أنا وإخوتي بشكل همجي. «الخبز الحافي» كان علاجًا لي. به استعدت توازني النفسي. لكن العديد من القراء لم يستسيغوا الأمر. لأن السيرة الذاتية بالنسبة لهم يجب أن تكتب في نهاية حياة أدبية حافلة. فهي تتويج لمجد أدبي. أنا كتبت سيرتي الذاتية بلا مجد. وهو ما بدا للناس غريبًا..

ي.ع ومستهجنًا أيضًا بسبب الحضور الطاغي للجنس في سيرتك؟

م.ش طبعًا هم يستهجنون ما أكتبه عن سوء فهم. فالجنس في كتاباتي ليس لإثارة الرغبات. فانا لا أملك مؤسسة للتهييج الجنسي هدفها مساعدة المصابين بالعجز الجنسي. أنا كاتب ملعون وإنسان عاش في الشارع، فهل يريدون مني أن أرسم لهم الفراشات؟ هذا غير معقول. لقد أفرطت شخصيًا في المجون، وأسرفتُ في الإقبال على اللذّة بكل أشكالها. لكن «حياة الإنحراف»، إذا جاز أن نستعمل هذه التسمية التي تعكس أحكامًا معيارية وأخلاقيّة، هي نتيجة خلل اجتماعي كبير يجب أن يُدان. ولا يكفي أن ندين الضحايا وحدهم.

ي.ع لكنهم أضافوك إلى قائمة الضحايا، فأدانوك ومنعوا الكتاب..

م.ش لقد مُنعت من طرف عقليات محافظة متزمّتة هي التي ما زالت تحاربني إلى اليوم. يكفي أن أذكر لك أنه بعد صدور «الخبز الحافي» سنة ١٩٨٣ كتبت جمعيات آباء وأولياء التلاميذ بالمؤسسات التعليمية عدة عرائض ورفعتها إلى وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية ووزير الداخلية ووزير الإعلام. طبعًا السلطات بادرت إلى منع الكتاب إرضاء لهذه العقليات، وحتى لا تقوم الفتنة.

المصيبة هي أن هذه العقلية المتدينة بشكل متزمت صارت تيارًا طاغيًا اليوم في العالم العربي كله. والغريب أن هذا التيار قد تسلّل حتى للجامعة الامريكية بالقاهرة التي لم تتردّد في إشهار سلاح المنع في وجه سيرتي الذاتية. حيث قامت الدنيا ولم تقعد، لأن باحثة جامعية رصينة ومشهود لها بأكاديميتها، هي سامية محرز، بادرت إلى طرح سيرتي الذاتية على طلابها، كأحد المراجع الإختيارية المقترح دراستها.

ي.ع أعتقد أن الضجّة التي أثارتها الرواية لا تقتصر فقط على الجنس؟!



م.ش هذا صحيح. مشكلة «الخبز الحافي» الحقيقية لا تكمن في الجنس. بل في الجرأة التي انتقدت بها والدي. فأبي نموذج لكل الآباء السيئين في المجتمع العربي. فالأب، أبي أنا على الأقل، كان يتصف بالجهل والعنف والتسلط. مجنّد بالجيش الإسباني، لا يعرف كيف يكتب اسمه، شخص بائس طحنته صعوبة العيش. هذا الشخص كان يضربنا بوحشية. لقد لوى عنق أخي في الليل بعنف همجي ودفنه في الصباح. لم يبق اليوم منّا نحن أبناؤه الثلاثة عشر سوى أربعة: أختان وأخ وأنا رابعهم. وكلنا موشومون بندوب جسدية وأخرى نفسية رهيبة.



ي.ع هذه الندوب هي التي ستحيلك فيما بعد على مستشفى الأمراض العصبية بتطوان. فكيف استفدت من هذه التجربة ككاتب؟

م.ش لقد دوّنتها في الجزء الثاني من سيرتي الذاتية. تحدّثت عن تجربة انهياري العصبي في «زمن الأخطاء» في فصلين. فصل أول هنا بمستشفى الأمراض العقلية بطنجة، والثاني عن تطوان.

ي.ع لنعد إلى « الخبز الحافي » . وجدت نفسك مضطرًا لطبع هذا الكتاب على نفقتك الخاصة بعد أن خذلك الناشرون ؟ إحك لنا قليلاً قصة نشر الكتاب ؟

م.ش طبعت الكتاب على نفقتي الخاصة لأن أحدًا لم يرد نشره . كنت قد اقترحته على سهيل إدريس لكنه لم يتحمّس له . وجده كتابًا مبتذلاً وطلب مني أن أفلسفه قليلاً . لقد عاب عليّ أنني كتبت سيرة ذاتية فضائحية إغوائية فيها نوع من الاستعراء . واليوم ها هو يكتب سيرته الذاتية هو الآخر ويفضح فيها ميول أبيه الجنسية الشاذة . عمومًا سهيل إدريس خذلني في ذلك الزمن . وأنا أعدّ ذلك جبنًا وتخاذلاً . لكنّه لم يكن وحده . الكل تخلّى عني وكل الأبواب أغلقت في وجه سيرتي الذاتية . لهذا كنت مجبرًا على نشر الأصل العربي لـ« الخبز الحافي » على نفقتي الخاصة من خلال العائدات التي كانت تدرها عليّ ترجمته الفرنسية والتي كنت أتوصّل بها من الناشر الفرنسي فرانسوا ماسبيرو . ومنذ ذلك الحين صرتُ ناشرَ كتبي بالعربية . إنني أفضّل اليوم إحراق كتبي على أن أسلمها لناشر عربي . لأن الناشرين عندنا ليسوا جبناء فقط ، بل لصوص أيضًا ومصاصو دماء . أنا أعيش على عائدات كتبي منذ ١٩٨٨ . ولو أنني عوّلت على الناشرين العرب لمتّ من الجوع .





ي.ع « الخبز الحافي » ظهر أولاً بالإنجليزية من خلال ترجمة الكاتب الأمريكي بول بولز ، وبعدها ظهرت ترجمة الطاهر بن جلون التي مكّنتك عائداتها من طبع الأصل العربي ، لكنك كتبت هذه السيرة من الأصل في سياق ملتبس وبالغ الطرافة ، أود لو تحكيه . .

م.ش كنت قد التقيتُ بناشر بريطاني نصّاب يبحث عن ضحية ثالثة بعد « المرابط » « والشرادي » الذين كان بولز قد ترجم له حكاياتهما إلى الانجليزية . وحينما سألني : هل يمكنك أن تكتب لنا سيرتك ؟ فأجبته على الفور : « إنّها جاهزة وموجودة في البيت » . كنت أكذب طبعًا . وكان الهدف من ذلك استباق الأمور والتمسُّك بتلك الفرصة . وبعدها استلفت من بولز ٥٠ درهمًا لأن الكتابة تحتاج القنينة الجميلة ، وهكذا ذهبت إلى « روكسي » ، وصرت أكتب وأحضر لبولز ليترجم ما كتبت . لكنني فيما بعد اكتشفت أن بولز « نصّاب » هو الآخر .

ي.ع في «الخبز الحافي» و«زمن الاخطاء» و«وجوه» لم تكتب سيرتك وحدك، بل كتبت سيرة طنجة أيضاً. كتبت سيرة ليلها الأسطوري. لكن أما زال ليل المدينة يحرّضك على الكتابة؟

م.ش ليل طنجة القديم كان يعجبني أكثر. رغم كل مباءاته وبعض عنفه كان جميلاً. أما ليل طنجة اليوم فقد صار ليل الإجرام والعنف المجاني.

ي.ع يعني ان أسطورة طنجة انتهت؟

م.ش وهل انتهت أسطورة الفراعنة؟ هل انتهت أسطورة المومياءات؟

ي.ع لا، ولكنك تتحدث عن طنجة الآن كما يتحدث عنها بعض الكتاب الأجانب الذين يحنون إلى طنجة الدولية؟

م.ش الفرق بيني وبين هؤلاء هو انهم يتباكون اليوم على زمن اللذّة القديم، وعلى مرافق اللذة التي كانت توفرها لهم طنجة الدولية: جنس، وشذوذ، وكيف، وحشيش. وهم اليوم لا يتباكون على طنجة الأسطورة. وإنما على الظروف التي كان يوفّرها لهم الوضع الدولي للمدينة. طبعاً أنا لا أحنّ كثيراً لهذه الفترة، لأنني حينها كنت أعيش في الضفة الأخرى، ضفة الحضيض الاجتماعي. أما طنجة الدولية بمباهجها وأفراحها وبذخها فكان يتمتع بها الأغنياء والأجانب. كان پول بوولز مثلاً يتمتع بطنجة. وكان يتمنّى ان تستمر هذه الرفاهية القديمة وتبقى طنجة كما عرفها في الثلاثينيات والأربعينيات. لهذا حينما انتقد أنا طنجة، فإنني لا أفعل ذلك بخلفية الأدباء الأجانب. ولكن لي غيرة كبيرة على هذه المدينة. وأنا مرتبط بها بعقد زواج كاثوليكي. قد نفترق، لكننا لن نطلّق بعضنا أبداً. لهذا أقول دائماً إنني لا أعتبر نفسي كاتباً مغربياً. بل كاتب طنجاوي. فأنا كاتب التاريخ المتجوّل لهذه المدينة ومُؤرّخ مباءاتها الليلية.

ي.ع لكن ألم تتعب بعد من طنجة؟ ومن ليلها الذي ازداد عنفاً؟

م.ش لا، هي التي تعبت مني. رغم أنها ما زالت في حاجة إلي. أمّا أنا فعلاقتي ما زالت حميمية مع أمكنتها وشخوصها. وعموما أنا لا أغادر طنجة إلا لماماً. وحتى إذا سافرت فإنني أعود بعد بضعة أيام فقط. أحس ان طنجة هي بحري الذي لا أستطيع العوم خارجه.

ي.ع في طنجة الدولية تعرّفت على جان جينيه، تينيسي وليامز، پول بوولز ووليم بوروز. ونشرت مذكراتك عنهم في كتب ذات قيمة أدبية عالية.

م.ش المذكرات تقليد غربي شائع. ولقد استعرت هذا الشكل في الكتابة بعد أن قرأت مذكرات بورخيس والبرتو مورافيا. والمذكرات التي كتبت صارت مرجعية اليوم لكل من أراد أن يكتب عن جينيه أو وليامز وحتى پول بوولز. وطبعًا كتابة مذكرات هؤلاء بطنجة هو استمرار لكتابة تاريخ طنجة أيضًا. طنجة التي ماتت الآن ثقافيًا، ولم تعد لها حياة أدبية كما في الخمسينيات والستينيات حينما كانت مفتوحة مباشرة على الساحة الأدبية بباريس أو نيويورك. الأمور اليوم تغيّرت كثيراً.

ي.ع إضافة إلى المذكرات أقدمت برفقة الأديب محمد برّادة على نشر مراسلاتكما التي امتدت ما بين ١٩٧٥ و١٩٩٤ في كتاب «ورد ورماد». في رسائلك بهذا الكتاب واصلت كتابة سيرتك؟

م.ش قد يكون ذلك صحيحًا. لقد كتبت تلك الرسائل بحميمية وصدق. وبشكل تلقائي. لم أكن أفكر في أن هذه الرسائل ستصدر في كتاب. ربما برّادة حينما كان يكتب لي رسائله كان يفكّر منذ البداية في نشرها. أما أنا فلا. برّادة حينها كان في وضع مستقر. كان أستاذًا بالجامعة. بينما كنتُ نزيلاً بمستشفى الأمراض العقلية بتطوان. ولهذا هناك فرق ملحوظ بين رسائلي ورسائله في هذا الكتاب. لكنني في الحقيقة غير نادم على صدور هذه المراسلات التي توثّق لصداقة عميقة دامت مدة ثلاثين سنة.





## أفضّل الموت الفجائي على المرض البطيء

ي.ع في إحدى رسائلك القديمة اعترفت لبرّادة بأنك فكرت في الإنتحار عدة مرات في أسبوع واحد. أما زالت هذه الفكرة تراودك؟

م.ش لا، طبعًا لا. ربما أحيانًا حين أبالغ في الشرب ولا أنام جيداً وأُصاب بفقدان الشهيّة تراودني هذه الرغبة بشكل خفيف. أمّا خلال العام حينما كنت في بداية انهياري العصبي والنفسي وكنت قد قضيت ثلاثة أشهر أو أربعة في مستشفى الأمراض العقلية، بدأت فكرة الإنتحار تلح عليّ. لقد عشت هناك تراجيديا حقيقية. أحد النزلاء قتل صديقًا له أمامي. لقد ذهبت إلى المستشفى لأنه كانت لديّ مشاكل مع

الأسرة والأصدقاء والعالم، لكن حينما رأيت تعاسة الآخرين نسيتُ مآساتي. وعموماً التعاسة الحقيقية هي فقدان الأمل التام. وأنا لحسن الحظ شخص متفائل في العمق. لهذا لا أعتقد أنني من النوع الذي قد ينتحر في يوم من الأيام.

ي.ع لكن الإنتحار ليس أكثر من استعجال للموت. أما الموت فهو قادم بالتأكيد، ومن الطبيعي أن نفكر فيه أكثر كلما تقدّمنا في السن؟

م.ش أنظر، أنا أُردّد دائماً مع أبيكور: «ما دمتُ أعيش فلا خوف من الموت. وإذا متُّ فلن أحس بشيء». ما يرعبني في الحقيقة ليس الموت بل المرض. أُفضل أن أموت على أن أمرض. أُفضّل الموت الفُجائي على الموت البطيء. أن يموت المرء هنا في الحانة وكأس القود كا أمامه، أليس ذلك أفضل له وللآخرين؟ ثم أنا شخص وحيد، ليست لديّ أُسرة لتهتم بي وترعى شيخوختي. لهذا أخاف أن أمرض ذات يوم. وحتى إذا أصابني مرض عضال مثلاً وحصلت حالة العجز التام، فإنني في هذه الحالة أتمنّى أن يعطوني «حقنة رحيمة» بها ينتهي كل شيء. لكن هذا لا يعني أنني حزين لأنني وجدت نفسي بعد هذا العمر بلا أسرة. فالعديد من أصدقائي أوصلتهم زيجاتهم إلى مستشفى المجانين. أنا على الأقل أعيش حياتي في هدوء تام.





ي.ع لكن الزواج ليس هو المرأة فقط، إنه الأطفال أيضاً. ألا تشعر ببعض الأسف لأنه ليس لك أبناء؟

م.ش ماجدة بنت جيراني في العمارة هي ابنة لي. أبناء جيراني كلهم أبناء لي.

ي.ع وأبناء أختيك وأخيك؟

م.ش هؤلاء لا علاقة لي بهم. كلهم قاطعوني بعد صدور «الخبز الحافي». أمي هي الوحيدة التي لم تقاطعني. قالت لهم حينما أخبروها عن الكتاب: «ذلك شأنه، فابني محمد يعرف جيداً ما يفعل». أما إخوتي فقد قاطعوني جميعاً. وهم الآن يتربّصون بي. ينتظرون موتي ليرثوني. ليأخذوا الثلاجة وغيرها من أشياء البيت التافهة. لكنني سأعرف كيف أحمي ثروتي منهم. سأقتل أعدائي قبل أن أموت.

ي.ع لكن هل لديك أعداء كثيرون؟

م.ش في السابق كان الناس يبحثون عن الأصدقاء ولا يجدونهم. وأنا كنت أبحث عن

الاعداء فلا أجدهم. لكن الآن مع النجاح وبسبب وضعي المادي الحالي بدأ الاعداء يظهرون. وآخرهم كاتب «صديق» اكتشفت أنه لم يكن قط صديقًا لي. عقدته الأساسية هي الشهرة، لكن ماذا أعمل له أنا لكي يشتهر؟ إنه شخص حقود وحقير ويبدي إزائي في الآونة الأخيرة عنفًا غير مفهوم. لقد خُدعت فيه وفي العديد من أمثاله. كنت أعتبرهم أصدقاء حقيقيين، لكنهم فاجأوني بحقدهم. أنا أتفهّم الحسد وأقبله. لكنني لا أقبل الحقد.

ي.ع لكن انت، هل سبق لك ان حقدت على أحد؟

م.ش ربما حقدت على أبي في طفولتي. ابي لوى عنق أخي أمامي بعنف غير إنساني ودفنه في الغد. ربما حقدت عليه حينها. لكن فيما بعد تفهّمت الأمر. شخص مثله بائس وشبه مجنون. له عقل فار. ماذا ستتوقع منه؟ لقد تفهّمت وضعه وظروفه، لكنني لم أصفح عنه. يجب أن أكون الله لأصفح عنه. لكن في نهاية حياته، وقبل وفاته بأيام قليلة، ذهبت لزيارة والدتي، لا لزيارته هو رغم أنه كان مريضًا. في تلك اللحظة رأيتُه يبكي. ومع ذلك حينما مات، لم يتحرّك داخلي أي شيء، وكأنه ليس أبي هذا الذي مات.

175

## أنا لا أعرف الحبّ



ي.ع قد يكون الموت مرادفًا للفقد، لكن الحب أيضًا قد يفتحنا على هذا الإحساس. ألم يسبق لك أن افتقدت امرأة ما؟

م.ش ولكنني لم أكن مستقرًا حينها، ولا النساء اللواتي عرفتهن كنّ مستقرات. لم يكن أي منّا مؤهلاً ليفتقد الآخر.

ي.ع لا، حينما أسالك هل سبق لك أن افتقدت امرأة ما، فالقصد عندي هو هل سبق لك أن أحببت؟

م.ش أنا أعرف الإيروتيزم، أما الحب المجرّد الأفلاطوني فلا أعرفه. أنا لا أعرف الحب.

ي.ع ومع ذلك فقد كانت لك علاقات خاصة وذات حميمية زائدة مع بعض النساء؟

م.ش هناك بعض النساء اشتهيتهن أكثر. اشتهيت أن يبقين معي في علاقة جنسية

دائمة، لكن العلاقة كانت تتوقّف إما بسبب خيانتهن أو لأن أسرهن كنّ يرفضن. مرة كنت سأتزوج بمعلمة. لم تكن تجمعني بها أية علاقة جسدية. طلبت يدها. لكن أباها رفض بعد أن تقصّى عنّي بدعوى أنني مجرد صعلوك حشّاش. لكن الغريب أنني التقيت ابنته في ملهى ليلي فيما بعد ودخّنت معي الحشيش. هناك فتاة أخرى كنت أفكر في الزواج منها لكنها خانتني. كانت تنام معي لمدة ١٥ عامًا. التقيتُها فيما بعد بمحطة القطار بالرباط، كانت في غاية القذارة. وحينما رأتني قالت لي: أرأيت كيف أصبحت؟ لو كنت تزوّجت بك في ذلك الزمن لما انتهيتُ إلى هذه الحال. فقلت لها: لو كنت تزوّجتك لانتهينا معًا إلى نفس حالتك، وأعطيتها عشرين درهمًا وانصرفت. وهناك أُخريات سبق أن خُنّني، وعدن بعد عشرين سنة يردن العيش معي، لكنني طردتهن لأعيد الإعتبار لذاتي المُهانة. خصوصًا وأنّ أغلبهن مجرّد عاهرات فاتهن الرّكب فانتهين إلى البؤس التام. وأخيرًا هناك (ف)، شابة بلجيكية التقيت بها قبل أحد عشر عامًا، وكانت هي طالبة في الثامنة عشرة. هذه البنت أُغرمت بي وكانت تريد الزواج مني، لكنني رفضت. بعض الحقراء هنا يعتبرونني شخصًا بلا أخلاق. لكنني رفضتُ أن أستغل فتاة جميلة وذكية أحبّتني. فأنا من طلب منها أن تعود إلى بيتها.

ي.ع والآن السي محمد، هل يمكنك أن تردد مع بابلو نيرودا: «أشهد أني عشت حياتي»؟ لقد عشت أشبه بمناضل ثوري فتح حياته على أكثر من جبهة، وعلى أكثر من مجهول؟

م.ش أنا لست ثوريًا ولم أكن قط ثوريًا لا كإنسان ولا ككاتب. أنا شخص متمرّد. وهناك فرق كبير. فالثوري عندما يحقّق أهدافه يكون قد بلغ تلك القمة الباردة. أما المتمرّد فهو يعيش ثورته الدائمة بلا توقُّف. وأنا ما زلت أعيش ثورتي إلى اليوم.

شاعر وكاتب مغربي مقيم في مراكش / المغرب



# «خارج المكان»

وقع خطأ في الطريقة التي تمّ بها اختراعي وتركيبي في عالم والديّ وشقيقاتي الأربع. فخلال القسط الأوّل من حياتي المبكّرة، لم استطع أن أتبيّن ما إذا كان ذلك ناجماً عن خطأي المستمر في تمثيل دوري أو عن عطب كبير في كياني ذاته. وقد تصرّفتُ أحياناً تجاه الأمر بمعاندة وفخر. وأحياناً أُخرى وجدتُ نفسي كائناً يكاد أن يكون عديم الشخصيّة وخجولاً ومتردّداً وفاقداً للإرادة. غير أن الغالب كان شعوري الدائم أنّي في غير مكاني.

هكذا كان يلزمني قرابة خمسين سنة لكي أعتاد على «إدوارد» وأُخفّف من الحرج الذي يسبّبه لي هذا الإسم الإنجليزي الأخرق الذي وضع كالنير على عاتق «سعيد»، إسم العائلة العربيّ القحّ. صحيح أن أمي أبلغتني أنّي سمّيت إدوارد على إسم أمير بلاد الغال (وارث العرش البريطاني) الذي كان نجمه لامعاً عام ١٩٣٥، وهو عام مولدي، وأن سعيد هو إسم عدد من العمومة وأبناء العم. غير أنّ تبرير تسميتي تهافتَ كليّاً عندما اكتشفتُ أن لا أجداد لي يحملون إسم سعيد. وخلال سنوات من محاولاتي المزاوجة بين إسمي الإنجليزي المفخّم وشريكه العربيّ، كنتُ أتجاوز «إدوارد» وأؤكّد على «سعيد» تبعاً للظروف، وأحياناً أفعل العكس، أو كنتُ أعمد إلى لفظ الإسمين معاً بسُرعة فائقة بحيث يختلط الأمرُ على السّامع. والأمر الوحيد الذي لم أكُن أطيقه، مع اضطراري إلى تحمّله، هو ردود الفعل المتشككة والمدمّرة التي كنت أتلقاها: إدوارد؟ سعيد؟

إندغم عندي تحمّلُ مشقّات مثل هذا الإسم مع ورطة لم تكن أقل إقلاقاً، تتعلّق باللغة. فأنا لم أعرف أبداً أيّة لغة لهجتُ بها أولاً: أهي العربية أم الإنجليزية، ولا أيّاً منهما هي يقينياً لُغتي الأولى. ما أعرفه هو أن اللغتين كانتا موجودتين دوماً في حياتي، الواحدة منهما ترجّع صدى الأخرى، وتستطيع كل منهما إدّعاء الأولوية المطلقة، من دون أن تكون هي فعلاً اللغة الأولى. وأنا أعزو مصدر هذا الإضطراب الأوّليّ إلى أُمي التي أذكر أنها

كانت تحدّثني بالإنجليزية والعربيّة معًا على رغم أنّها كانت تراسلني بالإنجليزية على مدى حياتها، وبمعدّل مرّة في الأسبوع، وكنتُ بدوري أعاملها بالمثل، إلى أن طواها الموت. كانت بعض عباراتها المحكيّة عربيّة، مثل « تِسلَمْ لي » و« مش عارفة شو بدّي اعمل » و« رُوحها (للماما) »، والعشرات غيرها. ولم أضطرّ مرّة إلى ترجمتها أو حتّى إلى أن أفقه معناها تمامًا، كما في حال « تِسلَمْ لي ». وكانت تلك العبارات جزءًا من مناخ الأمومة الغامر الذي أحِنُّ إليه في الأوقات العصيبة. وتُضفي عليه رقّةُ عبارة « يا ماما » مناخًا يُغري كالحلم وإذا به يُنتزع فجاةً منك انتزاعًا بعد أن يكون قد وعدك بأشياء لم يفِ بها أبدًا.

( من « خارج المكان »، مذكرات إدوارد سعيد. ترجمة فوّاز طرابلسي. « دار الآداب »، الطبعة الأولى، عام ٢٠٠٠ )

أنطـون شـمـاس

# مكان الإقامة

في المشهد الإفتتاحي من الفيلم الوثائقي «بحثًا عن فلسطين»، (بي.بي.سي.، ١٩٩٨)، عن عودته إلى القدس، مسقط رأسه، نرى إدوارد سعيد جالسًا إلى طاولة في بيته في نيو يورك: عن يمينه مزهريّة، وأمامه البوم عائلي، يتصفّحه متانّيًا، غير ملتفت إلى الزهور. ثم يرفع من داخل الالبوم صورة لإكليل والديه، ويقول متذكّرًا إنّهما تزوّجا في الناصرة، حيث ولدت أمّه، ليلة عيد الميلاد من عام ١٩٣٢، وإنه بعد سنوات طويلة، حين كانت أمه راقدة على فراش موتها في واشنطن، كانت تهمس بين التأوّهات بانها تريد العودة إلى بيتها، إلى الناصرة. لكن العودة كانت مستحيلة. فدفنت حيث ماتت، في واشنطن. أما الوالد، الذي رحل قبلها بعشرين سنة، فقد أراد ان يُدفن في ضهور الشوير في لبنان، حيث كانت عائلة سعيد تاتي كل عام من القاهرة لقضاء الصيف. لكن أمنيّته الأخيرة لم تتحقّق، إذ اعترض من اعترض من سكّان البلدة، لأسباب لبنانيّة عريقة في تعقيدها، فدفن في بيروت. «بصورة معيّنة»، يضيف سعيد بمرارة مكتومة، تنتابها رعدة خفيفة، «هذا هو قدر الفلسطينيين: ألاّ ينتهي بهم المطاف في نقطة الإبتداء، بل في محلٍ ما غير متوقَّع، محل بعيد».



إدوارد سعيد، الناقد والمنظّر الادبي، والمثقف الملتزم، والمفكّر الفلسطيني الذي عاش حياته في غير محلّه، خارج المكان، توفي في أواخر أيلول الفائت في نيو يورك، المدينة التي قضى فيها سنوات حياته الأكاديميّة؛ وشأن والديه، انتهى به المطاف «في محل ما غير متوقَّع، محل بعيد». ففي الأول من تشرين الثاني / نوفمبر الفائت، يوم كان ليَحتفل بعيد ميلاده الثامن والستين، اجتمع أصدقاؤه وأقاربه في الجامعة الامريكيّة في بيروت، وأقاموا لتذكاره جنّازًا علمانيًّا، كما أسموه، بعد أن كان رماده قد ووري التراب، عملاً بوصيّته، قبل ذلك بثلاثة أيام، في بلدة برمّانا، إلى الشرق من بيروت. وأمام المحتشدين، جلوسًا ووقوفًا، في «الأسّمبلي هول»، قاعة المحفل التي بناها المبشّرون

البروتستانت الأمريكيّون عام ١٨٩١، قرأ الأصدقاء والأقارب مقاطع من أعماله، بالإنجليزيّة، وبترجمة عربيّة؛ وعُرض تسجيل بالفيديو لخطاب ألقاه بالإنجليزيّة في الجامعة الأمريكيّة في الصيف الفائت، لمناسبة منحه دكتوراه فخريّة، وخطاب ألقاه بالعربيّة في مناسبة أُخرى؛ وعُزفت مقاطع موسيقيّة، مذكّرة بكونه عازفًا محترفًا للبيانو، حبّه الآخر.

كنت قد وصلتُ إلى بيروت في الليلة الفائتة، في أول زيارة لي لدولة عربيّة، ووقفتُ بصحبة بعض الأصدقاء، بعد أن غادرنا القاعة المكتظّة، نتابع وقائع الجنّاز العلماني من على شاشة فيديو نصبت في الخارج، والليلة البيروتيّة حولنا رقيقة الحواشي. لكن أرقَ الأيّام السابقة، واستحالة النوم في بيروت بسبب شعوري بأنني قد عدت إلى البيت، إلى المدينة التي لم أكن قد زرتها ذات يوم، جعلتني أنظر كالتائه فيما حولي، عاجزًا عن إدراك ما أنا فيه تمامًا، هنا في هذه الساحة، في عاصمة القرن التاسع عشر. هنا تمشّى جرجي زيدان ذات يوم في مطلع ثمانينات ذلك القرن، وتحدّث مع مدرّسيه، الدكتور لويس الذي أدخل علمانيّة داروين إلى فكر النهضة العربيّة من بابها الخلفي، والدكتور ڤاندايك، الذي حوّل الترجمة العربيّة للتوراة إلى مشروع أساس من مشاريع النهضة. وهنا شارك جرجي زيدان في قيادة أوّل تمرّد طلابي في العالم العربي، ثم نقل بمساعدة أصدقائه في هذه الجامعة ( « الكلّيّة السوريّة » يومذاك ) روح النهضة إلى القاهرة، حيث قضى سعيد أعوام المراهقة بعد ذلك بنيّف وستّين سنة ( أما ما حدث للنهضة هناك، فتلك حكاية أُخرى ). وهاهي كلمات إدوارد سعيد، أحد آخر النهضويّين العرب، يقرأها أقرباؤه وأصدقاؤه ولكن ليس بالإنجليزيّة، اللغة التي كان سعيد يشعر فيها « بالبيت » منذ صباه، وإنّما بالعربيّة، لغة هذا المكان – فتزيد من بلبالي.

كان إدوارد سعيد يصف نفسه، بكلمات الروائي الألماني جينتر جراس، بأنه « مثقف غير مُنتَدَب »: فمع أنه كان يُعتبر عادة، وليس فقط من قبل مناهضيه، من المتحيّزين الأوفياء لنهج سياسيّ معيّنٍ إلا أنه لم يكن ذات يوم يرى نفسه من أنصار تحزّبٍ بعينه، أو يشعر بأنه « بالبيت » تمامًا في مكانٍ ما. ولكن في تلك الليلة في بيروت، فيما كانت مقتطفات من أعماله تُقرأ بالعربيّة، كان في وهمي أن سعيد، في موته، قد منح ذلك المأزق دلالة جديدة وحقّق لنفسه انتدابًا بالإجماع. كان في أوائل السبعينات قد قرر أن يتعلّم العربيّة، لغة فلسطين، وقضى لهذا الغرض سنة في بيروت تلميذًا لأنيس فريحة. والآن، في هذا الحفل التذكاري، يقرأ فوّاز طرابلسي من ترجمته العربيّة للترجمة الذاتيّة

لسعيد، « خارج المكان »، فتستبدل الترجمةُ العربيّة الأصلَ الإنجليزي في هنيهة سحريّة، مانحةً حياته بيتًا ما، مكانًا بُعَيْد الوفاة، وانتدابًا داخل لغته الأُمّ الإفتراضيّة. « في نصوصه »، يقول الفيلسوف تيودور أدورنو في مقطع كان سعيد يستمتع باقتباسه، « يبني الكاتب له بيتًا . . . والإنسان الذي لم يعد له وطن، تصبح كتابته مكانًا يقيم فيه ».

اللغة العربية، تلك الليلة في بيروت جرجي زيدان، كانت له بيتًا وانتدابًا.

مشاهدة « بحثًا عن فلسطين » اليوم، بعد غيابه، توضح بصورة مرئيّة غنيّة عن الكلام ما عناه سعيد نقلاً عن أنطونيو غرامشي، نقلاً عن رومان رولان، حين كان يتحدّث عن « تشاؤم الفكر، وتفاؤل الإرادة ». مجهزًا بطاقم تصوير، وبخريطة داخليّة لفلسطين التي في وجدانه، يخرج سعيد في رحلة قوامها عودة ترسّميّة إلى المناظر الشخصية والقوميّة والفكرية والعاطفيّة والسياسيّة المتبدّلة أبدًا في الوطن الضائع. في المشهد الأخير من الفيلم، بلدوزر إسرائيلي يعيث فسادًا في حقل فلسطينيٍّ مزروع ويقطّعه إربًا إربًا، فيدرك المشاهد، ولو بشيء من التردُّد، أن الـ « بحث » في العنوان ليس إلا تلطّفًا، ليس إلا بحثًا إسميًّا لن ينتهي بالعثور على شيء. ورغم ذلك، فإن إدوارد سعيد، الذي كان يدرك تلك الحقيقة أكثر منّا جميعًا، يواصل سيره دون كلل، ويواصل البحث. « عليك أن تقول بأن الأمور رديئة، ثم تحلّلها بشكل عقلاني »، قال في مقابلة أُجريت معه عام ١٩٩٣، « وبناء على هذا التحليل فإنك تكوّن حركة مستقبليّة، قائمة على أساس من التفاؤل، وعلى القدرة والرغبة والإرادة لتغيير الأشياء ».

في مقال له بعنوان « عن القضايا الخاسرة » كتب سعيد أن « القضيّة الخاسرة تقترن عقلانيًّا وعمليًّا بالقضيّة الميؤوس منها: شيء أنت تؤيده أو تؤمن به ولم يعد بالإمكان الإيمان به إلا كشيء لا أمل أبدًا في تحقيقه ». ولكن، وخلافًا للبعض منّا، لم يؤمن سعيد ذات يوم بأن فلسطين هي « قضيّة خاسرة ». بل على العكس من ذلك، كان يؤمن أن للمثقّف التزام أخلاقي لا يلين: بأن يرفع صوته، جهارًا ودون مهادنة، ضد كل الاحتمالات والعوائق، وضد كل الميول والمسلّمات، وضدّ كلّ أجهزة الهيمنة، حقيقيّةً كانت أو متخيّلةً أو مزعومة. وشأن أدورنو، فقد كان يؤمن بالمفكّر المستقلّ وبكون مقدرته على التعبير كفيلة باستنباط النزعة الحيويّة، ونيّة التحدّي وإجهار التفاؤل لدى قرّائه ومستمعيه.

وذلك، حقًّا، مكان تجدر الإقامة فيه.

كاتب فلسطيني من فسوطة «يقيم» في ميشيغان

# مرحلة الأُسطورة: إدوارد سعيد (١٩٣٥-٢٠٠٣)

الجلوس بقرب جبل شامخ مهيب نعمة ملتبسة - إذ ينعم المرء في آن معًا بسخاء مراعيه ووفرة منحدراته، في حين لن يقدر إطلاقًا على رؤية المكان الذي يجلس فيه، وفي ظلّ أي عظمة، وإحساس شامل بالثقة والطمأنينة. فروعة الجبال - الهملايا والروكي والبرز مثلاً - لا يمكن رؤيتها إلا عن بعد، من المسافة الآمنة التي تسمح بإدراك بصريّ وحسيّ يعطي الشيء حق قدره ويثير شعوراً بالهيبة للموقع.

قلّة قليلة سعيدة، هي الآن متوحّدة ومنهارة، كان لديها امتياز نادر بإطلاق تسمية الصديق على إدوارد سعيد، وقلة أخرى أقل عدداً أطلقت عليه اسم الزميل، ومجموعة أصغر أطلقت عليه اسم الرفيق، وحفنة فقط أطلقت عليه لقب الجار، فكلّما اقتربتَ أكثر من إدوارد سعيد وجدت إنسانيته الدافقة، وبساطته الاعتيادية، وشخصيته العذبة الدمثة والجذّابة، ذلك إلى جانب كونه زوجًا وأبًا وعمًا وخالاً وابن عمّ، تتجمّع كلها وتلوّن تلك الجلالة التي تمثّلت به. ما زالت صناديق بريدنا الإلكتروني والرسائل الصوتية مليئة بكلماته الغالية، وبتعازيه في الوقت المناسب، وبحسّه الفكاهي وأسئلته العادية والنصائح التي لا تقدّر بثمن. جميعها أثمن بكثير من أن تُمحى، وذات الطابع الشخصي جداً التي تحول دون إشراك الآخرين فيها. كُنّا جميعًا كالطيور نحلّق فوق سخاء سقفه كهندباء رقيقة مبتهجة في ظل حديقته الخلفية، وكمخلوقات دقيقة الصغر ترعى في السفوح الخصبة لإدوارد الجبل.

أمير قضيتنا المقاتل الجبار، صلاح الدين حُجتنا في مواجهة أعداء مجانين، ومصدر سلامتنا العقلية في لحظات اليأس، وعزاؤنا في أحزاننا، وأملنا في إنسانيتنا، لم يعد موجوداً.

في غيابه الآن من السهل التذكُّر حينما كنتَ من دونه جزءاً من وعيك النقدي، ونزعتك الخلاقة، وحضورك في هذا العالم، بينما هو لم يقف من خلفك ليرقب كل كلمة كتبتها.

إذا كان تذكُّرك للزمن الذي عشتَ فيه دون أن يكون هو جزءاً مكمّلاً لك بمثابة مناورة في العبث الأركيولوجي، فالسبب حتماً يعود إلى المسافة والتناقض بين التمسُّك الشديد بالتعاليم والأساليب التقليدية المجولة للتعليم الذي تلقّاه جيلي من المثقفين المهاجرين وبين الثقة والشجاعة، اللّتين نستطيع بهما الصمود في وجه المصير الذي لا يُحتمل، يداً بيد مع إخوتنا وأخواتنا من مختلف الأعراق والأمم والعقائد والفوضى، لنقول: «لا»!

اليوم صارت هناك وحدة هدف بين مجموعة من الثوار والمتمرّدين، ومن بيننا من هم من الأغيار ومن اليهود، مسيحيون وملحدون، هندوس ومسلمون، ومنّا الكفار واللا أدريون، أبناء بلد ومهاجرون ينطقون بالحقيقة مع صوت إدوارد سعيد لتقوية صدى جوقتنا هذه. كيف جئنا إلى هنا وهل كنّا نسمع بواسطة أُذنيه، ونرى بواسطة عينيه، وننطق بواسطة لسانه؟ سؤال القصد منه ليس تسجيل رقم قياسي تاريخي، إنما التحلي بشجاعة أخلاقية.

والآن في لحظة أسطورته، عندما تركنا إدوارد سعيد وشأننا وانضم إلى آلهة اللحظات الأسطورية، آن الأوان لأن نحصل، كما قال هو مرّة، على مسحٍ من نمط غرامشي للمكان الذين نقف فيه مرة بوجوده، والآن من دونه. اليوم أصبح العالم فجأة وفي وقت واحد أفقر بغيابه وأغنى من خلال ذاكرته. وفي ذلك التناقض بالذات تكمن بذور انشقاقنا، وبشير مستقبلنا، ووقار قسمنا في الموقع المقدّس لنعشه.

184

أتحدّر من جيل من المثقفين المهاجرين الذين ينسبون أصول فكرهم النقدي ونزعته إلى نشر كتاب «الإستشراق» لإدوارد سعيد (١٩٧٨). فصورة شخصيتنا النقديّة، وصوت معارضتنا، وصيغة سياستنا، وبالذات النزعة الخاصة بجرأتنا، جميعها متجذّرة في كل ركن من أركان ذلك الكتاب الملْهِم. كان ذلك في عام ١٩٧٩ الذي حدثت فيه الثورة الإيرانية، بعد أقل من ثلاثة أشهر على نشر «الإستشراق»، حينما كان صمويل كلاوزنر، الذي درّسنا موضوع النظرية وأسلوب التطبيق، أول من عرّفني على ذلك الإنجاز المذهل وبأسلوب عادي للغاية. كنت حينها طالبًا في مرحلة الدراسات العليا في جامعة بنسلفينيا، أستعد لإنهاء تخصُّصي المزدوج في موضوعي سوسيولوجية الثقافة والدراسات الإسلامية. من خلال قراءتي لـ «الإستشراق» (وبالأحرى استنشاقي له ملء رئتيّ دفعة واحدة، جرعة تشفي الغليل شربتها ككوب من عصير الليمون الطازج في يوم قائظ) شعرت أنني قرأت كل ما كتبه كارل ماركس وماكس شيلر وماكس ويبر وجورج هيربرت ميد حول سوسيولوجية المعرفة. ما طرحه إدوارد سعيد في «الإستشراق» جاء مباشرة من زاوية سوسيولوجية المعرفة، لكن في الوقت ذاته من خلال رؤية شاملة، وبخيال جريء متحدٍّ، واندفاع واثق أذكر أنه جعلني أشك بما تراه عيناي وأنني كنت أقرأ تلك الكلمات

بذلك التتابع الدقيق للمنطق والبلاغة.

كان أبناء جيلي من المتخصّصين في علم الاجتماع في بنسلفينيا بدأوا في أواسط عقد السبعينيات الماضي بدراسة ميشيل فوكو بشكل منهجي وبالأحرى من خلال منهاج غير عادي، نظراً لأن قواعد الانضباط لعلم الاجتماع ارتهنت بشكل سريع لصالح سياسة بحث ديموجرافية مموّلة فدراليًا، وهو تدنٍّ لولبي في المستوى لم تتعافَ منه تلك القواعد الرائدة أبداً. لكن في ذلك الوقت في بنسلفينيا كان كل من فيليب ريف وديجبي بالتزل وصمويل كلاوزنر وهارولد بيرشادي وفيكتور ليدز وفريد بولوك منظّرين ذوي توجّه شامل نسبيًا في اهتماماتهم السوسيولوجية. كتبت أطروحتي للدكتوراة تحت إشراف فيليب ريف للجوانب السيوسيولوجية، والمرحوم جورج مقدسي للجوانب الإسلامية. لكن البذور التي بذرها في الوعي النقدي لديّ ذاك الكتاب، «الإستشراق»، لم تبرح ذهني وأفكاري بعد نهاية ذلك الفصل الدراسي عام ١٩٧٩، حينما قرأناه مع صمويل كلاوزنر في تلك الغرفة الصغيرة ذات الضوء الخافت الواقعة في الطابق الخامس من بناية «ماكلين» في «شارع لوكوست» داخل حرم جامعة بنسلفينيا، تماما في خضم أزمة الرهائن في إيران، حينما كنت أسمع جوقة من طلاب جامعة بنسلفينيا يصرخون بصوت واحد: «إضربوا إيران بالصواريخ الذريّة، شوّهوا الإيرانيين».

185

غياب



فلو سحبت «الإستشراق» من تلك المناهج، وإدوارد سعيد من وعينا، لأصبح أبناء جيلي من المثقفين المهاجرين مجموعة من ذوي النفوس المحبطة الميّالة للسوداوية المزمنة، أو ربما الطروحات الفظيعة، ممن يتحولون بشكل محزن إلى نوع من المخبرين المحليين يبيعون ضمائرهم لسلاطين لا ضمير لهم في واشنطن العاصمة أو لأبواث خرفين في جامعة برنستون.

قبل «الإستشراق» لم يكن لديّ أدنى علم بأعمال إدوارد سعيد في النقد الأدبي وبقيت غافلاً عنها كليًا لسنوات بعد تخرُّجي. فهذا الكتاب هو الذي حال دون مواصلة أُسلوبي في التفكير والكتابة حول التاريخ الحديث أو الوسيط للثقافة الإسلامية أو الإيرانية. منذ تلك اللحظة انطلقت حالاً في رحلة مهنية وذاتية وأخلاقية وثقافية، قادتني فعليًا إلى عتبة بابه في حرم جامعة كولومبيا حيث أعمل الآن في التدريس. لن أنسى حتى آخر لحظة في حياتي ذلك المكان بالضبط بمحاذاة «مسرح ميلر» عند ملتقى «شارع رقم ١١٦» مع «برودواي» حيث التقيت إدوارد للمرة الأولى واقتربت منه وعرّفته على نفسي فجاءت تحيّتي له بصوت طليق حاملاً نبرة عرفان بالجميل.

إكتشفت إدوارد سعيد في البداية من خلال «الإستشراق» وفيما بعد من كتاباته عن

فلسطين، ومنها إلى ملاحظاته التي حطّمت قيودي حول الثورة الإيرانية، ومن هناك بدأت في شبه حملة يسوعية بقراءة كل كتاب ألفه وغالبية الابحاث والمقالات التي كتبها، اقرأها المرة تلو المرة كطالب مواظب على تحضير امتحانه لشهادة الدكتوراة، قبل فترة طويلة من بدئي إعطاء امتحانات للدكتوراة.

واليوم، لا شيء يهمّني من الأمور التي لا تُعدّ ولا تحصى والتي تعلمتها من إدوارد سعيد أكثر من فصاحة صوته الحماسية كذلك الهيبة والثقة والشجاعة والاندفاع والاتزان في خطابه، التي من دونها لكان أبناء جيلي من المثقّفين المهاجرين ظلّوا تحت رحمة المرتزقة من الأكاديميين والصحافيين المتواطئين الذين اغرقوا قنوات وسائل الإعلام الجماهيرية، وهم ينفثون علوم أمراضهم بلهجات عربية وفارسية او جنوب آسيوية ثقيلة، ويتكلمون في الوقت ذاته بلهجة الجمع «نحن» المثيرة للغثيان والمنحازة إلى المهندسين المفلسين لهذه الإمبراطورية الضّارية. فبصوت إدوارد سعيد وموقفه العقلي الفخم والثقة العميقة المتّسمة بالأُبّهة ارتفع صوتنا المتقطع حتى درجة الصمت وخطابنا الهشّ فجاة.

من خلال إدوارد سعيد عثرنا فجاة على رفاق لم نكن نعرفهم من قبل، أصدقاء وعائلات لم نشكّ أبداً انهم من حيّنا. فجاة أصبحت آسيا وأفريقيا وامريكا اللاتينية عن بعد امتداداً لبيتنا. من خلال إدوارد سعيد اكتشفت خوزيه مارتي، مثلما اكتشفت كوجين كاراتاني وتشينوا أتشيبي وإقبال أحمد وطارق علي وراناجيت جوها وغياتري سبيفاك وشيماس دين وماسو ميوشي ونغوجي وا ثيونجو. مما جعلنا نفهم بشكل جديد جميع من كنّا نعتقد أننا نعرفهم، إيمي سيزار وفرانتس فانون ومهاتما غاندي ومحمود درويش وناظم حكمت وڤلاديمير مايا كوڤسكي وفايز أحمد فايز.

ومع بدء لون بشرتنا بالتشويش على الخط الفاصل المرسوم بشكل استبدادي بين اللونين الأبيض والأسود في الولايات المتحدة – نحن الآسيويون وأبناء أمريكا اللاتينية والعرب والأتراك والأفارقة والإيرانيون والأرمن والأكراد والأفغان وأبناء جنوب شرق آسيا، المعزولون في أركان خاصة لثقتهم الموضوعة في غير مكانها حول هويتهم العرقية – تجمّعنا حول ما هو أبعد من القاسم المشترك لأصلنا، ألا وهو نيل مصافحة إدوارد سعيد، نحو تضامن أهدافنا الواضحة.

لسنين عدة، بعد مجيئي إلى جامعة كولومبيا، لم أكن قادراً على التوفيق بين إدوارد سعيد العام والأسطوري والأيقوني، وإدوارد الذي تزايدت معرفتي به وصداقتي وتضامني معه ومرافقتي دربه. بدا كان هناك إدوارد سعيد العظيم بالنسبة للعالم، إلى جانب إدوارد آخر لقلة قليلة محظوظة. لم يكن التوفيق بين الإثنين مستحيلاً تماماً، فكلاهما طرح سؤالاً

ومسافة ينبغي اجتيازها. إذ كيف يمكن لمخلوق بشري بهذا الضعف والهشاشة والانفتاح أن ينحت لنفسه هذا النصب الشامخ والمجازي والرمزي.

قبل عامين، عندما افترى عليّ مشعوذ مغمور في إحدى صحف الإثارة في نيويورك وأقام موقعًا إلكترونيًا فضائحيًا ليشوّه موقفي المعروف ضد الفظائع الإجرامية التي يؤيدها هو ذاته، غصّ صندوق رسائلي الصوتية برسائل تهديد عنصرية قذرة، من الجماعات المتطرفة التي استُثيرت ضدي. ووسط هذه القذارات تمامًا كانت هناك رسالة من إدوارد سعيد، نسمة ريح صافية ومنعشة ومفرحة ومطمئنة وباعثة على الحياة: «حميد، عزيزي، أنا إدوارد..». فجأة أصبحت الحياة جميلة بشكل مدهش. كنت أعيد الاستماع إلى تلك القذارات فقط من أجل الاستمتاع بالوصول إلى رسالة إدوارد. كان هناك شيء من العناية الإلهية في صوته، كان يحيي الأمل في الإنسانية. واليوم في أثناء جنازة إدوارد، كانت القلة المفجوعة قادرة من فوق بساط الرحمة المفروش فوق نعش إدوارد على رؤية شعاع آخر يحيي الأمل، حينما عزف دانييل بيرنبويم بشكل هادئ مقطوعة لباخ من الجزء الأول لسمفونية «الأرغن حسن التهذيب»، تحية موسيقية لصديقه المتوفى.

ورأى الذين شاهدوا هذه الأعجوبة أن الوداع العاطفي لقائد الفرق الموسيقية لم يعد مجرد عازف بيانو يعزف قطعة موسيقية عذبة، بل كانوا شهودًا على دانييل بيرنبويم وهو يتحدث لآخر مرة إلى إدوارد سعيد باللغة التي اختاراها وامتازا وتفوقا بها.

كان إدوارد تجسيدًا للأمل يمشي على قدمين تجلّى ذلك من خلال حادث استثنائي وقع لأناس عاديين جدًا كانوا قريبين عن طريق الصدقة منه وكانوا بحاجة لومضة فوق العادة فعثروا عليها. منذ سنوات عندما أجريت لي عملية جراحية في القلب، في حين تم تشخيص إصابة صديقتي وزميلتي في العمل ماجدة النويحي، التي رحلت فيما بعد، بسرطان المبيض، كان إدوارد رائعًا في مساندته: كان يزورنا بشكل دائم، ويبعث لنا بكتبه ومقالاته الجديدة، ويقرأ مسوّداتنا، متهكّمًا على ما سمّاه «ما بعد الحداثة» لدينا. كان صدىً لضحكاتنا، ولونًا لابتهاجنا، وتجسيدًا لأملنا. صارعت ماجدة ورمها الخبيث لسنين طويلة إلى أن بلغ أطفالها سن الرشد. أما أنا فتحدّيت المصير الذي خلقت إليه وواصلت العيش. كان إدوارد هو النموذج الذي احتذينا به لنقدر على التحمّل، ومقياس صدقنا، ومغزى جرأتنا على الدخول إلى صفوف الدراسة.

كلما اقتربت أكثر من إدوارد سعيد بدت مستحيلة أكثر معرفة كيفية تكوين شخصيته البطولية بهذه المقاييس الأسطورية تمامًا. ففي هذه المرحلة كنت أصبحت قريبًا جدًا من الجيل، مطوقًا بنعمته وغافلاً عن جلالته. وبشكل عام، فحتى السيرة الذاتية التي نشرها

إدوارد سعيد لا تُعطي صورة مختلفة كثيراً عن ذلك. عبثاً يقرأ المرء كتابه «خارج المكان» الصادر عام ١٩٩٩ بحثاً عن دلالة أو ترتيب زمني تاريخي أو نفسي للاسباب والآثار المترتبة عليها، ولمدى أهمية الاحداث ونتائجها بالنسبة لحياة أخلاقية بهذه الضخامة. لكن كل شيء يتعلق بإدوارد سعيد كان بالأحرى عادياً، إنما في الوقت ذاته نسجت من الاحداث الواقعية لهذه الحياة بالذات مغامرة غير اعتيادية.

ولد في فلسطين عام ١٩٣٥ وسمي إدوارد نسبة لأمير ويلز، وعاش حياته في المنفى مثل الملايين الأخرى من الفلسطينيين في العالم العربي. أرسل في بعثة إلى معهد جبل حرمون في نيو إنجلاند بالولايات المتحدة ولاحقاً إلى جامعتي برنستون وهارفارد لمواصلة تحصيله العالي، من دون أن يسجل أي حدث غير عادي يمكن للمرء أن يشخصه ويحلله ويُنظّر فيه على أساس أنه كان لحظة مصيرية حاسمة في بناء الشكل الأسطوري الذي نحته إدوارد سعيد لنفسه حتى وفاته المبكرة. كان إدوارد رجلاً عادياً، وعملاقاً قطع مسافة العمر كله بمجد خياله الجريء، لا غير.

التعرُّف على إدوارد سعيد شخصياً كان بحد ذاته عبارة عن دراسة في كيف يُصنع الأبطال من لحم ودم الواقع الأكثر اعتيادية للحياة والقابل للفناء. فلسطينيٌ، منفيٌ، مثقف أكاديميٌ، معلم، أستاذ علوم، زوج، أب، صديق: لا شيء من هذه الأدلة المشتركة والوافرة لعالم مفكك يمكن أن يحسب في المحصلة النهائية لإدوارد سعيد كشخصية متسامية تطابق بالضبط التعريف الدقيق للحياة الأخلاقية.

«هل كنت تعرفين البروفيسور سعيد؟» سألتُ تشايلين ديفيز هنا في كولومبيا في أثناء بحثي عن مكان لمريم سعيد لتستقبل سيل المعزين يوم الجمعة اللاحق لوفاته. قالت «كلا، لم ألتق به أبداً»، وأضافت «لكنني أعرف أنه كان مقاتلاً»، وحدّقت بي بعينين تقدحان شرراً وأردفت قائلة «من أجل العدالة». فيما وصف زميل آخر وفاة إدوارد بأنها كانت «أشبه بنور ينطفئ في حرم الجامعة».

وإن كان لا بدّ من مكان ما للبدء بالتقاط تفاصيل الحياة الاخلاقية والثقافية لإدوارد سعيد ووضعها سوية مع بعضها البعض، فذلك لن يكون في تذريات حياته في المنفى التي يشترك فيها مع ملايين آخرين، من فلسطينيين وغيرهم، بل شعرية رفضه الخلاّق لهذا المصير حيث كان قادراً على استيلاد ذاته بشكل مستمر. لدى وفاته، كان إدوارد سعيد تفويضاً أخلاقياً، وانفجاراً بركانياً لحياة لم تذهب عبثاً وتهدر بأحداث لا يؤدي تراكمها لأي شيء. كان المنفى نصيبه فحوّله ظافراً لثمرة حياته، تلك الهدية التي قدّمها إلى عالم وجد نفسه الآن مُلقى فيه بشكل دائم في رحيل اغترابي مع ذاته.

في « خارج المكان » يمكننا العثور على بضعة مواقع تكشف عن التسلسل الإبداعي لمثل هذه اللحظات أفضل من تلك الواردة في الفقرة الختامية للكتاب . فالسيرة الذاتية لسعيد، مثل حياته، يجب ان تُقرأ من نهاياتها لا من بداياتها . فهو يقول « الارق بالنسبة لي حالة متأصّلة مرغوبة باي ثمن» ( ص ٢٩٥ ) . ظل مستيقظاً في حين ذهب العالم إلى النوم، الضمير القلق للعالم، المدرك للحكمة مثل منيرفا، والمراقب بعينين واسعتين ساهرتين أشبه بطائر البوم، يقظاً، يرى كل شيء ويسمع كل شيء . ويضيف « لا شيء منعشاً أكثر بالنسبة لي من الإسقاط المفاجئ لشبه الوعي الضبابي بخسارة ليلة من الليالي سوى ساعات الصبح المبكر، حيث أتعرّف او ابدأ بالتعرّف على ما قد خسرت كلياً في الساعات القليلة الماضية » .

فهنا، عند حدود الشفق للوعود المتكررة بإشراق ضوء جديد في مقابل الإصرار الوقح للظّلمة، عندما يظهر ان أكثر لحظات يأسنا حلكة ينبغي ان تستسلم لآمال براقة أكثر، تجد دائماً إدوارد سعيد ينتظرنا جميعاً لنصحو ونصل . فهو يقول « مع ذلك القدر من الأمور الكثيرة المتنافرة في حياتي، تعلّمت عملياً الا اكون خارج المكان تماماً » . وهنا بالذات أعتقد ان إدوارد سعيد وضع قضيته وترك بصماته التي لا تُمحى علينا جميعاً، فيما نحاول كما نفعل الآن، ان نكمّل بعضنا بعضاً بمثابرة بينما نحن ما نزال غير مكتملين إنسانياً . وهذا هو في نظري السبب الأساس في ان ذلك الحشد الكبير من الناس الذين يختلفون بطبيعة الحال عن بعضهم البعض سياسياً وايديولوجياً بشكل عميق أحبوا إدوارد من دون ان يتناقضوا مع انفسهم او حتى معه . كانت روحه عفوية، أنتج النوايا الحسنة والاهداف الأخلاقية ودعمها على أساس نبض المقدمة المنطقية المتوفّرة لديه، لا على أساس المثالية المتخيّلة لحقيقة غيبيّة معيّنة .

ومما جعل إدوارد سعيد سامياً أنه حتى في عزلته الكلية لم يكن ابداً لوحده . فدائماً كان يتحدث عن إمكانية ضعيفة لعيش حياة بعيدة عن كل التوقُّعات، أشبه بداود رشيق يلوّح بمقلاعه قاذفاً حجارته ضد جُليات، ذلك العالم الغارق بلا رحمة في منطق جنونه الخاص، إذ أصبح الصوت الاخلاقي لشعب، وجعل من المصير المأساوي لذلك الشعب مأساة من نوع عالمي أصبحنا بها جميعاً فلسطينيين مشرّدين . تمثّلت فضيلته بتحويل رذائل عصره إلى مناسبات خطيرة من أجل المزيد من الخير العالمي الذي هو ابعد بكثير من خصوصية هذا الخطأ او ذاك . فامتازت معرفته المحطِّمة للقيود بشموليتها، واستقامته الاخلاقية بضخامتها، التي تخطّت الحواجز بسهولة، وتفوّقت على جميع الادّعاءات الإقليمية للاصالة . كان على الدوام، تماماً مثلما قال، خارج المكان قليلاً، لكن هذا الأمر ابرز الخطأ في ذلك المكان

الذي لم يقدر أن يستوعبه كلياً بمجموع شخصيته وثقافته.

بترائه، خلق سعيد من الحالة الخاصة التي منحه العالم إياها في ولادته فضيلة كونية. ولد في فلسطين لكنه حُرم من حقوق أجداده في تلك الارض، تربّى في مصر لكنه ذهب إلى مدارس تقدم تعليماً بريطانياً كولونيالياً، أُرسل إلى الولايات المتحدة على خطى والده لتجسيد جزء أكبر ودائم من حلمه الامريكي لكنه وجد نفسه مدفوعًا باستمرار لقول الحقيقة عن تلك الكذبة في وجه القوى المسيطرة عليها، وحوّل سعيد حتمية مصيره إلى لحظة حاسمة بالنسبة لمنزلته الرفيعة كشخصية أيقونيّة لجيل كامل من الأمل في وجه ثقافة كاملة من اليأس.

كانت حياة إدوارد سعيد ومحصّلتها المباشرة جداً بمثابة شهادة بليغة لشعب أصيب تاريخياً بخبث وعومل بوحشية. ولا يمكن لا بل ينبغي الا تسلب تلك البداهة من حياته وترائه. فإدوارد سعيد تحدث أولاً وقبل كل شيء كفلسطيني، فلسطيني مسلوبة منه حقوقه في تراث أجداده، مشرّد، ومحروم من حقوقه الطبيعية كإنسان. فالاعتيادية التي تمثّلت بها روايته – خاصة في تلك اللحظات التي تحدث فيها بانفتاح وصراحة وبراعة عن أيام صباه وحداثته، وخصوماته مع أبناء عائلته وأقربائه، وبدء نضوجه الجنسي والأمور الأخرى الشبيهة – هي بالضبط ما يعيد الكرامة لشعب جرى تشويهه بواسطة حملة دعائية مقصودة ومتواصلة، لتجريده من إنسانيته وسلب وطنه منه في وضح النهار وعلى مرأى من التاريخ. ولا يمكن لأي تقييم لإنجازاته كمعلم وناقد وأستاذ علوم، وأي مصادقة مادحة على فلسفته الإنسانية الشاملة، وأي تقدير له عن جدارة تامة كموسيقار وكاتب مقالة ومنظّر ونشيط سياسي وما شابه – أجل، لا شيء يمكن أن يُنقص من تسامي أهميته كفلسطيني جرحه عميق نتيجة المصير الذي لاقاه، ذلك الذي سمّاه بإخلاص ومثابرة «شعبي».

190

غير أن إدوارد سعيد، رغم تباهيه بفلسطينيّته، لم يكن فلسطينياً فقط. فهو تحوّل أيضاً إلى أيقونة ونموذج أخلاقي في عصر أصبحت فيه الأعمال اليائسة تلقي الشك حول أي إمكانية لصوت أخلاقي، وهنا بالذات تمكّنت الاعتيادية في حياته من خلق ذلك الصوت غير الاعتيادي القادر على التحمّل أكثر. لم يكن سعيد فلسطينياً فقط، لكنه جعل أي شخص آخر يظهر كأنه فلسطيني: أصبح مشرّداً على يد المنطق المجنون لتلك اللُّعبة الوحشية للقوة التي سلبت العالم كله من أي مظهر للبقاء.

إن البقاء على الدّوام صوتاً أخلاقياً في عالم زائل أخلاقياً، وتحويل المظهر الخارجي للتغيّرات العالمية المشوهة إلى حقيقة بمقاييس مهذبة، وتفكيك القوة الناتجة عن المعرفة

المزيفة والتأكيد في الوقت ذاته على انه لا يصحُّ إلا الصحيح وأن الحقيقة جميلة، ذلك هو تراث إدوارد سعيد، من رأس ذلك الجبل، بقمته المهيبة التي يمكن رؤيتها عن بعد، وإلى أسفل منحدرات مراعيه الوافرة، الذي حظيت قلّة محظوظة فقط من الاشخاص باعتباره موطناً لها.

نقلها عن الإنجليزية: الياس نصرالله





رئيس كرسي هاكوب كيفوركيان في قسم لغات الشرق الأوسط وآسيا
وحضاراتها ومدير الدراسات العليا المتخصصة في مركز الأدب المقارن والمجتمع
في جامعة كولومبيا/ الولايات المتحدة الأمريكية

فـريـال جـبـوري غـزّول

# إدوارد سعيد مُعلِّمًا

عندما التحقتُ لأوّل مرّة في الدراسات العليا في جامعة كولومبيا، في مطلع السبعينيّات، سجّلت في كورس كان يقوم بتدريسه إدوارد سعيد. ومنذ ذلك الحين لم انقطع عن التسجيل والإلتحاق بكل كورس أو سيمينار درّسه إلى أن انتهيت من دراسة الدكتوراة وغادرتُ نيويورك.

كان إدوارد سعيد محاضراً منقطع النظير. كانت محاضراته اداءً اخاذاً تجتمع فيه عناصر الدراما من تكثيف وتشويق ومن تحفّز وترقّب لتنتهي بالتنفيس الختامي. إنّ موسوعيّة إدوارد سعيد وبراعته اللفظية الفائقة ورؤيته العميقة النافذة وراديكاليته النابعة من ضمير حيّ جعلت منه – في عيون طلابه – بطلاً ونموذجًا يحتذى. ولكن إدوارد سعيد رفض أن يرتدي بردة الأستاذية، ولم يستسلم لغواية التبجيل والنجوميّة. فلم يكن يستسيغ المريدين وكان يضيق ذرعًا بالاتباع. فقد كان يريدُ لكل طالب أن يزدهر وهو يستكشف صوته المتفرّد ويرسم معالم مسيرته الخاصّة به ووفق رؤيته المستقلة. ويمكنني أن اشهد على ذلك في مجال إشرافه على الطلبة. فقد أشرف إدوارد سعيد على رسالتي للدكتوراة ومنحني قدرًا وافرًا من حرّية التصرّف والإجتهاد، مع إصرار على الإلتزام الصارم بقواعد البحث كي ينتهي العمل بإنجاز أُطروحة علميةً ذات قيمة.

وكانت الدراسة مع إدوارد سعيد مسألة تتجاوز تعلُّم الشعر الإنجليزي والأدب المقارن والنظريّة النقدية. كانت الدراسة معه أشبه بمكابدة اكتشاف إمكانياتنا وتحقّق طاقاتنا الكامنة. فكان يستحثّنا بلا هوادة ويلاحقنا بلا رحمة كي نصقل موهبتنا ونشذّب أُسلوبنا ونجوّد في عملنا. وما زلتُ أذكر كيف بكيتُ يومًا عندما وصفني سعيد، بنبرة إدانة في صوته الغاضب، بقوله «أُمّيّة!» لانّني لم اعرف من هو ڤيكو (Vico) ومن هو ڤارو (Varro). فبالنسبة له كان ڤيكو وڤارو أساسيّين ومألوفين، لعبا دورًا في تأمّلاته اليوميّة. وكي «أمحو أُميّتي» – في نظر إدوارد سعيد – سارعتُ إلى مكتبة جامعة كولومبيا بحثًا

عن كتب هذين المفكّرين لأصبح بعد فترة مأخوذة بفكر غامبيتيستا ڤيكو، الوجه الأوروبي لمفكرنا ابن خلدون. أصبحت أسيرة ڤيكو من فرط إعجابي به، مثلما كان أستاذي.

أن تكون طالبًا لإدوارد سعيد كان يعني أن تكون مهيّأً لمعايشة انفعالات قصوى وهواجس متضاربة. فطريق البحث في ظلّه شاق ومحفوف بالمخاطر والمتطلّبات الصارمة من ناحية، ومن ناحية أخرى محفّز ذهنيّ يمنحك نشوة الإجتهاد ومتعة الإدراك. لقد كان سعيد يستنفر طلاّبه باستمرار، مرسّخًا فينا قيم الإستقامة الفكريّة. ولعلّ أهم ما تعلّمنا من دروسه هو أن بإمكان الحقيقة أن تواجه السّلطة، وعليها أن تُناهض سطوتها. فقد علّمنا أن البحث الدراسي هو الوجه الآخر للعمل الناشط من أجل النهوض بالمجتمع، وأن على البحث العلمي أن يُعبّر عن المقهورين والمعذّبين في الأرض.

لم يعلّمنا إدوارد سعيد عن طريق الخطب والمواعظ بل عن طريق الفعل والتمثّل. لقد انشغل العقل الإنساني بعلاقة الكلمة بالأشياء والدال بالمدلول منذ أفلاطون، وفي العالم العربي تركّز الإهتمام – وخاصة في زمننا هذا – على علاقة الكلام بالأفعال. وينمذج لنا فكر إدوارد سعيد النقدي قيمة الكلمة التي لا تعني فحسب وإنما تدفع إلى العمل وتُحرّض عليه. لقد ربط إسهام سعيد الفكري باستمرار بين النص وسياقه في العالم، بين المتخيّل وإطاره في الحياة، وبين الأدب وما يجري على أرض الواقع.

هناك ميزان عدل غير مرئي – بكل ما توحي به العدالة من دلالات أدبيّة وأخلاقيّة واجتماعيّة – يتخلّل كتابات إدوارد سعيد، ويتضافر مع حميميّة مدهشة وآسرة مبثوثة في ثنايا أعماله.

وأمّا فيما يخصّ ڤارو، فقد قال كانتليون (Quintillian) عنه «إنّه أكثر الرومان ثقافة»، وبالمقارنة يمكننا القول عن سعيد بأنه «أكثر المثقفين توهّجًا».





باحثة عراقيّة، محاضرة في الجامعة الأمريكية في القاهرة / جمهورية مصر العربية

الياس خوري

# إدوارد سعيد أول العائدين

## وُلدت فلسطين في العالم تحت قلمه

في الأمس عندما مات إدوارد سعيد، تعلّمتُ أن أقرأ الدموع. فقد علّمنا هذا الكاتب كيف نقرأ الأدب والفن والثقافة، لكنه ترك الدرس الأخير ليومه الأخير. العيون تقرأ العيون، والدمع يقرأ الدمع. ونكتشف في هذه القراءة أن الحياة كتاب مفتوح على الحياة، وأن الكتابة تعلن استمرار الحياة داخل الموت نفسه.

في الأمس عندما مات إدوارد سعيد، اكتشفتُ كيف صار الجسدالذي رقّ، جزءاً من الأبجدية التي كتبها. الجسد حروف وكلمات ورحلة في المعاني وسفر في المعرفة. لم يستسلم إدوارد سعيد أمام الموت. قاومه بالكتابة والنضال والإرادة. وحين أغمض عينيه لم يغمضهما يأساً بل رأفةً. هو أشفق على الموت وقرّر أن يذهب من أجل أن يثبت له أن معركته مع الحياة باطلة. فالكاتب، حين يموت، يستمر في الحياة داخل العيون التي تكتب بالقراءة، وتصنع المعرفة والخيال.





في الأمس، عندما مات إدوارد سعيد، سقط الغصن الأجمل في زيتونة فلسطين. غصنٌ وُلد في حي الطالبية في القدس عام ١٩٣٥، وعاش في القاهرة وأقام في ضهور الشوير، وكانت نيويورك مكان عمله وإبداعه. هذا الغصن المتلالىء معرفةً وذكاءً والمعيةً، هو الأجمل. لأنه كان فلسطينياً باختياره. فقد اختار فلسطين لا لأنها وطنه بل لأنها الضحيّة. واختار العرب لا لأنهم قومه بل لأنهم يواجهون ظلم القوى الاستعمارية وظلام الديكتاتوريات العاتية. صار فلسطينياً عندما تحوّلت فلسطين عنواناً للحرية. وصار عربياً لأن الفكرة العلمانية التي كرّس لها الكثير من أعماله، تعاني الحصار في أرض العرب المحاصَرة.

في الأمس، عندما مات إدوارد سعيد، ظهرت صورة المثقّف كما رآها. فهذا الأكاديمي الذي درس الأدب ودرّسه، اكتشف أن المعرفة سلاح وقوة، وأن معركة المثقف هي أن يضع معرفته وعلمه وقدراته في خدمة الحقيقة، وفي مواجهة السلطة.

المثقف الحرّ، المستقل، النقدي، الذي لا يحترف سوى الضمير ولا يخضع لأي سلطان سوى سلطان العقل والمعرفة والحق.

نفتخر بإدوارد سعيد، ويحقّ لنا أن نفعل. فلقد خلق هذا المثقف حيّزاً للثقافة العربية في العالم، وحرّرها من إقليميتها وحارب عناصر انغلاقها. نفتخر به لأنه استطاع أن يصل إلى قلب الثقافة العالمية، ويكون أوّل مثقف عربي حديث يستطيع أن يكون فاعلاً ومؤثراً.

لا يمكن تلخيص إدوارد سعيد بمقالاته السياسية. فهذه كانت تعبيراً عن مواقفه والتزاماته الآنية. عالمه الشاسع يمتد من نقد الإستشراق إلى نقد الثقافة والامبريالية، ومن جوزف كونراد إلى البحث عن البدايات، ومن الموسيقى إلى قراءة الأدب العربي المعاصر. كاتب موسوعي ربما كان إلى جانب صديقه بيار بورديو، آخر أكبر المثقفين في الغرب. كلاهما اعتبر الثقافة سلاحاً في وجه الظلم، وكلاهما قام بنقد جذري للثقافة السائدة.

نفتخر به لأنه ذهب إلى الغرب وحقّق إنجازاً أدبياً وعلمياً كبيراً. لكننا ننسى أن الأهم من الذهاب كان قرار العودة الى الوطن. بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧، قرر إدوارد سعيد العودة، وكان في قراره ذاك الفلسطيني الأوّل الذي يمارس حق العودة على المستوى الرمزي.

لم تكن عودته بحثاً عن الهوية لأنه ينتمي إلى فكرة الهويات المتعددة ويعيش على تخوم أكثر من ثقافة ويسعى إلى عالم متعدد الانتماء والثقافة. عودته كانت رمزاً لارتباط البحث عن الحقيقة بالدفاع عن الحق، لذا لم يفهم الكثيرون معنى انتماءاته المتعددة التي صار لها إسم واحد هو فلسطين، مثلما لم يفهم الكثيرون معاركه الفكرية والثقافية والسياسية.

كتب إدوارد سعيد كثيراً عن المنفى، لأنه كان يسعى إلى تحرير المنفيين ومقاومة الظلم. لذا وُلدت فلسطين في العالم تحت قلمه وصارت وطناً لكل المنفيين واللاجئين والفقراء والشرفاء. كأنّما جسّد في سيرته وأعماله الوجه الآخر للوطن. هناك داخل السجن الإسرائيلي كان محمود درويش وإميل حبيبي يصوغان لغة الوطن. وهنا في المنفى كان غسان كنفاني يتلمّس حكاياته. وهناك في أمريكا كان إدوارد سعيد يبنيه في وصفه ذاكرة الجريمة وحلم العدالة.

بإدوارد سعيد اكتملت فلسطين وصارت وطناً يتّسع لجميع الاحرار في العالم. مثقف جمع النقاء إلى النبل، والشجاعة إلى الحكمة. عاش بين إسمين ولغتين وعالمين، وكان يترجمهما ويكتب فيهما إسم ذاك الوطن الضائع، وتلك المدينة المسوّرة بالحقد، ساعياً إلى بناء قدس الإنسان، حيث المقدّس الوحيد هو الألم الإنساني والتوق إلى الحرية.

ثلاثة أصدقاء التقوا في أمريكا، كان إدوارد سعيد أصغرهم وأكثرهم توتّراً. الأول إبرهيم أبو لغد. ولد في يافا ومات في رام الله ودفن على ضفة بحر المدينة التي غادرها شاباً وعاد

إليها كي يمتزج بترابها. الثاني من باكستان ويدعى إقبال أحمد. قاتل في الجزائر ومن أجلها، وكتب وحاضر في أمريكا دفاعًا عن فلسطين والعالم الثالث، ثم عاد إلى وطنه كي يموت فيه. الثالث إدوارد سعيد. ولد في القدس وأنهى دراسته الثانوية في القاهرة وعاش في نيويورك وأشعل الإنجليزية بادبه ونقده ورؤيته وفلسطينه.

كان إدوارد أول العائدين إلى بلاده وثقافته، وكان الأكثر رؤية وجذرية ونقدية وتوقُّداً ووجداً. أحبَّ الحياة وهي احبَّته. اعطاها وهي اعطته. وكانت الامكنة كلها له لانه كان «خارج المكان».

الحبيب، الجميل، النزيه، المتوقِّد. اغمض عينيه في نيويورك وقال للمرض أن يحلّ عنه لأنه ذاهب إلى حيث يموت الأطفال والنساء والرجال بنيران العنصرية الإسرائيلية التي لا ترتوي من الدم.

في خضمّ اللهيب الذي ضرب الجسد وشلّه، كانت عيناه طليقتين. يفتحهما على الأفق ويغمضهما على الأعماق. كانت الكتابة الأخيرة بأحرف الضوء والعتمة.

وكان صديقي إدوارد يعود إلى الأول. إلى حيث يستمع إلى نداء أمه داعيًا إياه إلى معانقة الموت.





روائي وكاتب مقالة لبناني مقيم في بيروت / لبنان

هاني حلمي حنفي

# النقد المُعارض، أو المقاومة الثقافية لسلطة التّعمية

لا يتّسع المجال هنا لتناول الإنجاز الفكري والنقدي الثري والغزير للراحل إدوارد سعيد بالتفصيل أو العمق اللذين يليقان به. فما كُتب عن أعماله في الغرب من مناقشات وسجالات جدّ غزير ويحتاج لقراءة فاحصة ومناقشات مستفيضة.

ما أود الإشارة إليه هنا في إيجاز هو أهمية منجز إدوارد سعيد في سياق الأكاديمية الأمريكية بشكل خاص والنقد والفكر الغربي عمومًا، والذي قد يغيب عن جمهور القُرّاء العام الذي ارتبط اسم إدوارد سعيد لديهم بمقالاته المتنوعة الموضوعات، وإن كانت في أغلبها تدور حول الشرق الأوسط والقضية الفلسطينية، التي نُشرت في جريدتي «الحياة» و«الأهرام ويكلي».



يُمثّل إدوارد سعيد بهويته المتخارجة عن الأمكنة ومنهجه النقدي الذي أسماه «النقد المعارض» حلقة في سلسلة المفكرين العالميين الذين اتخذوا موقفًا مضادًا مسؤولاً إزاء الثقافة الغربية، وذلك بإعادة قراءة منتج الثقافة الغربية قراءة تفكيكية تُعري المنزع الإنساني لتكشف مركزيته الغربية وعنصريته منذ كتابه «الإستشراق» (١٩٧٨). كما يمثل بهويته الفلسطينية العربية ركنا ركينًا من تلك الطليعة التي تحدث عنها في كتابه «الثقافة والإمبريالية» (١٩٩٣) من مفكري «المناطق المستعمرة أو أطراف الإمبراطورية الذين كتبوا بلغة «إمبريالية»، وشعروا بأنهم مرتبطون ارتباطًا عضويًا بالمقاومة الجماهيرية للإمبراطورية، وأخذوا على عاتقهم مهمة مراجعة ثقافة الحواضر المركزية ومواجهتها بالنقد، مستخدمين تلك التقنيات والخطابات وأسلحة البحث العلمي والنقد التي كانت قاصرة فيما مضى على الأوروبيين. ويبدو عملهم في الظاهر فقط وكأنه يعتمد على أشكال الخطاب الغربي السائدة (وهو لا يتطفل عليها على الإطلاق)؛ وكانت نتيجة أصالة هذه الأعمال وإبداعها هذا التحوّل في مجال الحقول المعرفية نفسها». (Culture and Imperialism, p. 293).

لقد أحدث إدوارد سعيد بمفرده ثورة داخل الأكاديمية الأمريكية بكتابه «الإستشراق» فلم يدشّن فقط تلك المدرسة التي عرفت بـ«ما بعد الكولونيالية» في التحليل الأدبي والتاريخي وكثير من المجالات الأخرى، ولكنه أحدث تغييرًا في مجال النظرية النقدية بل والفكر الانجلو-امريكي الذي داب على استئصال قضية المركزية الأوروبية وعلاقتها بالاستعمار عند استيراده للنظريات والفلسفات الفرنسية الرفيعة.

لقد استخدم سعيد نظريات فوكو ودريدا بعد موضعة قضايا العنصرية والإمبريالية في القلب منها منطلقًا في ذلك من هويته كفلسطيني في المنفى يعاني مما أطلق عليه في مقدمة كتابه «الاستشراق»:

«تلك الشبكة العنكبوتية من العنصرية، والقوالب النمطية الثقافية، والإمبريالية السياسية، والايديولوجيا التي تجرد الافراد من إنسانيتهم، والتي تكبّل العربي او المسلم بخيوطها الشديدة الإحكام..، هذه الشبكة هي ما انتهى كل فلسطيني إلى الإحساس بها باعتبارها مصيره الفريد المعرّض للعقاب». (Orientalism, p. 27).

لذا، ليس من قبيل المبالغة القول بأن إدوارد سعيد أنزل نظريات ما بعد البنيوية الفرنسية من عليائها النصوصية إلى أرض الواقع، أي إلى عالم التاريخ الذي يصنعه الأفراد والشعوب، مما حدا بالناقد المرموق روبرت يونج، الاستاذ بجامعة أكسفورد، إلى القول بأن كثيرًا من زخم النقد السياسي الذي ساد العقدين الأخيرين من القرن العشرين، ولا سيما في الولايات المتحدة، حيث لم يكن هناك تراث حيوي للنقد السياسي، انبثق من كتاب «الإستشراق» وأعمال سعيد اللاحقة.





لقد أزال إدوارد سعيد الأسوار العازلة بين التخصُّصات المعرفية المختلفة معيدًا رسم العلاقات الخفية بين أشكال التعبير الثقافية التي قد تبدو بريئة وغير ملوثة بآلات السلطة وآليات الاستعمار الغربي للشرق. وكاشفًا عن ذلك التواطؤ بين أشكال المعرفة الأكاديمية ومؤسسات السلطة. فمجموعة التمثيلات والصور المعقدة التي اصطنعها الغرب، والتي أصبحت في المخيلة الغربية وفي أرشيفها المعرفي المتراكم ذلك «الشرق المشرقن»، حدّدت فهم الغرب لهذا الكيان المتخيَّل ومهّدت السبيل لاستعماره. واكتسب علم الاستشراق البريء معنى جديدًا بان اصبح بعد سعيد علمًا للإمبريالية.

لذا ليس من باب المصادفة، في سياق ما بعد ١١ سبتمبر والاستريتيز الامريكي الكولونيالي بامتياز في العراق، أن نقرأ عن جيش الأكاديميين الاستشراقيين/الكولونياليين الجدد الذين ينادون بتدخل الحكومة الامريكية لإخماد «الثورة السعيدية» فيقول أحدهم:

«على مدار عقدين من الزمان الآن ومنذ أن اجتاح نموذج إدوارد سعيد في مجال

الدراسات ما بعد الكولونيالية برامج دراسات الشرق الاوسط في أمريكا، والاكاديمية الامريكية منخرطة في تدمير الامن الامريكي، وليس دعمه ».

لقد دعا إدوارد سعيد دائمًا إلى ربط الثقافي بالسياسي، وإلى ربط النقد بعالم البشر، وهذا ما أسماه في كتابه « العالم والنص والناقد » ( ١٩٨٣ ) بالنقد العلماني او الدنيوي. وكانت دعوته في هذا الصدد ذات أثر أخلاقي بارز على مختلف فئات المستعمَرين والمقهورين من حيث تمرُّدهم على أشكال الخطاب السائدة التي تتسربل بطابع العالمية المتعالي، أو ترتبط بمؤسسات المعرفة على اختلاف أنواعها.

( أود ان اشير هنا إلى مفارقة ساخرة فرضت نفسها عليَّ وان أكتب هذه المداخلة وهي ما صرح به وزير « الثقافة » المصري، ونقلته صحيفة « الحياة » في عددها الصادر ٦ / ١١ / ٢٠٠٣، في تعليقه على ما اثاره رفض الروائي صنع الله إبراهيم لجائزة مؤتمر الرواية العربية الثاني : « منذ ان توليت العمل في الوزارة وأنا ابتعد بالثقافة عن السياسة، وللاسف جاء صنع الله ابراهيم وحاول جرّنا إليها مرة أخرى ». )

ثمّة قصة يسوقها إدوارد سعيد في « العالم والنص والناقد » ( وكأني به يرد او يعلق على مقولة وزير الثقافة المصري ) للتدليل على خيانة المثقفين والاحترافيين الاكاديميين لدورهم وللتدليل على ما يمكن أن يقود إليه ذلك الفصل بين عالم الثقافة ومؤسسات السلطة:

« تجلى لي بشكل واضح تمامًا من خلال حديث مع صديق جامعي قديم كان يعمل في وزارة الدفاع لفترة من الزمن خلال حرب فيتنام. وكان القصف بالقنابل في ذروته وكنت أحاول بكل سذاجة ان أفهم ما نوع ذلك الشخص الذي كان باستطاعته ان يأمر يوميًا طائرات « بي – ٥٢ » بإلقاء القنابل على بلد آسيوي بعيد باسم المصلحة الامريكية في الدفاع عن الحرية ووقف المدّ الشيوعي »، ويذهب هذا الصديق إلى الدفاع عن صورة وزير الدفاع الامريكي بانه راى على مكتبه في آخر زيارة له نسخة من « رباعية الإسكندرية » للورنس دريل. وكان المغزى من دفاع الصديق عن الوزير بقصة دريل، كما يقول سعيد، هو « أنه ما من إنسان قرأ رواية.. وقدرها يمكن أن يكون ذلك السفاح البارد الذي قد يتصوره المرء ».
( The World, the Text and the Critic, p. 3 ).

ولكن سعيد يخلص إلى أن المغزى الحقيقي للقصة هو إمكانية إقامة المجازر وقراءة الروايات في ان معًا لان هناك طلاقًا بائنًا بين الثقافي والسياسي ومبدأً مستقرًا هو عدم التدخُّل من جانب الثقافي في شؤون السياسة إلا بغرض التمويه والتعمية. ويضيف سعيد أنه ليس من قبيل المصادفة أن صعود فلسفة النصية المحضة والنظرية الفرنسية الرفيعة تزامن مع صعود نجم الريجانية والتاتشرية.

...

ما الذي يمكن أن نفعله بأفكار إدوارد سعيد في سياق الأدب العربي وهو الذي قدم لنا درسًا في النقد المبدع وليس الاتباع الأعمى؟

من واقع تخصصي في الأدب الانجليزي واهتمامي الشخصي بالرواية والنقد سوف أُشير إلى بعض النقاط التي أطمح أن تكون ذات فائدة في استخدام بعض مفاهيم سعيد في قراءة بعض جوانب الأدب العربي.

١ ) أولاً أودُّ التأكيد مرة أُخرى على مصطلح إدوارد سعيد في نوع النقد الذي يمارسه ويدعو إليه وهو « النقد البنيوي » من زاويتين: الأولى: تأكيده على أن النصوص جزء من « العالم الإجتماعي، والحياة الإنسانية وبالطبع اللحظات التاريخية التي توجد فيها ويتم تفسيرها خلالها » (The World, the Text and the Critic)، وأن « الوقائع المتعلّقة بالقوة والسلطة – والمتعلقة أيضًا بأشكال المقاومة التي يقدمها الرجال والنساء والحركات الإجتماعية ضد المؤسسات والسلطات والمعتقدات التقليدية – هي الوقائع التي تجعل من النصوص أمرًا ممكنًا، وهي التي توصلها لقرائها، وهي التي تجذب اهتمام النقاد، ما أقترحه هو أن هذه الوقائع هي ما ينبغي أن يأخذه النقد والوعي النقدي في الحسبان » . (p. 5).

الزاوية الثانية تتعلق بلغة النقد. فيبدو مصطلح النقد العلماني وكأنه نقيض تلك اللغة الكهنوتية المستغلقة على الكثيرين وتحتاج إلى وساطة الكهنة من الاحترافيين أو من أهل الرّطانة من أصحاب اللغات الأجنبية في سياقنا العربي مثل لغة كمال أبو ديب في ترجمة سعيد نفسه، تلك اللغة التي يصفها سعيد نفسه « بالرطانة المصطنعة »، التي تخفي « تعقيداتها الرهيبة الوقائع الاجتماعية ». واعتقد أن هذه الرطانة هي ما اجتاحت الكتابات النقدية في العالم العربي خلال العقدين الاخيرين ( ويكفي في هذا الصدد قراءة شكوى الدكتور عبد العزيز حمودة من تلك اللغة في مقدمة كتابه « المرايا المحدّبة » ) وخطورة هذه اللغة أنها تجعل عالم الثقافة والأدب عالمًا نخبويًا، وتعد عرضًا إضافيًا من أعراض إرادة الهيمنة على أشكال النقد الأُخرى المعارضة لاتجاهات الاستعمار الثقافي الجديد أو أشكال الاستبداد المحلي. فعلى سبيل المثال يصرُّ احد النُّقاد، وهو كيتو كاتراك، على أهمية الكتابة بلغة « صافية وواضحة بالقدر الذي يكفي لإلهام الشعوب للكفاح وإنجاز التغيير ». ( Ketu Katrak, - Decolonizing Culture, - Modern Fiction Studies, 35. 1, Spring 1989, p. 158. ).

٢ ) في السياق نفسه، وفي ضوء اهتمام دراسات ما بعد الكولونيالية بالاشكال الثقافية المهمّشة كالكتابة الصحفية وأدب الرحلات والسينما، وأُضيف إليها النصوص المدرسية،

يجب الالتفات إلى محاولات تفريغ المنطقة من التاريخ ووقائعه وخاصة من تاريخ الاستعمار وهذا ما يحدث مع تفريغ النصوص المدرسية من إسرائيل كعدو استعماري. أو الدعوى إلى تقديم صورة أليفة مستأنسة للإسلام بعد ١١ سبتمبر، على نحو يبعد التُّهم السابقة الطبخ عن العرب والمسلمين، وهي صورة أُخرى تعد امتداداً للصورة الاستشراقية وذلك لانها مفرغة من أية مفاهيم عن شرعية المقاومة ضد المستعمرين، والتي يمكن أن توصم بالإرهاب.

٣ ) أما فيما يخص قراءة الرواية العربية في ضوء منظور سعيد للاستشراق ونظريته عن نشأة الرواية الإنجليزية باعتبارها الشكل الجمالي الأكثر ارتباطًا بتوسع الإمبراطورية، وأن الصراع على الأرض ومقاومة المستعمر يصحبه صراع على صوت السرد في الروايات ومن ثم دعوته إلى ما أسماه القراءة الطِّباقية، أي قراءة النصوص الروائية الأُوروبية، جنبًا إلى جنب أو في مواجهة نصوص من الأطراف المستعمَرة، أود لفت الانتباه إلى ما يلي:

أولاً: أن تمثل نظرية سعيد عربيًا أو محليًا قد يدعو إلى إيجاد تقسيمات داخلية محلية موازية لثنائية المستعمِر والمستعمَر. وإذا كان هذا التقسيم قد يصلح في حالة قراءة بعض النصوص التي تعرض لوضعية المرأة باعتبارها إحدى الفئات المقهورة، إلا أنه يتم سحب هذه الحالة أحيانًا على بعض قطاعات المجتمعات العربية الأُخرى وإلباسها ثوب الأقليات كما يحدث أحيانًا في حالة الحديث عن المسيحيين أو النوبيين ومن ثم يتم إعادة تناول مفهوم الأمة أو الهوية من منظور «النصية» باعتبارها كيانات متخيلة.



ثانيًا، انطلاقًا من الرغبة في الوصول لما يسمى العالمية، تعيد بعض الروايات العربية إنتاج بعض المضامين الاستشراقية والموتيفات العجائبية ( مثل رواية «الخباء»، لميرال الطحاوي، في نظري ) وهذا يمثّل دعمًا واستمرارية للخطاب الاستشراقي من داخل الشرق ذاته. حيث يتم الاحتفاء بهذه النصوص وأصحابها والإسراع بترجمتها إلى اللغات الأُوروبية. ومن ثم يصبح المفهوم المحلي المتداول في صحافتنا ووسائل إعلامنا العربية عن الوصول إلى العالمية شكلاً من أشكال الاندماج في منظومة الكولونيالية الجديدة المعولمة اقتصاديًا وثقافيًا.

ثالثًا، إذا كان السرد، في جانب منه، انعكاسًا للصراع على الأرض - استعمارًا ومقاومة - يجب إعادة النظر في تاريخ نشأة الرواية العربية، مثلما ظهرت دراسات تعيد النظر في نشأة الرواية الإنجليزية. فظهور الرواية العربية المؤرخ له رسميًا برواية «زينب» في مطلع القرن العشرين ارتبط بحركة النهضة القومية ومحاولة تأكيد الهوية العربية أو المصرية. ومن ثم فقد ظهرت في مهاد مواجهة الثقافة الأُوروبية ومحاولة الاستقلال. مع ذلك استعارت الشكل الأُوروبي للرواية ولم تستفد من أي من الروافد العربية للحكي وهو ما أشار إليه

إدوارد سعيد في مقدمته لترجمة رواية « ستة أيام » للروائي حليم بركات :

« للرواية العربية في القرن العشرين العديد من الأسلاف، ليس بينهم من هو أسبق أو أنفع شكليًا وسلاليًا من النفع المباشر الذي نجده في استباق فيلدنغ لديكنز على سبيل المثال. ففي الأدب العربي قبل القرن العشرين مجموعة غنية من الأشكال السردية - قصة، سيرة، حديث، خرافة، أسطورة، خبر، نادرة، مقامة - التي لم يصبح أي واحد منها النمط السردي الأساس، كما حدث في الرواية الأوروبية » .

( مداخلة في احتفالية إدوارد سعيد بالمجمع الثقافي في ابو ظبي / دولة الإمارات العربية، تشرين الثاني ٢٠٠٣ )





باحث مصري، محاضر بموضوع الأدب الإنجليزي في جامعة طنطا / جمهورية مصر العربية

صقر أبو فخر

# شفافية البوح والجرأة على الذات

إدوارد سعيد في اعترافاته «الأثمة»



## إستهلال

إدوارد سعيد حلقة جديدة ومدهشة في سلسلة طويلة من نُقّاد الحضارة الغربية المعاصرة، بل إنه شوط بالغ التأثير في مسيرة التيار الإنساني المضاد للاغتراب والتوحُّش الرأسمالي، ذلك التيار، الذي كان كارل ماركس يمثّل ذروة من ذراه الرفيعة. ولعل إدوارد سعيد، في إطار هذا التوق البشري الذي لا ينضب إلى الحرية والإمتلاء والعدالة، يحتل مكانه اللائق إلى جانب كيركيغارد وجورج لوكاش وانطونيو غرامشي وهربرت ماركوزا وإريك فروم وغي دي بور ونوعام تشومسكي وآخرين.



إنه، في الأساس، أستاذ لامع للادب المقارن. لكنه وصل إلى السياسة وإلى نقد السياسة، وحتى إلى الفكر السياسي، لا من طريق الاختصاص الأكاديمي بل من طريق المعرفة التي تشتبك، بل تتشابك، مع الإختصاص في كثير من الجوانب العلمية. لهذا ظهر إدوارد سعيد في «الإستشراق» ثم في «الإمبريالية والثقافة» كاتبًا نقديًا فذًا في حقل التاريخ والتاريخ السياسي للشرق الأوسط بالتحديد.

الكثيرون من الكُتّاب اللامعين يكتبون في شتى حقول المعرفة والفكر والادب والفن. لكن القليل منهم يؤسس مشروعًا معرفيًا واضحًا. امّا إدوارد سعيد فكان من بين هؤلاء الكُتّاب الكبار الذي بدأت ملامح مشروعه المعرفي تتكون، بالتدريج، في سياق مواجهاته الفكرية المختلفة. ومع أنه قرأ بدقة مارتن هايدغر ولوي التوسير وميشال فوكو وميرلو بونتي وليفي شتراوس ورولان بارت وجاك دريدا وجاك لاكان وتزفيتان تودوروف، إلا إن جورج لوكاش وانطونيو غرامشي كان لهما الاثر الكبير في تكوينه الفكري، ولا سيّما جورج لوكاش في كتابيه «التاريخ والوعي الطبقي» و «الرواية التاريخية». ومهما يكن الأمر فقد راح مشروع إدوارد سعيد يتكامل رويداً رويداً حتى قام على أربع دعائم هي:

١ ) النقد الادبي والأدب المقارن كما في كتابه «جوزف كونراد ورواية السيرة

الذاتية» ( ١٩٦٦ ) .
٢ ) الإمبريالية وآليات إخضاع الثقافات كما في «الإستشراق» ( ١٩٧٨ ) و «تغطية الإسلام» ( ١٩٨١ ) و «الإمبريالية والثقافة» ( ١٩٩٣ ) .
٣ ) القضية الفلسطينية والعدالة المفقودة كما في كتابه «المسألة الفلسطينية» ( ١٩٧٩ ) و «غزة وأريحا : سلام أمريكي» ( ١٩٩٤ ) .
٤ ) دور المثقف النقدي كما في كتابه «صور المثقف» ( ١٩٩٤ ) .

لم يكن إدوارد سعيد ماركسيًا بالمعنى الأيديولوجي لهذه العبارة . لكنه كان ماركسيًا، بهذا القدر أو ذاك، طالما أن الماركسية نظرية نقدية تناوئ الاغتراب الإنساني وتبشّر بقيم العدالة الاجتماعية والحرية الشاملة للأفراد والمجموعات .

يقول إدوارد سعيد : «لقد اختفى اليسار الماركسي، وإنني اليوم أجد نفسي في وضع غريب أُحاول فيه إعادة طرح مسألة الماركسية كشيء يمكن إحياؤه على نحو انتقائي بهدف إدخاله في الخطاب المعاصر ( . . . ) . والمسألة عندي هي نفخ الحياة في خطاب معارض مهم، عليه اليوم واجب العثور على بدائل من الأيديولوجيا الماركسية ومن النظرة القدرية التأملية للعالم التي تكتسح العديد من المثقفين في هذه الأيام ( . . . ) . ثمة حاجة ماسة لإحياء الماركسية كمسألة سياسية وأكاديمية ذات صلاحية في الأزمة الراهنة التي تعصف بالتربية والبيئة والقومية والدين وغيرها من المسائل . وهذا تحدٍ رئيسي كما اعتقد، وهو عندي سؤال مفتوح عما إذا كان من الممكن القيام به أم لا» ( صبحي حديدي في حوار مع إدوارد سعيد، الملحق الأدبي لجريدة «النهار» ( بيروت )، ٥ / ١٠ / ٢٠٠٣ ) .





يقوم جوهر المشروع المعرفي لدى إدوارد سعيد على فكرة أساسية هي نقد النظرة الغربية إلى قضايا المجتمعات العربية، وتفكيك الصياغة الصهيونية لصورة إسرائيل في الغرب الأمريكي، وخلخلة الوعي الأمريكي ذاته حيال المسألة الفلسطينية والشعب الفلسطيني انطلاقًا من أن الشاشة هي الوعي الأمريكي بامتياز . ولعل إدوارد سعيد حقق إنجازات جبارة في هذا المجال؛ فالصورة النمطية للعربي في الولايات المتحدة الأمريكية هو أنه جاهل ومتعصب ومعادٍ للثقافة الغربية، ويتكلم الإنجليزية المهلهلة بلكنة ثقيلة . بينما إدوارد سعيد المتضلع من الإنجليزية الراقية، والذي يدرك تمامًا قواعد الحوار ومعايير اللعبة الإعلامية وأثر الشاشات التلفزيونية في الأمريكيين، فضلاً عن براعته وحضوره الرفيع في الجامعات الأمريكية المرموقة، تمكّن من زحزحة صورة العربي من مكانها . وكسر، إلى حد كبير، تلك النمطية الموروثة، وهدّد، استطرادًا، الخطاب الإسرائيلي السائد في الأوساط

الثقافية الأمريكية. فلا غرابة، إذًا، أن تثور في وجهه الكائنات الصهيونيّة المتعصبة في الولايات المتحدة وفي الغرب عمومًا، ولا عجب من أن يرتاح الصهيونيون لموته.

## المشروع النقدي

الشرق مصطلح حيكت انسجته من آلاف الحكايات والعقائد والأفكار التي تراكمت عبر السنين، والتي جاءت من مصادر مرئية وغير مرئية معًا، حتى ظهر هذا المصطلح كأنه مصنوع من تصورات فكرية شبه أسطورية. وبهذه الصفة اكتسب المصطلح رسوخًا قويًا في الثقافة الغربية وفي العقول والأفئدة على السواء. ولما أصدر إدوارد سعيد كتاب «الإستشراق» تمكن، ببراعة وألمعية، من أن يزحزح الأنماط المعرفية التي أناخت طويلاً فوق عقول المستشرقين الغربيين وأفكارهم، وأن يمارس تأثيرًا هائلاً في النخب الثقافية والاكاديمية في الغرب، وأن يشكل اختراقًا للوعي الغربي التقليدي الشائع حيال الشرق.

حجر الزاوية في كتاب «الإستشراق» هو نقد تصوّرات المستشرقين عن الشرق، ونقد الأُسس المنهجية للمدرسة الاستشراقية الغربية. والسؤال الجوهري في هذا الكتاب هو: كيف نفسّر سياسة الغرب عمومًا، والولايات المتحدة خصوصًا، المعادية للعرب ولا سيما للفلسطينيين، في الوقت الذي تقع معظم مصالح الغرب، التي تقودها الولايات المتحدة، في العالم العربي تحديدًا؟ وفي محاولة الإجابة يكشف إدوارد سعيد دور الخطاب الاستشراقي المتراكم في صنع القرار السياسي الأمريكي المعادي للعرب. وقد أوغل الكثيرون، ولا سيّما الإسلاميون بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران سنة ١٩٧٩، في تأويل «الإستشراق» فاستخدموا أفكاره للهجوم على الغرب، وحرّفوا بعض مضامينه ليتوصلوا إلى أن الشرق شرق ثابت الخصائص لا يتحوّل ولا يتعدد، وأن الغرب على مثاله من الثبات والجوهرانية. وهذا التأويل يؤدي إلى الاستنتاج بأن الصراع بين الشرق والغرب أبدي لا يحول ولا يزول، وأن الدفاع عن الهوية القومية للعرب وعن الهوية الدينية للمسلمين ضرورية في سياق النضال ضد الغرب وهيمنته. والحقيقة أن هذا التأويل فاسد تمامًا، وإدوارد سعيد سخّف، بنفسه، مثل هذه الأفكار، وطالما كرر أن جوهر كتاب «الإستشراق» هو تأكيده على أن العلاقة بين الشرق والغرب هي شبكة من علاقات القوة والسيطرة والمقاومة معًا، حيث تلعب الثقافة هنا دورًا مهمًا وخطيرًا، وأنه لم يفعل شيئًا إلا تفكيك فهم الخطاب الغربي للإسلام وهو فهم اختزالي وتمطي بامتياز.

كتاب «تغطية الإسلام» هو شوط جديد في مشروع إدوارد سعيد النقدي. غير أنه، هذه المرة، ينتقل من حقل الاستشراق إلى حقل الإعلام ليفكّك الطرائق التي يتعامل بها الإعلام

الغربي المتأثر بالمدرسة الاستشراقية مع قضايا العالم الإسلامي ومشكلاته. أما كتاب «الثقافة والإمبريالية» فهو رصد ثاقب للآليات التي جعلت المدرسة الاستشراقية القديمة تتحول إلى مؤسسة ثقافية تعمل كجهاز ايديولوجي للإمبريالية. وربما كان برنارد لويس، المثقف الموسوعي والمستشرق اللامع، ابرز ممثلي هذه المدرسة. ولعل صورة المثقف الذي ينخرط في خدمة السياسات العليا لدولة إمبريالية حقّرت إدوارد سعيد على النظر في هذه الظاهرة المألوفة جداً، وربما على إعادة النظر في مفهوم المثقف كما تجسد لدى غرامشي أو حتى عند دريدا. وفي لجة هذه الإعادة أصدر كتابه المشهور «صور المثقف» الذي أراد أن يقول فيه ألا هوية واحدة للمثقف، فالمثقف متعدد الهويات، ولا توجد هويات منفصلة ومعزولة تنمو الواحدة منها بمعزل عن الأخرى. والمثقف الحديث هو خلاصة هويات متعددة ومتصادمة في آن.

رفض إدوارد سعيد اتفاق أوسلو الذي وقّعته منظمة التحرير الفلسطينية مع إسرائيل في ١٣ / ٩ / ١٩٩٣. وموقفه هذا كان نابعًا من إحساسه العميق بالعدالة وقيم الحرية والتاريخ معًا. لهذا رأى أن الحل الذي دشّنه اتفاق أوسلو غير عادل البتة لأنه محصلة للاستسلام العربي، وليس خياراً حرّاً للفلسطينيين، ولأنه يمنح إسرائيل حق السيطرة شبه التامة على شؤون الفلسطينيين. وفي ما بعد طوّر إدوارد سعيد موقفه الذي كان يشدد على قيام دولة فلسطينية مستقلة للشعب الفلسطيني إلى التبشير بأن تصبح فلسطين التاريخية كلها دولة ديمقراطية لشعبين متكافئين، على أن تضمن هذه الدولة الحرية والمساواة للفلسطينيين والإسرائيليين معًا.



## «خارج المكان» وجرأة البوح

المجتمع العربي ما برح يرى في البوح عيبًا، وفي الاعتراف مذلّة. والادب العربي، في بعض وجوهه، أدب كتمان وإخفاء، لا ادب كشف وإفضاء. غير أن الأدب العربي القديم زاخر بالكثير من النصوص التي تجرأت على المألوف وخرقت السائد وصادمت المحرم. واشهر هذه النصوص «طوق الحمامة» لابن حزم الاندلسي. ويُعد هذا الكتاب أحد اقدم المصادر عن أدب الاعتراف، فالكاتب قدم لنا وثيقة جميلة عن حياته اللاهية وهو رجل الدولة والفقيه والعالم معًا. أما الادب العربي المعاصر فقد انحسر فيه مثل هذا التوهج، وافتقر إلى النصوص الذاتية التي تكشف ما استتر وتعلن ما توارى. وقلّما نعثر على كتاب بالعربية يضاهي نصوص هنري ميلر مثل «مدار الجدي»، أو كتاب «من الاعماق» لاوسكار وايلد. ومع أن الادباء العرب اقبلوا على قراءة يوميات اندريه جيد واعترافات جان جاك روسو والقديس

أوغسطين وجان جينيه، ووجدوا فيها أدبًا مدهشًا ومتوثبًا ومفعمًا بالصدق والتوهج، وفيه الكثير من الجرأة على المحرّمات ومواجهة التزمت والميل إلى تعرية النفس المتلبسة بالآثام والنقاء معًا، إلا إنهم عندما كتبوا مذكراتهم انصرفوا عن هذا المسلك الصعب، وحاذروا ذلك المركب الخشن. هذا ما فعله طه حسين في « الايام » واحمد امين في « حياتي » وميخائيل نعيمة في « سبعون » وجبرا إبراهيم جبرا في « البئر الأولى » وإحسان عباس في « غربة الراعي » . والأمر نفسه فعلته فدوى طوقان، ولو بدرجة أقل، في سيرتها « رحلة جبلية رحلة صعبة » . ولولا بضع علامات في هذا المضمار أمثال « شرائط ملونة من حياتي » ( ليلى عسيران )، و « رسائل غسان كنفاني إلى غادة السمان » ( غادة السمان )، و « الخبز الحافي » ( محمد شكري ) و « ذكريات الأدب والحب » ( سهيل ادريس )، لكان الأدب العربي الحديث يخلو تمامًا من هذه النضارة والحيوية.

كتاب « خارج المكان » لإدوارد سعيد احد اجمل واروع كتب الإعتراف في الأدب العربي المعاصر. وفي هذا الكتاب حطّم إدوارد سعيد طفولته الجاثمة على صدره، وأزاح عن صدره ستينًا من القمع الوحشي الذي حلّ بهذا الطفل المتألم. ومع انه يعرف أن ثمة ما هو مُحرج في سيرته الشخصية هذه، إلا إنه رأى أن من واجبه ليس أن يكون لطيفًا ومراوغًا، بل أن يكون وفيًا لذكرياته وتجاربه وأحاسيسه، فجاءت اعترافاته كأنها « سجل لعالم مفقود » ( ص ١٩ )، وكأنها المحاولة الأخيرة لمواجهة عبث الموت واستعادة المكان الضائع الذي فقده مرة ثم لم يكف عن التلألؤ في وجدانه.





## كونراد والمنفى وتعدد الهويات

ليست مصادفة ان يكون أول كتاب ينشره إدوارد سعيد في سنة ١٩٦٦ عن جوزف كونراد الذي ظل مفتونًا به حتى أيامه الأخيرة؛ فهو مثيله في المؤثرات الأولى وفي مصائره اللاحقة، وكلاهما منفي في المكان واللغة : عاش كونراد البولوني في فرنسا، وكتب تجارب أيامه بالإنجليزية، وهي لغته الثالثة بعد البولونية والفرنسية. وعاش إدوارد سعيد الفلسطيني في القاهرة كمواطن أمريكي، ثم انتقل إلى الولايات المتحدة ليعيش فيها كعربي، وفي كلتا الحالتين كان منفيًا في المكان.

لم يبرأ إدوارد سعيد قط من شعوره بالنفي والاقتلاع. والمنفى لديه عزلة تُعاش خارج الجماعة بإحساس بالغ الحدة بالحرمان والوحدة والاقتلاع. والمنفي، في هذه الحال، يشعر بالحاجة الملحة لإعادة تشكيل كينونته المحطمة. لهذا يكون المنفى، في بعض الحالات، عنصر إخصاب ثقافي؛ فالثقافة الغربية الحديثة هي، في جانب كبير منها، نتاج للمنفيين

والمهاجرين واللاجئين الذين غادروا أوطانهم طلبًا للحرية أو هربًا من العسف. لكن إدوارد سعيد، حينما يتحدث عن المنفيين، كانت اللوعة تبدو ساطعة في كلماته وعباراته كأن قلمه يحفر في جلده. فهو يقول عن باريس إنها «مدينة أمضى فيها الكثير من الرجال والنساء المغمورين سنوات من الوحدة اليائسة ( ... ) هؤلاء عاشوا في قفر مهجور رهيب ( ... ) وضاعوا دونما تاريخ يمكن أن يُروى» («الحياة»، ١ / ١٠ / ٢٠٠٣). إلا إن إدوارد سعيد لم يكن مثل هؤلاء البتّة، فقد صارت حكايته تاريخًا يُروى ويستعاد.

كانت حياته خرابًا إلى حد كبير. لكن المنفى أعطاه شيئًا من التوازن. وبما أن «المنفى الحقيقي حالة فقدان مبرم»، فربما قدم له المنفى الأمريكي شعورًا بفقدان عالمه الخرب في القاهرة، ودفعه، بقوة، إلى عالم مختلف يفقد فيه الإحساس بذلك الخراب ويتناسى تفصيلاته فيقول: «منذ إقامتي الأمريكية صممت على أن أعيش وكأنني نفس بسيطة شفافة فلا آتي على ذكر عائلتي أو أصلي إلا بحسب الأحوال وباقتضاب شديد» (ص ١٧٨).

## تعدُّد الهويات



منذ البدايات الأولى للتكوينه النفسي - الاجتماعي امتلك إدوارد سعيد شعورًا مقلقًا إزاء هويته. وظل هذا الشعور ملازمًا إياه طوال حياته، وأورثه إحساسًا عميقًا بالتمزُّق والانشطار. فهو فلسطيني من القدس لكنه يحمل الجنسية الأمريكية ويعيش في مصر في الوقت نفسه.. إنه أمريكي ويتعلم في مدرسة إنجليزية في القاهرة التي يعيش فيها مصريون عرب. والدته فلسطينية من الناصرة وأصلها من صفد وأمها لبنانية. أما والده وديع إبراهيم فهو مقدسي، وقد أصبح أمريكيًا بعد أن عاش في الولايات المتحدة الأمريكية سحابة من الزمن وخدم في الجيش الأمريكي في الحرب العالمية الأولى. لكنه غيّر اسمه، لاحقًا، واختار اسم وليم بدلاً من وديع، فصار اسمه الجديد «وليم سعيد». وهذه الحال أسقمت إدوارد سعيد كثيرًا؛ فقد نما لديه عطب كبير في كيانه جراء اسمه الإنجليزي الذي طالما خجل منه لأنه لا يتلاءم البتّة مع الكنية العربية الفصيحة. ومثلما كان اسمه يتضمن شطرًا إنجليزيًا وشطرًا عربيًا، هكذا كانت لغته إنجليزية وعربية معًا وفي آن واحد. وزاد في اضطرابه المبكر مسلك عائلته التي دأبت «على تصوير نفسها جماعة أوروبية صغيرة على الرغم من بيئتها المصرية والعربية الساطعة» (ص ١٠٧). وفي هذا السياق يكشف إدوارد سعيد أن «الشعور العام المسيطر عليّ هو شعوري بامتلاك هوية مضطربة، أنا الأمريكي الذي يُبطن هوية عربية أخرى لا أستمد منها أي قوة بل تورثني الخجل

والانزعاج» ( ص ١٢٥ ) .

إن انشطار الذات الاجتماعية ومعاناته جرّاء تمزُّق الهوية جعلت إدوارد سعيد غير قادر إلى حد كبير، على الارتباط بالمكان . فالأمكنة لديه محطّات انتقال وليست أمكنة ثابتة يثوب إليها الفرد في معظم الأحيان . لهذا لم يجمع إدوارد سعيد التُّحف والقطع الفنية، ولم يقتنِ أي أثر يدل على الرسوخ في المكان، حتى إنه حينما عاد إلى القدس في سنة ١٩٩٢ لم يشعر أن هذه المدينة مدينته .

المدينة الوحيدة التي شعر إدوارد سعيد بالانتماء النسبي إليها هي القاهرة، مع أن عالمه فيها كان محدودًا جدًا ومحصورًا بين المنزل والمدرسة والكنيسة والنادي والحديقة . وللغرابة، فقد مُنع من زيارة القاهرة خمس عشرة سنة متواصلة ولأسباب واهية . أما نيويورك فقد عاش فيها بإحساس موقت نحو أربعين سنة متواصلة : «لقد حولتني ضخامة نيويورك الهائلة ( . . . ) إلى ذرّة تافهة، فأخذت أتساءل عن موقفي من هذا كله، فإذا عدم اكتراث أحد بوجودي يمنحني شعورًا غريبًا، وإن يكن موقتًا، بالتحرُّر لأول مرة في حياتي» ( ص ١٨١ ) . ففي هذه المدينة الهائلة يمكن أن يكون الفرد في أي مكان من غير أن يكون منها بالتحديد . ولعل عدم اكتراث الآخرين به هو الذي منحه الشعور بالتحرر والانتعاش، وربما يكمن تفسير ذلك في تجربة التخلُّص من سطوة الأب لأول مرة في حياته .

عاش إدوارد سعيد ممزّق الهوية وفي أمكنة متعددة . لكن لم ينتمِ، بعمق، إلى أي مكان محصور أو إلى هوية قومية . وفي ما عدا إحساسه بفلسطينيّته، فقد كان من المحال أن ينتمي إلى مكان أو إلى هوية؛ فقد كان، بالفعل، مواطنًا بيته العالم، ومفكرًا إنسانيًا بلا تردُّد .

## الجرأة على الذات

يستعيد إدوارد سعيد، بحرقة، طفولته المعذّبة بين والد متسلط ووالدة حانية، ويقول : «لم أنعم مرة براحة البال» ( ص ٤٢ )، و«لم أخرج مرة مع فتاة، بل لم يُسمح لي بأن أزور أماكن اللهو العامة أو المطاعم . ( . . . ) وكان والداي يتناوبان على تحذيري دائمًا من الاقتراب من الناس في الباص أو الحافلة» ( ص ٤٥ )، و« لا أذكر مناسبة واحدة زارني فيها، في بيتي، صديق من المدرسة أو النادي» ( ص ٦٥ ) .

لا يفصح إدوارد سعيد عن الأسباب التي دفعت والديه إلى تحذيره الدائم من مغبّة الاقتراب من الناس في الباص أو في الحافلة . هل خوفًا عليه من احتمالات التحرُّش الجنسي مثلاً؟ ومع أن إدوارد سعيد جريء جدًا على ذاته، إلا إنه تجنّب الخوض في هذه الغمار وانبرى للحديث عن إحساسه المفرط بنواقصه الجسدية؛ فهو محدودب ورجلاه

مسحاوتان، وكانوا يطلقون عليه في طفولته صفات من عيار «الكذّاب» و«المتسكّع» (ص ٢٧)، والمتلصص (ص ١٣٦)، والمريض الجنسي (ص ٢٤١)، والشاذ والمنبوذ (ص ٣٠٤)، والمستهتر (ص ٩٩)... إلخ.

يقول إدوارد سعيد: «أذكر وقفاتي المطوّلة أمام المرآة أرى إلى نفسي بقرف» (ص ٩٧). ومع أن صورته أمام الاكروبول في اثينا سنة ١٩٦٠ تدلُّ على انه كان شابًا وسيمًا في ذلك الوقت، إلا إن الشعور بالخجل مما لديه جراء التربية الصارمة التي خضع لها بقسوة. وهذا ما جعله يبوح بالتالي: «كنت أتحاشى نظر الناس لشدة تحسُّسي بنواقصي الجسمانية» (ص ٨٥). إن هذا الإحساس المتفاقم جعله «يقضم أظافره» (ص ١٢٠)، وبات «شاردًا وقليل الجاذبية وواهن العزيمة وضعيف الشخصية» (ص ١٣١)، وسيطر عليه الاعتقاد بانه «عديم النفع» (ص ٢٦٢)، و«عديم الكفاءة وأخرق بطريقة مهينة» (ص ٧٨).

إزاء صورة «المسكين» هذه، ثمة شخصية أخرى لإدوارد سعيد تعايشت مع الأولى في تنافر وانسجام في الوقت نفسه، لكنهما، معًا، تمثّلان إدوارد سعيد في حقيقته المدهشة. أما الصورة الثانية لإدوارد سعيد فهي توضح أنه كان مشاغبًا وشقيًا، ولم يتورّع عن تأليف «عصابة من الأوباش تعذب الأساتذة وتستهتر بالبرنامج الدراسي» (ص ٢٥٣)، واشتهر في كلية فيكتوريا، مع نهاية أول شهر فقط أمضاه فيها، بانه مشاغب ومثير للاضطرابات ويثرثر خلال الدروس ويتآخى مع سائر قادة التمرّد من قليلي الاحترام للأساتذة. وكان دائم الاستعداد لجواب ساخر ملغز (ص ٢٣٤). أما في منزل العائلة فصار «مستهترًا بكل اللياقات في مخاطبة الأهل والأقارب والشيوخ والأشقاء والشقيقات» (ص ٩٩)، واعتُبر «شاذًا عن السلوك القويم وكائنًا يجدر بالآخرين تجنّبه» (ص ١٠٠).

إن هذا التمرُّد البدائي كان تجسيدًا مباشرًا لرفض السلطة الأبوية القاسية، وللتحكّم الدائم بجسده وغرائزه وثيابه وأشيائه الحميمة، وهو محاولة غريزية لإزاحة الأسى الذي ناخ طويلاً على إهابه الغض، ولطرد الحرمان الذي عبث بضلوعه حتى أحاله شابًا خجولاً أضحى الانصياع لديه نمط حياة (ص ٢٥٩). وفي معمعان هذا الاضطراب عاش إدوارد سعيد في خوف سرّي لا فكاك منه، هو الخوف من عدم العودة إلى مكانه الرحمي (ص ٢٧١)، وثمة لديه إحساس دائم بالمطاردة (ص ٢٤٢)، فلم يشعر مرة براحة البال، بل كان شعوره الدائم انه في غير مكانه (ص ٢٥)، وكأنه مرصود لمواجهة أيام حياته وحيدًا أعزل إزاء الزجر والقمع والموت معًا.

## الماسوني العصابي

كان والده كائنًا غريبًا وفظًا في آن، مزج في شخصه القسوة والصمت المطبق والعاطفة العجيبة ( ص ٥٤ ) . وكان، في الوقت نفسه، خليطًا طاغيًا من القوة والسلطان ومن الانضباط العقلاني والعواطف المكتومة ( ص ٣٥ ) .

لم يبكِ مرة، ولا عبّر عن المشاعر التي لا بد أنها كانت تنتابه في اللحظات الحرجة. ويتذكر إدوارد سعيد أنه طالما توسّل إلى أمه لتخبره هل بكى والده في جنازة شقيقه أسعد في يافا . فأجابته بحزم: « لا . بل اكتفى بوضع نظارته السوداء، ولم يذرف دمعة واحدة» ( ص ١٥٥ ) .

كان إدوارد سعيد في الرابعة عندما اصطحبه والده في نزهة إلى حديقة الأسماك في القاهرة . وهو يروي هذه الحادثة على النحو التالي : « كنت أهرول خلفه وهو يحثّ الخطى ويداه معقودتان خلف ظهره . فتعثّرت ووقعت أرضًا خادشًا يدي وركبتي بخدوش عميقة . فصرخت غريزيًا : « دادي أرجوك » . فتوقف والتفت ببطء إليّ ... ظل هكذا ثانيتين لا أكثر، ثم استدار وواصل سيره من دون كلمة . وكان هذا كل ما في الأمر» ( ص ١١٢ ) .



هذا الأب العصابي والماسوني الذي اعتاد حضور اجتماعات المحفل الماسوني البالغة السرية ( ص ١٣٢ ) لم يكن يتورّع عن الاعتداء بالضرب على ابنه، على نحو مهين، حتى بعدما أصبح طالب دراسات عليا في جامعة هارفارد . وحتى والدته الحانية كانت لا تستنكف عن صفعه عندما تتملكها سورة الغضب ( ص ١٩٦ ) . وهذا الابن « الذي يُضرب ويدلَّل في آن معًا » ( ص ٢٩٢ ) أورثه والده الوحدة والتعاسة ( ص ٣٥٧ ) جراء هذه العلاقة المتسلطة والمضطربة، وكم شعر، إزاء والده، بأنه لا يعدو أن يكون « زائدة بلا نفع اسمها الإبن » ( ص ٣٥٠ ) . لهذا قرّر الخروج من مكانه في القاهرة والانغمار في أجواء مدينة ضخمة مثل نيويورك لعله يقبس بعضًا من الحرية في أرجائها الصاخبة .

لم يتمكّن إدوارد سعيد من أن يغفر لوالده ذلك التنازع على جسده وفرضه العقوبات الجسدية عليه الأمر الذي رسخ فيه شعورًا عميقًا بالخوف؛ هذا الخوف الذي أمضى معظم حياته وهو يحاول التغلّب عليه ( ص ٩٧ )، لكنه بعد عشرين سنة على وفاته، وبينما كان لدى المحلل النفساني، أخذ يذرف دموع الحزن والأسف على سنوات من النزاع الضامر الذي باعدت بينهما ضراوة والده المهيمنة وعجزه عن التعبير عن أي عاطفة إطلاقًا . وبين يدي المحلّل النفسي سمحت دموع إدوارد سعيد بإلقاء نظرة غفران على سلوك والده الأخرق وعلى العناية الرعناء التي أبداها نحو ابنه الوحيد ( ص ٣٢١ ) .

كانت علاقة الوالد بالابن « الذي يضْرِب ويدلل في آن معًا » أوديبية بامتياز : فهناك الكره الشديد لطغيان والده، والتعلق الشديد بوالدته، والحزن الغامر على فقدان الأب المهيمن والمسيطر والحامي . وعندما توفي والده تهاوت فجأة الدعائم المشيدة التي كانت تدعم حياته وتغذّيها، وتركته في فراغ مظلم . ويعترف إدوارد سعيد انه، بعد وفاة والده، « تملكني إحساس بأن صلتي البدنية المباشرة بأبي يتهددها خطر الانصرام الكامل، وهو ما يتركني بلا حماية ولا مناعة ( . . . ) . ما مصيري في غيابه؟ وماذا سيحل محل ذلك المركّب من القوة الواثقة والإرادة التي لا تقهر، والذي صرتُ متعلقًا به بطريقة لا عودة منها، وقد ادركتُ انني اتغذى منه بطريقة لا واعية؟ » ( ص ٣١٦ ) .

## الأم والجسد والعاطفة المدمّرة

عاش إدوارد سعيد حالة من الانقسام المدوّي بين سطوة الذكورة وتحنان الأنوثة معًا . فوالدته هيلدا كانت ذات « نزوع لا يرتوي إلى تنمية الوحدة بما هي شكل من اشكال الحرية والعذاب » ( ص ٣٦ ) . وبين ابتساماتها وعبوسها عاش إدوارد طفلاً سعيدًا وعظيم اليأس في آن . وبسبب برودة أبيه وحنان والدته الغمر في اتحاد لا ينفصم مع أمه . وكنتيجة لهذا الاتحاد المدمر « اغتصبت ( والدته ) موقعًا في حياته ، وتحكمت في ان تبقى فيه إلى آخر ايامها » ( ص ٢٧٥ ) . وكانت ترى في أي ارتباط له بامرأة أخرى انتقاصًا من سيطرتها عليه ( ص ٣١٢ ) . وعلى الأرجح فإن هذه السيطرة الأمومية أعاقته عن إقامة علاقة جنسية راقية وناجحة مع أي امرأة إلا بعد مضي سنتين على التحاقه بجامعة برنستون . ولا يتردد إدوارد سعيد في البوح بأن علاقته بوالدته كانت معقدة ( ص ٢٧٢ ) ، فلديها « قلق يشل إرادتها، وعدم استقرار عميق الجذور » ( ص ٣٦ ) ، واشمئزاز من الجنس ( ص ٣١٢ ) . و « لما كنتُ وحيدها ( . . . ) فقد اضحيت أداتها للتعبير عن نفسها » ( ص ٢٧٦ ) ، وبهذا المعنى وقع إدوارد سعيد بين طغيانين عاصفين : طغيان والده المتحجر القاسي، والعاطفة المضطربة حيال والدته . وهنا يتذكر بمرح « ان تحملني والدتي في ذراعيها عندما ترغب في هدهدتي وملامستي، أنا الطفل الصغير، كان ذلك هو النعيم الحقيقي » ( ص ٨٣ ) . لكن هذه الأم نفسها كانت تصد مشاعره أحيانًا باعثة رعبًا ميتافيزيقيًا في أوصاله . ولا ادري، حقًا، ما القصد من عبارة « كانت تصدّ مشاعري » ومن عبارة « الرعب الميتافيزيقي » . وربما يكون تفسير ذلك متخفيًا في ثنايا اعترافه بأن « إدانتها لي ( كانت ) أشد تدميرًا من الناحية العاطفية من تنمّر ابي وتأنيبه » ( ص ٨٦ ) .

في اي حال، كانت أشد لحظات عمره هلعًا عندما انفصل عنها مغادرًا إلى الولايات المتحدة الأمريكية: « انفصالي عنها كانه الانفصال الأول، وهو ما يورثني الحزن الذي لا يبرأ، والالتفات اليائس إلى الماضي، والخيبة والتعاسة في الحاضر. وكان العزاء الوحيد هو رسائلنا المتبادلة المتوترة والمهذارة في آن » ( ص ٢٧٢ ). وهكذا وجد نفسه فجأة وقد انتُزع من « مناخ الأمومة الغامر بعد أن كان ( هذا المناخ ) وعده بأشياء لم يفِ بها قط » ( ص ٢٦ )، وفي غربته الجديدة لم يجد حتى في رسائل أمه تسرية لوحدته أو شفاء لآلامه. فقد كانت « كل رسالة من رسائلها تعمّق جرح الهجران والفراق الذي ينزُّ في داخلي. أحيانًا أسحب حقيبة ضخمة من تحت السرير وأروح أقلّب في البومات الصور أو الرسائل ثم أروح أبكي بصمت » ( ص ٢٩١ ). وهو هنا كأنه يريد أن يقول إن والدته تتقصّد إيلامه بإثارة لوعته وحنينه إليها، فلا تنفك قائلة له: « لا تنسَ كم افتقدك وكم أُحبّك. كل شيء حولي فارغ بسبب غيابك » ( ص ٢٩١ )، أو « فكّر فيَّ وفي مدى شوقي إليك » ( ص ٢٨٢ ).

في حادثة لافتة وجريئة يروي إدوارد سعيد أنه بينما كان يتغدّى مع عائلته في مسبح السان سيمون في بيروت قفز والده فجأة من كرسيه وهمّ بالهجوم على شاب يجلس إلى مائدة مجاورة صارخًا فيه: « سوف اقلع لك عينيك الإثنتين ». ثم التفت نحو ابنه إدوارد قائلاً: « لن أسمح لأحد بأن ينظر إلى شقيقتك بهذه الطريقة ». وهنا يتساءل إدوارد سعيد: « ماذا لو حوّل أبي نظره إليّ؟ فمن يدري ما سوف يكتشفه من مشاعري تجاه أُمي، أو من شبق سري أكنّه لهذه أو تلك من نسيباتي؟ » ( ص ٢٠٤ ).



## الجنس والموت والخيال

الجنس والموت متلازمتان متّحدتان معًا في الأدب وفي الحياة أيضًا. ومن المعروف، علميًا، أن ذروة اللحظة الجنسية لدى بعض الكائنات هي لحظة الموت بعينه. أما اعترافات إدوارد سعيد فتكشف الكثير من أسرار الحياة الشبقية، لكنها تخفي تلك الصلة اللامرئية بالموت، مع أن الموت كان جزءًا من هواجسه الحيوية. ومهما يكن الأمر، فإن إدوارد سعيد الذي عاش في منزل كالح يسيطر عليه أب عصابي ووالدة تشمئز من الجنس لأسباب غير مفهومة؛ ولا يُسمح للأخ الوحيد بالدخول إلى غرفة شقيقتيه لأن « أمرًا جازمًا صدر بمنعه منعًا باتًا من دخول غرفتهما » ( ص ٨٨ )؛ منزل كان كل من فيه ينعته بـ« الأخ ذو النوايا المريبة » ( ص ٨٨ ) و« المتلصص » ( ص ١٣٦ ) و« المريض الجنسي » ( ص ٢٤١ )، لهو منزل جدير بالفرار منه ولا سيّما أن العائلة لم تتورع عن الإطباق حتى على أحلام هذا الفتى اليائس والمرتعب الذي يستعيد واحدًا من الأيام العصيبة قائلاً: « بعد ظهر يوم أحد قارس

البرد، في أواخر تشرين الثاني / نوفمبر من عام ١٩٤٩، وفي تمام الساعة الثالثة، وبعد أسابيع معدودة من بلوغي الرابعة عشرة، حدث طرق قوي على باب غرفة نومي أعقبه على الفور لوي متسلّط وصارم لمقبض الباب. وإذا هي زيارة للأهل بعيدة كل البعد من أن تكون ودية، بل هي كبسة شرسة بامتياز على شخصي جرى الإعداد لها مما لا يقل عن ثلاث سنوات إلى حين بلوغها تلك الذروة ( ... ). وقف أبي قرب الباب ممسكًا بقرف القطعة السفلية من منامتي بيده اليمنى ( ... ) وقال ملوّحًا بالمنامة: أنا وأمك لاحظنا أنك لم تستحلم، وهذا يعني أنك تعبث بجسدك» ( ص ١٠١ ). ويضيف إدوارد سعيد: «امتلكتني على الفور حال من الرعب والذنب والعيب والهشاشة إلى درجة أني لن أنسى ذلك المشهد ما حييت» ( ص ١٠٣ )، وبالتأكيد لم ينسَ هذا الهلع قط، فبعد نحو خمس وأربعين سنة ما زال يتذكر أن الحادثة وقعت، بالتحديد، بعد ظهر يوم أحد في أواخر تشرين الثاني ١٩٤٩ في تمام الساعة الثالثة؛ فهذه التفصيلات الزمنية ما زالت، كالوشم الدامي، محفورة في خلايا ذاكرته. ومنذ ذلك اليوم الراعب «صارت تحديقة والديَّ أكثر ارتيابًا بعد اكتشافهما خرقي المحرمات من خلال ممارستي العبث بجسدي» ( ص ٢٣٦ ). على أن إدوارد سعيد الذي لم يعبث بأي امرأة قط، أو مع أي فتاة البتة طوال سنواته في القاهرة، راح يؤلف، إبان دراسته في كلية فيكتوريا، نصوصًا من الأدب الإباحي. وفي هذه النصوص كان يلعب دور الراوي ويحشوها بأحداث متخيلة وقعت له مع عدد من النساء الأكبر منه سنًا، «معظمهن من صديقات العائلة أو حتى من القريبات» ( ص ٢٤١ )، وبالتأكيد لم يتمكن من تطوير أي علاقة مع أي من القريبات أو الصديقات على الرغم من أن كمال مرشاق، الشامي المصري، كان يشجعه «على التفكير بإقامة علاقات جنسية مع نساء متزوجات» ( ص ٢٤٥ ).





الجنس الوحيد الذي عرفه إدوارد سعيد في القاهرة كان جنسًا متخيلاً. والجسد الوحيد الذي أشعل فيه حرائق خلاّبة كان جسد تحيّة كاريوكا الذي رأى فيه مثالاً لامرأة لاهية تلسع جسده بقضبان الشهوة. ففي سنة ١٩٥٠، في ملهى بديعة مصابني، شاهد تحيّة كاريوكا ترقص والمطرب عبد العزيز محمود يغني. وها هو يستعيد هذه الذكرى المتوهجة في ذاكرته كالتالي: «كان ردفاها وساقاها ونهداها أبلغ بوحًا من كل ما حلمت به أو تخيّلته في نثري الاستمنائي الفظ، وكانت تنضح بشهوة فردوسية. تحت على وجه تحيّة بسمة تنم عن لذة منفلتة من كل قيد. يعبر فمها المفتر قليلاً عن نعيم النشوة ( ... ). إن أداء تحية نوراني وشهواني إلى حد مستبعد التصديق» ( ص ٢٤٢ ). وإدوارد سعيد كان مثل تحيّة كاريوكا: شهواني ونوراني في الوقت نفسه. وبين هذين الحدين عاش ممزقًا مؤلمًا وتأرجح

بين تربية بروتستانتية مقتصدة في العواطف والمتع، وبين غرائز فائرة لا تبغي إلا الانطلاق وتحطيم الموانع والمحرّمات.

## الموت والإله الغائب

في سنة ١٩٥٦ سأل إدوارد سعيد ميليا بدر، وهي خالة أمه وابنة قسيس إنجيلي: «هل الله موجود؟»، فأجابته: «أشك في ذلك كثيرًا.» (ص ٣٨). لا يفصح إدوارد سعيد هل أراحت هذه الإجابة نفسه الحائرة، أم خلخلت كيانه. والواضح أنه عاش، في هذه الفترة، قلقًا، واضطرابًا عميقًا، وتشكيكًا حارقًا في أسئلة الوجود والميتافيزيقا. وعلى الرغم من ذلك لم يتحدث كثيرًا عن الموت مع أن الموت بالسرطان كان محدقًا بحياته. فوالده مات بالسرطان ووالدته ماتت بالسرطان أيضًا، وكان تعرض للموت في صيف سنة ١٩٥٨ في سويسرا جراء حادث سير راعب عندما اصطدمت سيارته بدراجة نارية، فقُتل سائق الدراجة وأصيب هو بجروح وكسور، وفي ما بعد، في ٢٥/٩/٢٠٠٣، مات بالسرطان أيضًا.

كانت حياته سلسلة من الاختبارات المريرة. لكن موت صديقه الشاعر الباكستاني إقبال أحمد الذي طالما دافع عن الجزائر وفلسطين، ثم موت إبراهيم أبو لغد، كان لهما شأن كبير في انكماش عالمه الفسيح.

راوغ الموت طويلاً حتى تغلّبت الموت عليه! وحتى موته الجسداني كان يقول إن «قدر الفلسطينيين ألا ينتهي بهم المطاف حيث ابتدأوا، بل في مكان غير متوقع، أي في مكان بعيد». وها هو ينتهي، بالفعل، في غير المكان الذي بدأ منه. فقد أوصى بأن يُدفن في بلدة ضهور الشوير اللبنانية، «هذه البلدة التي كان يقول عنها إنها قرية «مملة ومخدِّرة للعقل» (ص ٥٤). ولا غرابة في هذا الأمر، فوالده المقدسي دفن في بيروت، ووالدته النصراوية دفنت في واشنطن.

كان تاريخ حياته فوضى كاملة. وهو عاش أعوامه كلها خارج مكانه، نافرًا كالجواد الهارب، كأنه يبحث عن مكان يعود إليه، أو مستقر يهجع فيه. لكنه، قبل أن توشك رحلة العمر على النهاية، انبثق في داخله ضرب من الحكمة المتوهجة فأفصح، بكلام فصيح ما بعده بيان أو إفصاح، أنه ما عاد باحثًا عن مكان أبدًا، بل عن نعاس أو رقاد: «الآن لم يعد يهمّني أن أكون سويًا وفي مكاني. بل إنني لم أعد أرغب أصلاً في ذلك. خير لي أن أهيم على وجهي في غير مكاني، وأن لا أملك بيتًا ولا أشعر أبدًا كأنني في بيتي أو في أي مكان،

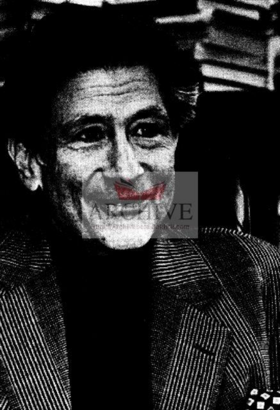
خصوصاً في مدينة مثل نيويورك حيث سأعيش إلى حين وفاتي » ( ص ٣٥٧ ) .
عرف إدوارد سعيد أن حظّه من هذه الحياة هو ألا يكون سويًا تمامًا، وأن يظل في غير مكانه . وفي هذه العبارة الكثيفة يكمن إبداعه المدهش وتجربته الخلاّبة .

- مذكّرات إدوارد سعيد : « خارج المكان » . ترجمة فواز طرابلسي . « دار الآداب » ، بيروت، ٢٠٠٠ .





باحث فلسطيني، عضو في هيئة تحرير مجلة «الدراسات الفلسطينية» (بيروت)،
وكاتب في جريدة «السفير» اللبنانية


ARCHIVE

عوديد بلبان

# سعيد الآخر



احتراماً لذكرى إدوارد سعيد، بودّي أن أخصّص تفكيري في دربه السياسية والأفكار التي وجّهته. في كثير من الأحيان، تشكّل وفاة المشاهير التوقيت الذي يتم نسيانهم فيه، وبالذات لأن الحديث حولهم يكثر. الخطر الذي يهدد فهم أقوال سعيد، وهو مثار الخلاف إلى حد بعيد، هو خطر كبير بشكل خاص. سيقول أصدقاؤه إن سعيد، فكّر مثلهم؛ سيقدّرونه على ما يقولونه هم أنفسهم، أي أنهم سيتجسّدون أمام ذواتهم في شخصه. سيكيلون له المديح، إلى درجة تمويه أفكاره، من أجل إدراجه في نهجهم، والعودة إلى مزاميرهم الخاصة باسمه. بالمقابل، سيتّهمه أعداؤه بكل ما يحتقرونه، حتى لو اقتضى الأمر أن يبنوا لأنفسهم فزّاعة لا علاقة لها بدرب هذا الذي يتعرّض للهجوم.



لقد فعلوا هذا ولا يزالون. كان هناك من امتدحه، وهو لا يزال على قيد الحياة، فلدينا رجل مبادئ، وكمثقف يحلو له أن يحلم ويهذي، وأن يبقى في منأى عن المشاركة السياسية الواقعية العملية. يعتقد هؤلاء، كما يبدو، أن السياسة عديمة المبادئ، ويجب أن تنقذ المثقّف من براثنها. وهكذا، حين يهينون السياسة إلى درجة اعتبارها نشاطاً حقيراً، من أجل عرضها كما لو أنها لا تلائم سعيد، فإنهم عملياً أبعدوا سعيد عن السياسة. ومن أجل سجنه في البرج العاجي الذي يلائمه، افتراضاً، فإنهم مستعدون لفصل الفكرة عن الممارسة. إنهم يتركون الممارسة دون فكرة، حين يسمّون الفكرة «حلماً»، وبهذا يشوّهون السياسة وشخص الرجل معاً.

لكن الأمر ليس على هذه الحال. فسعيد ليس حلمانياً ولا مؤدلجاً، بل عملي ومثالي. فالمثالي خلافاً للحالم، هو الذي ينتقي الوسائل القابلة للتحقيق من أجل تجسيد مُثله. المُثل تقود أفعاله.

ولكن سعيد لم يكن في حياته سياسياً ولا صاحب أي وظيفة رسمية. لقد فضّل بنفسه الحفاظ على مكانته كمثقف دون تكليف، كما اقتبس موافقاً مع جينتر جراس.

محاولة نسب مواقف أو مكانة لم تكن لسعيد، هي محاولة لتجنيده. ولكنه لم يكن قابلاً لهذا التجنيد.

سعيد نفسه تطرّق إلى ظاهرة تجنيد أفكاره دون أن تكون لها علاقة بسياقها:

> «رغم سياستي المعادية للدين بتطرّف، ففي العالم الإسلامي يصفونني في الكثير من الأحيان بحماس كمُدافع عن الإسلام، وتعتقد عدد من الجماعات الإسلامية أنني أحد مؤيديها. لا يوجد أبعد من الحقيقة من هذا، كما يبعد عنها القول إنني كنت سأتحدث في صالح الإرهاب»[1].

لقد كان سعيد ملحداً فعلاً. وهو نصح صحفيًا دانماركيًا جاء لمقابلته بقراءة روايات حديثة في العالم الإسلامي، ككتب جبرا ابراهيم جبرا، الطيّب صالح، نجيب محفوظ، أو بشار كمال، مؤكداً له أنه سيجد فيها قيمة أكبر من البحث عن وجهته في القرآن[2].

مثال آخر على رد سعيد على المديح الذي كالوه له: بعد أن وصف اتفاق أوسلو كمشوّه في أساسه، وصفوه كـ«عدو السلام». وحين توقّفت العملية نهائيًا، واعترفوا أنه تنبّأ بالفشل، ادعى أنه كان أول المتفاجئين وقال محتجاً، إن التنبّؤ ليس واحداً من عتاده[3].

يبدو أن سعيد لم يرغب أن يكون غير مفهوم، ولكن ليس أن يكون مفهوماً أكثر من اللازم أيضًا. لقد فضّل الحوار الذي يثير خلافًا ثقافيًا. اعترف بالصراع بين مكانته كمثقف، وبين رغبته في التأثير السياسي من خلال كتاباته. معيار الكتابة السياسية ليس التأثير فحسب، بل مدى التأثير أيضًا، أي الفائدة. المثقف ملتزم بالحقيقة. الحقيقة والفائدة غريبتان الواحدة عن الأخرى في المبدأ. إنهما لا تتوافقان.

وظيفة السياسي ووظيفة المثقف غير قابلتين للجمع:

> وظيفة المثقف قول الحقيقة بوضوح، بشكل مباشر ونزيه قدر الإمكان. لا يجدر بأي مثقف أن يخشى من أن تكون أقواله محرجة، ملائمة أو غير ملائمة لأسماع ذوي السلطة[4].
>
> وظيفة السياسي، بالمقابل، هي دفع المصالح التي يصبح شرعيًا التنازل عن الحقيقة لأجلها. هذه هي حقيقة السياسة[5].

على هذه الخلفية يجب فهم موقفه بأن السياسة لا تنشغل بالممكن بل بالمرغوب فيه[6]. لا يقصد بهذا أن المرغوب فيه ليس ممكنًا، بل إن المرغوب فيه، المنشود، هو بوصلة الممكن. البراجماتي ليس من يميّز ويبني الممكن، بل من يقوم بذلك استناداً للمنشود. البراجماتي الذي يفتقر للمُثُل ليس عمليًا حتى، لأنه أشبه بمن يستعمل الوسائل دون أن يدري لأجل ماذا.

ينتج من هذا كله ان مكانة المثقف الحُرّ، الذي يرغب في التاثير بشكل سياسي عملي، تتضمن توترًا داخليًا. سعيد اخذ على عاتقه المسؤولية عن هذا التوتر بداخله (فهو لم يرغب في التنازل – لا عن السياسة ولا عن الحرية الثقافية). لهذا، اعترف بالطابع الموشوري كما قال، لكتاباته السياسية. اي انه قبلَ على نفسه حقيقة انها قابلة لمختلف التفسيرات من وجهات نظر مختلفة، وحتى أنها قابلة للتشويه.

لم يكن سعيد مثقفًا منقطعًا عمّا يجري، من أولئك الذين يطلقون الاقتراحات دون التساؤل كيف من الممكن أن تُطبّق في السياق الذي تُطرح فيه. ولكنه أصاب في تبرّمه من ردود المؤيدين والخصوم، لأن هذه الشخصية للمثقف المبتور هي التي يميل التاريخ إلى تتويجه بها. ولكن سعيد صاحب الافكار السياسية كان معنيًا بوضوح ايضًا بالمُمكن. لقد عرف كيف يطلب حلولاً عملية، ورفض الاهداف غير المرغوب بها (التي لا تلائم مُثُله)، وكذلك الاهداف غير العملية، اي غير القابلة للتحقيق. ما هو الحل للصراع الإسرائيلي – الفلسطيني – سأل:

عملية عسكرية؟ حلم. محادثات أوسلو إضافية؟ طبعًا لا. هل بخسارة حياة أخرى من قبل شباننا الجريئين، الذين يرسلهم القائد دون دعم وتوجيه؟ الرحمة، ولكن كلا. الثقة بالدول العربية التي انتهكت حق وعودها بتوفير مساعدة طارئة؟ هيّا، كونوا جديين![2].





ما الذي يرفضه سعيد هنا؟ أهي الحلول غير المرغوب بها، أو غير العملية؟ إنه يعرض كل الاقتراحات كغير عملية، ولكن هناك قادة يدعمون بعض المقترحات؛ والسياسيون لا يخصصون الموارد لحلول غير واقعية. اي ان سعيد يرى في هذه الحلول أهدافًا غير مرغوب بها، غير جديرة حسب رؤيته. هذه الحلول، التي يرفضها سعيد، كلها حلول فصل، أبرتهايد. البديل، حسب سعيد، هو التحدث بلغة المصالحة، تلك القادرة ليس على السيطرة على خيال الفلسطينيين، بل على الإسرائيليين أيضًا.

لم ينجح بالمرة بالسيطرة لا على خيال الفلسطينيين ولا الإسرائيليين. هل هذه علامة على فشله؟ لست أدري. السؤال هو: هل كان لديه بديل؟ في الجو السياسي الخانق الذي أراد التاثير عليه، ربما كان عليه الاختيار ما بين الصمت وما بين النبذ كمتعاون، ومعناه الرفض التام لمقترحاته. ولذلك فضّل ان يبقى غير مفهوم تمامًا، على الاّ يكون مفهومًا كما يجب. التمويه الذي اعتمده بواسطة الأيديولوجيا، هو إثبات على الصراع.

كان هذا هو البديل للصراخ والتهجّم. الصراخ هو إمكانية، وهي تُطبّق. ولكن كما قلنا – ليس كل ما هو ممكن مرغوب فيه. لقد هاجم سعيد التهجّم بشدّة. وحسب وجهته

فالقومجية التهجّمية لا تناقض العقل والفهم المُعقلن فحسب، بل أيضًا وعي الإنسان العادي(٨). هذا هو الشعور الذي يتنامى حين تتقدم الفردانية، حين تنخرط الجماهير في المظاهرة، وتنقاد للتحمّس بواسطة أولئك الذين جاء دورهم للقبض على مكبّر الصوت وصعود المنابر. يونتان سويفت، كاتب قدّره سعيد واقتبسه، انتقد بسخرية الأوضاع التي تُلقى فيها الكلمات من على المنابر، ويتم تلقيها دون نقد. الكلمات، قال، هي ظواهر فيزيائية ذات وزن ووقع، ولذلك يمكن للجماهير التقاطها:

> لقد علّمت الطبيعة نفسها السامعين الوقوف بأفواه مفغورة وموجهة إلى أعلى، إلى الأفق، بحيث يكون بالإمكان قطعها بخط عمودي من الأعلى حتى مركز الكرة الأرضية. في هذا الموقف، إذا تلاحم الجمهور جيدًا، يأخذ كل واحد حصته إلى بيته، والبعض، أو لا شيء، يضيع(٩).

رغم التمويه، فإن سعيد كان الهرطقي الذي كانت لديه جراة قول ما يفكر به. ولهذا كان قدره الأ يكون مسموعًا. وأنا أرغب هنا في إنقاذ سعيد غير المسموع، وكشف الحل المثالي للصراع الإسرائيلي – الفلسطيني حسب رؤيته، والطرق المحددة التي اقترح اتخاذها.

لقد تبنّى سعيد رأي ثيودور أدورنو، بأن الكاتب هو عديم الوطن والبيت، والكتابة تتحوّل إلى مكان سكناه، وهو الذي يمتنع عليه التوطن فيه أيضًا، إنه يعيش دون جذور، خطّ مميّز للمثقف. لقد علّم الأدب في جامعة كولومبيا، بعيدًا عن الشرق الأوسط. موقفه السجالي تجاه الشرق الأوسط كان هويته، التي حاول من خلالها زرع جذوره فيه. أسلوبه المحسوب في النقد الأدبي، يناقض كل كتاباته السياسية السيّالة والسجاليّة، التي يبدو بشكل لا يخلو من مفارقة أنه يحث فيها عن بيت وعن راحة من تشدّد المنهج الأكاديمي. رغم ذلك، فحتى كتاباته السجالية، التي أريد التطرّق إليها هنا في ذكراه، زاخرة بالمنهجية والوضوح التفكيريين.

يدّعي عدد من النقّاد ضده أنه كان نقديًا ونقديًا فقط. وهم يتّهمونه بأنه لم يطرح أية فكرة عملية، مع أخذ السياق الراهن بالحسبان، بشأن الطريق التي يجب بها حل النزاع الإسرائيلي – الفلسطيني. هذا صحيح جزئيًا فقط. هناك مجال واحد اقترح سعيد فيه خطوات محددة: الطريق الذي يجب على السلطة الفلسطينية وقيادتها اعتماده. بالنسبة لكل ما تبقى، أكثَر من النقد، الاتهام وإعلان المُثُل. ولا أنتقد مُثُله. بالعكس، أعتقد أنه يجب إنقاذها. بالإضافة إلى ذلك، من خلال الاستنكارات والاتهامات، يمكن حتى دراسة قسم من الخطوات السياسية المحددة التي اقترح اعتمادها.

الطريق السهل للتوجه إلى سعيد هي انتقاده. وإنني أجرؤ على القول إنه جرّ عليه النقد بقصد. كان لديه جاذبية للسجال، وعرف كيف يثيره. السجال هو خبز الأكاديميا. ولكن بودّي الخوض في سعيد الآخر، ليس هذا الذي يمتدحونه ولا الذي يذمّونه، سلبًا أو إيجابًا، فتلك مقولات إطلاقية. إنها لا تقول شيئًا جديدًا. أحيانًا يقبر المديح تحته مضمونًا معينًا. والذم أيضًا هو مهمّة بسيطة وخالية من المضمون. لا يوجد أسهل من كيل الإنتقاد، أقرّ هيجل. يمكن معارضة كل القول. المهمّة الأصعب هي متابعة منهجية الآخر. تعالوا نفترض، إذن، أن سعيد كان منهجيًا. لسببين: لنعطيه حقّه، ولكي نلزم أنفسنا بتفكير منتظم.

من كان سعيد، إن لم يكن ذلك الوطني الملتهب كما سيعرّفه البعض، أو المثقف المبتور، كما سيوافق عديدون، أو الناقد اللاذع الذي ليس في جعبته برنامج عملي، أو العدوّ الخطير، كما يعتبره إسرائيليون عديدون؟ من هو إن لم يكن ما قيل عنه؟ أنا أعتقد أنه كان «الآخر» قياسًا بكل ذلك، وهذا ما أرغب في أن أظهره.

## مصالحة، تبادلية وقذع





لقد عاد سعيد وكرّر مواقفه في عدد من المسائل التي كانت مركزية من ناحيته، ومرتبطة بشكل حميم. فوق ذلك، مواقفه في تلك المسائل كانت أوجهًا متعددة للفكرة نفسها. يمكن تلخيص هذه المواقف كفصول: الإلتزام بتحقيق المصير للفلسطينيين؛ معارضة سياسة عرفات؛ النضال على حق العودة للفلسطينيين؛ الأعتراف بحق العودة لليهود؛ النضال على دمقرطة السلطة الفلسطينية؛ أهمية إسرائيل كدمقراطية أكثر؛ رفض إتفاقات أوسلو؛ رفض حلّ الحدود المُغلقة؛ مثال – ثنائية القومية (لاحقًا، سأفصّل أكثر ماذا يعني هذا المثال). الفكرة التي توحّد كل هذه المواقف هي المصالحة. سعيد كان داعية للمصالحة: أعطى نفسه الحق في الكلام وحتى في الشّتم. يبدو كما لو أنه أراد فحص حدود حرية التعبير وحتى استفزازها، حتى يعلن أن المصالحة لا تعني تقييد التعبير الحرّ عن المواقف، ولا تعني التنازل عن قيم، ولا الأمتناع عن النقاش. المصالحة معناها الالتزام العميق بكل هذا.

لقد تجنّد سعيد ما يزيد عن ٣٥ عامًا للدفاع عن حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير، ولكن بدون تجاهل المعاناة التي لحقت بالشعب اليهودي، بسبب الملاحقة والكارثة. لقد كان من المهم لديه، حين أراد إيقاف الشعب الاول على رجلية، الا يدوس الثاني. الأعتراف بانه لا توجد معاناة حصرية لاحد الشعبين، هي الحاسمة بأهميتها،

حسب رأيه.

ثيودور هرتسل، مؤسس الصهيونية السياسية، كان يعتقد أن المسألة اليهودية هي الملاحقات والكارثة التي تهدّد شعبه، وأن الحل الوحيد هو إقامة ملجأ قومي لمن يتعرّضون للملاحقة. لم تكن لدى سعيد أية مشكلة مع أفكار هرتسل. ولكنه طلب الاعتراف أيضاً بالمعاناة الفلسطينية. لقد بحث عن التعايش المشترك وليس عن تضخيم المعاناة والقمع لأحد الطرفين على حساب الآخر. ممنوع على ضحية القمع التعلّم من التاريخ والتحوّل إلى قامع.

اللغة، ظاهرة ثنائية اللون لا تسمح بجمع كل الأفكار مع كل التحفّظات في الوقت نفسه. حكم اللغة هذا يصعّب على حياة الإنسان صاحب الأفكار السياسية التي لا تجتمع في موقف سياسي مُقولب ومتوقّع. وإذا تبطّنت الأفكار طبقة أيديولوجية تجعلها موشورية، فليس من المستغرب أن الأفكار محكوم عليها بأن تكون غير مفهومة. لذلك، حين عرض سعيد بحدّته المعهودة، موقفاً معيناً، كان يبدو للعديدين أنه يمكن اشتقاق كل دربه منه. وهكذا، فردود الفعل على أقواله، سواء من المؤيدين أو المعارضين، تمحورت في أحيان عديدة حول مواقف ليست له. واعياً لهذا الخطر، أريد الطلب من القارئ الامتناع عن الأحكام، واعتماد النفس الطويل حتى أتمكّن من عرض النقاط الأساسية في موقف سعيد السياسي، وهي ليست دمجاً معروفاً، مع أنها، كما قيل، منهجية.

لقد كال أقسى الكلمات اللاذعة لسياسيين إسرائيليين. لقد خصّص لأريئيل شارون مصطلحات مثل «قاتل»، «مجرم حرب»، و«مهووس»، والذي كان «مبهوراً بالهذيان الفارغ والهوس لأيديولوجيته الخاصة»[٢٠]. وقال عن شمعون بيرس إنه «ربما السياسي الأكثر جبناً ونفاقاً بين كل سياسيي العالم اليوم»[٢١].

ولكن كمن درس نظرية أدورنو وكمن قدّره، لم يوفّر فرصة لعرض التبادلية القائمة في السياسة. العمل السياسي لا يمكن أن يظلّ فارغاً دون ردّ فعل. ولذلك أعتقد أن الأمر الوحيد الذي يحققه شارون من سياسته ضد عرفات هو إعلاء شأن القائد الفلسطيني[٢٢]. وهذا ليس هجوماً على شارون بقدر ما هو نقد لعرفات، الذي يتّهمه كمن يلعب بما يخدم القادة الإسرائيليين (أي أنه «متعاون» بالمعنى السلبي للكلمة)، لأن شارون في نهاية المطاف هو:

> مشكلة إسرائيل. بالنسبة لنا، الهدف الأول هو أن نقوم بشكل أخلاقي بكل ما في وسعنا حتى نضمن رغم كل المعاناة والدمار اللذين يُفرضان علينا من خلال حرب إجرامية، أننا نخطو إلى الأمام[٢٣].

بالنسبة لتبادلية النزاعات والمصير المشترك الذي يربط المتصارعين، يقتبس سعيد، موافقًا، جورج أنطونيوس:

في أحيان متقاربة يحدث في تاريخ الأمم، أن الصراع بين القوى المتناقضة، الذي يبدو وكما لو أنه محكوم بانتصار الطرف القوي، يتخذ نقطة تحوّل غير متوقعة، عبر اعتلاء الحكم قوى جديدة، تدين باعتلائها بالذات إلى هذا النصر الوهمي[١٤].

## رفض للفصل

ماذا كانت أحلام سعيد، وما هي مقترحاته العملية؟

لم يطالب سعيد بعدالة تاريخية، لم يطالب بإصلاح غبن الماضي: لا نقمة ولا تعويضًا. لقد أراد حل المشاكل في تحوّلاتها الراهنة. السؤال الذي طرحه كان: كيف «نخوض في قضايا نزاع على نفس الأرض، ومطالب متخاصمة لهويات إثنية – قومية». كيف نحل المشكلة من دون تنازلات كبيرة لأيٍّ من الطرفين. لقد بحث عن حل أفضل من تسوية. في التسوية – كل طرف يتنازل؛ حل أفضل من تسوية هو الذي يكسب كل طرف في إطاره. أي أن وضع الطرفين يتحسّن (بترجمة إلى لغة نظرية حل النزاعات – وضع win-win).

في المدى البعيد، الحل الأسوأ، حسب رأيه، هو دولتان منفصلتان لقوميتين. كان واضحًا له أن الحلول، الإنفصالية بالتقسيم، التي تشجع التجانس الإثني أو الديني، ليس أنها فشلت فقط:

بل أنها تنسخ وتزيد المشاكل التي يفترض أن تحلّها. كانت هناك فكرة بتقسيم إيرلندا بين بروتستانت وكاثوليك. هذا لم ينجح. فكرة تقسيم قبرص بين أتراك ويونانيين لم تنجح أيضًا. تقسيم فلسطين بين اليهود والعرب لم ينجح[١٥].

اعتقد سعيد أن تقسيم فلسطين هو خطأ، مثلما أن المطالب بعدالة تاريخية هي مخطوءة. الحقوق التاريخية، برأيه، هي توجّه نحو الماضي لإعداد نقمات المستقبل.

كل فكرة التقسيم ومحاولة فصل مجموعات إثنيّة عاشت معًا، بهذا الشكل أو ذاك، في عداوة أم لا، إلى دول نقية – هي خطأ. أنظروا إلى الهند، وهي دولة هندية بمعظمها، ولكن لديها سكانًا مسلمين عددهم من ١٢٠ حتى ١٥٠ مليون إنسان. ماذا تفعل بالنسبة لهم؟[١٦]

الفصل كحل للمدى القصير، ربما وارد في الاعتبار. ولكن بشرط أن تزيد كل خطوة تُنجز خلال إقامة الدولة الفلسطينية – وليس أن تقلّل – من التعاون مع إسرائيل. هذا إذن

هو السؤال الذي يجب أن يُسأل بالنسبة لاقتراح الحلّ: هل الحل المُقترح يقوّي التعاون أم يضعفه؟ هل هو بمثابة تجسيد جزئي على الأقل للرؤيا، أم إبعاد لها؟ حين تقلّل خطوة ما من التعاون – يجب رفضها، حسب سعيد. وكما سنرى لاحقًا، هذه هي النقطة الحاسمة، التي جعلته يبتعد عن عرفات ويعارض سياسته.

نعم – فقد كان بالمفهوم الإيجابي للكلمة، الذي تمّ نسيانه اليوم تقريبًا – متعاونًا.

## لنتذكّر وننسى

نتائج الصراع، حسب سعيد، مرتبطة بقطبين مترابطين ضد المستقبل: التركيز على الاستقلال في إسرائيل، بينما لدى الفلسطينيين – التركيز على النكبة. الذاكرة الانتقائية التي تتجسّد في هذين المحورين، تغذّي الكراهية وتمنع إمكانية التعايش. المستقبل متعلّق بما يرغب كل واحد في تذكّره. يفضّلون تذكُّر ما يشرعن الصراع، وما يبغيه كل طرف من المستقبل. هذا لا يعني الانتظار الخامل، بل بلورة المستقبل بواسطة تعميق الذاكرة. الانتقائية فيما يسمى «الذاكرة التاريخية» للشعوب مفروضة قسرًا دائمًا، ومشوّهة دائمًا، يمكن للشعوب أن تتذكّر ماضيها بشكل مختلف، حسب المستقبل المرغوب، يقرّ سعيد.

لم يكن سعيد «مؤرخًا جديدًا». لم يؤمن أنه لا توجد حقائق تاريخية، مثل أولئك المؤرخين الذين يقومون باختزال الحقائق إلى «روايات». ولكن فيما يتجاوز سؤال، ما هو علم التاريخ، حين تكون المسألة أن تصنعه وليس أن تعرفه فقط، يؤمن سعيد بتعزيز انتقائية الذاكرة، وبحرية التذكّر والنسيان من أجل مستقبل دمج الشعبين. أي، أنه ينصح بالنسيان المقصود لما يترك اغترابًا بينهما. من المهم الاعتراف بالماضي، ولكن هذا من أجل استخلاص عبر تختلف عمّا اعتاد الإسرائيليون والفلسطينيون استخلاصه. يجب معرفة الماضي حتى نتأكد من مدى تركيبه.

تاريخ «الحرمان الفلسطيني» وتاريخ «اللاسامية والكارثة»، اللذان يغذّيان تجربة الفلسطينيين واليهود، كان يفترض أن يقودا إلى خلاصة أن الحديث يدور حول شعبين ذوي تاريخ من المعاناة، أي أن لديهما قاسمًا مشتركًا واسعًا. وبدلاً من التركيز على أن المسألة هي هويتان إثنيتان، تتنافسان على الكراهية، كان عليهما تبنّي لغة مشتركة، والقول لأنفسهما: «هاتان هما مجموعتان أنهكتهما المعاناة»[١٧]، كان سعيد هو من قام، خلال لقاء سنة ١٩٨٨ مع سلمان رشدي، بوضع المصطلح الذي يصف الفلسطينيين كـ«ضحايا الضحايا»[١٨].

الذاكرة التاريخية – حين تكون سياسية وليس أكاديمية – هي مشوّهة دائمًا. السؤال

هو، هل يجب حل غبن الماضي بواسطة القضاء على الآخر، أم بالحياة معاً. كواحد من المعجبين بالكاتب الأرجنتيني خورخيه لويس بورخيس يذكّرنا سعيد بواحد من أبطال قصصه، فونس صاحب الذاكرة، الذي أصيب بكونه يتذكر كل شيء، ولذلك لم يكن قادراً على التفكير. حتى يفكر، كان عليه أن يعرف كيف ينسى[١٩]. سعيد يذكر فونس، الذي يقف في القطب المتطرف للذاكرة، بوصفه الموجّه النقيض أمام مخاطر الذاكرة، وأيضاً كي يقول إن كل ذاكرة غير قادرة أصلاً على احتواء كل شيء، ولو كان الأمر كذلك فإن كل ذاكرة هي انتقائية (لأن الذاكرة التامة توجب استعادة كل المجرى بكل سياقاته، بما في ذلك مدّته الزمنية). الذاكرة الإنتقائية للفلسطينيين والإسرائيليين تعرض روايتين متناقضتين، «أُخرج منهما مفهوم التعايش»[٢٠].

## الإستشراق والهوية

في كتابه غير المقروء، أو – الأسوأ من ذلك – المقروء بشكل مخطوء، «الإستشراق»[٢١]، ينتقد سعيد مفهوم الإستشراق بمعنييه: الإستشراق كايديولوجيا والإستشراق كثيمة اكاديمية تحمل الإسم نفسه.

الإستشراق كثيمة هو نمط تفكير، شكل من التفكير بالشرق. سعيد يدعي أن الغرب هو الذي خلق الشرق، من أجل السيطرة عليه بوصفه المختلف، الشرق ليس الآخر الانطولوجي، إنه الآخر بوصفه يرتسم على هذا الشكل في عقل المستشرقين. إنه الوسيلة لتعريف الغرب ذاتياً. الغرب يخترع لنفسه «آخره»، الذي يعرّف المعرِّف أكثر مما يعرّف المعرَّف، الغرب أكثر منه الشرق. الشرق هو نمط مقولب بناه الغرب. لا يعني هذا أنه ليست هناك مميزات للشرق، وفروقات ثقافية بينه وبين الغرب. بالطبع توجد. ولكن الشرق كتعميم، كثقافة مع مميّزات مشتركة، يبدو له بعيداً عن حقيقة الأفراد. فبين الأفراد، افترض، يمكن اكتشاف فروقات أكثر مما بين الثقافات. هذه بالفعل مشتركة بالنسبة لكثيرين عبر الإنتماء لنوع، مشاركة مجرّدة جداً، ولا تستنفد الحياة الفعلية.

الدفاع عن الهوية العربية، كالتي يخترعها المستشرقون في الغرب، بالتعاون مع أصوليي الشرق الذين يتبنون الهوية التي يحاول أولئك إلصاقها بهم – هو أمر يجب رفضه. هذا تعميم بيولوجي وراي ديني مسبق. استعمال تعريفات كهذه كمعيار تاريخي هو خطيئة بحق الوعي. بدلاً من الحديث عن الشرق، على التاريخ كعلم أن يكون نظرياً أكثر. بدلاً من وضع رؤية تعميمية للشرق – لنصف الكرة الأرضية الذي هو غرب الغرب – يجدر بالمؤرخين تبنّي شكل من التاريخ يتعاطى مع التركيب والخصوصية. أي، كان عليهم التعاطي مع ما يترك مساحة للتباين الدينامي في التجربة الإنسانية[٢٢]. المستشرق في بحثه

عن المميّزات المشتركة للثقافات ذات الخصوصيات المختلفة، يبقى صفر اليدين من حيث المضمون، قابضاً على تجريدات فحسب. وكلما بحث أكثر عن الشراكة الثقافية الصفات، يصبح منتوجه مجرداً أكثر. ولكن كلما كانت الخلاصات فارغة أكثر، كلما صدّق أن يديه تقبضان على شيء يصف واقعاً ما.

سعيد يحنّ في كتابه الى تلك الفترات وإلى أولئك الباحثين الذين حاولوا التعلّم من الشرق، وليس التعرّف عليه خارجياً فحسب، قبل ان يكون قد اختُرع الفصل، شرق - غرب. وبشكل خاص في مجال الابحاث الألسنية. الالسنية هي تفكير يتيح الحفاظ على مسافة (« كما يفعل الفنانون الكبار ») من حاضرك ومن ماضيك المباشر[٢٣].

بالنسبة للإستشراق كايديولوجيا، يدّعي سعيد انه شكل مركب من اللاسامية الغربية[٢٤]، وحتى علماء في الألسنية مثل فريدريك شلغل لا يشذّون عن القاعدة في هذا المضمار[٢٥]. لقد رفض سعيد استعمال الشرق لحاجات سياسية. المبدأ الموجّه لديه أنه ممنوع استعمال الفروقات الشرعية بين الشعوب بهدف الهيمنة. لا من أجل هيمنة الحاكم على المحكوم ولا حتى بوجهها الآخر - هيمنة المحكوم على الحاكم بعد أن يكون قد تعلّم المغزى التاريخي المخطوء. الاختلافات الثقافية هي، لو أردناها هكذا، هي اختلافات سليمة، لا تمنع بحد ذاتها التعايش بين الشعوب، والمقصود ليس تعايش الواحد بجانب الآخر، بل الواحد مع الآخر، حين يكون جرى التعرّف على الآخر وتذويته.

الآخر الذي لم يذوّت هو الآخر الإغترابي: هو العدو الذي أعيد في محاربتي إياه الهوية لنفسي بأسلوب كاذب. « شرق » المستشرقين هو منتوج فاعل للهوية الغربية، فيها الشرق هو وسيلة موازاة فحسب، يمتلئ بالهوية النقيضة نفسها. وهذا نزع للإنسانية عن الغير بوصفه « الآخر »[٢٦]. إنه تشييد لهوية الغرب الذاتية يشكّل الشرق فيها الانا الآخر، الأولّي واللاواعي بالنسبة اليه. هذا هو الأنا العقلاني مقابل الـ « id » اللاعقلاني والطفولي، الأول سيّد والثاني عبد. عملية إنتاج الذات هذه في الإستشراق، يحولّها سعيد إلى نمط تفكير لا غير، إلى صورة خطاب، إلى رد فعل من دون الفاعلية التي يفترض ان تصفها[٢٧]. لا يوجد شرق كهذا خارج دماغ المستشرقين وخارج دماغ الغرب. لا يوجد عالم عربي:

« الشرق » نفسه هو كيان مؤسس، والإيمان بوجود فضاءات جغرافية مسكونة باصلانيين « مختلفين » بشكل جذري يمكن تعريفهم حسب جوهر ديني، ثقافي أو عرقي تميّز تلك الاماكن، هو فكرة مشكوك جداً بها[٢٨].

بالنسبة للنزاع الإسرائيلي - الفلسطيني تحديداً، فقد عارض سعيد سياسة الهويات كبرنامج سياسي. أي أنه لم يعارض الهوية بوصفها كهذه بل استعمالها التضليلي. هذا

يصحّ في حال استعمال الهوية اليهودية والفلسطينية على حد السواء. الهوية، وخاصة القومية، بما في ذلك الإثنية والدينية، هي عبء يقمع التفكير، ادّعى سعيد[٢٩].

الهوية القومية مملّة للغاية، يقول سعيد. لا يوجد شيء أقل أهمية من تلك التحقيقات الذاتية النرجسية. ولكن الدفاع عنها لأنها مهددة – هو أمر مختلف تماماً. الدفاع عن هوية قام لها من يسعى لإلغائها، يختلف عن محاولات «تضخيم ماضٍ اختُرع لأهداف الحاضر»[٣٠]. ما أقلقه، إذن، ليس حقيقة وجود الهويات القومية بل التأكيد على تلك الهويات ودعم وإشاعة وعي قومي، وهو حليف الفصل بين الشعوب، وعدو العولمة الحقيقية. هكذا رأى الخطر على الحاضر.

لقد كان بالإمكان تحقيق تقدُّم تاريخي في هذا الامر، لو كان ممكناً التغلُّب على هذا الفهم للشرق. ولكن إلغاء الشرق معناه أيضاً إلغاء الهوية الغربية نفسها. «علينا التغلُّب على الهوية» يلخّص سعيد[٣١].

ما هي الإستراتيجية التي يقترحها لكي نمنع، من جهة أخرى، عملية فرض القوى العولمية للتجانس؟ خلق هويات معارضة. ما هي؟ ليس أقلّ من التغلُّب على الفكرة، المجردة والعامة للهوية. أي إبراز التميُّز الخاص. إنه يقترح فردانية كغياب للهوية العامة. خلافًا لمؤيديه، فهو لا يعارض العولمة، بل يرى فيها رافعة لتعميق الفردانية عبر خلق علاقات مركبة بين الأفراد، بحيث لا يظلوا معزولين وأسرى، أكل في تعريفه القسري. تحقيق المصير يعني الحق في الاختلاف في المستوى القومي أيضاً. ولكن القومية تلعب دوراً فقط في المكان الذي يخصصه لها الفرد بين سائر الصفات. على هذا الأساس يمكن فهم رفضه للقومية والأصولية بوصفهما سياسات هوية.

أحد التجسيدات الواضحة لـ«سياسة الهويات» وجده سعيد في البحث الشائع لصموئيل هنتنغتون «صدام الحضارات»[٣٢]. في هذا العمل يدعي هنتنغتون بسمو الحضارة الغربية إزاء بقية الحضارات، في حين أن القوة الظلامية التي تحاربها هي الإسلام. وصف هنتنغتون هو بيان سياسي ضد العولمة. هذا الرفض، يدعي سعيد، هو برنامج سياسي يحاول إعادة العالم للوراء. إلى الأيام الحالكة للحرب الباردة. المفهوم الأساسي في البحث «هوية الحضارات»، كما يدعي سعيد، غائم وهو نفسه يفتقر للهوية والتحديد. بالنسبة لسمو «الحضارة» الغربية إزاء «سبع أو ثماني» الحضارات، يشير سعيد بسخرية: «سبع أو ثماني»؟! ولكن هنتنغتون يكرّس معظم بحثه للحضارة الإسلامية. هذه المحاولة، يقول سعيد، تذكّر بقصة بوباي الذي ينتصر دوماً على بلوتو. مثلما أن بلوتو ضروري لبوباي حتى يكون دائماً منتصراً، فهكذا «الحضارة» الإسلامية ضرورية للغرب. الطريقة،

حسب سعيد، هي خلق حضارات لشرعنة سموّ الغرب ( ماذا سيفعل بوباي بدون بلوتو؟! ) بشكل يتيح العودة الى فترة ما – قبل – العولمة[٣٣].

يقرّ سعيد انه بدلاً من صدام الحضارات علينا ان نتركز في تعاون الثقافات، بحيث تتعلّم الواحدة من الأخرى وتفضّل العيش معًا. ولكن هذا الهدف لا يقف اليوم على جدول أعمال السياسة العالمية. غياب التسامح لعهدنا تجاه البحث، وعدم الإستعداد لتهدئة مشاعر متعطّشة للعداء، لا تهزم سعيد. فهو يقترح التحلي بالصبر والاعتماد على البحث على أساس الإيمان بالعقلانية المشتركة التي تسمح بالتعاون في التفسير. البحث هو متشكّك بطبيعته ( خلافًا لطابع تصريحات هنتنغتون ). العمل المشترك لباحثين من هويات مختلفة من شأنه استخلاص وجهة مختلفة عن هنتنغتون. في العالم الذي يطالب بـ« عمل ورد فعل فوري » فإن هذا التعاون صعب ولكنه ليس مستحيلاً[٣٤].

رغم المُثل التي توجه كتابه « الإستشراق »، فإنه لا يخلو من الوعي بالمسافة بين المُثل والواقع المحدد. ومن الواضح له أن محاولة تطبيق مثال القردانية المحددة، غير قابل للتحقيق في هذا الواقع. محاولة تطبيقه هي بمثابة « تفكير سحري » حسب تعريفه. السحر يحقق للوهلة الأولى تغييراً دون اتخاذ وسائل ملائمة، دون علاقة بالواقع. هذا مثال منظّم، أي انه يجب أن نفحص في ضوئه الفعالية العملية ( السياسية والاكاديمية ): هل تقرّبه أم تبعده، او هل تلائمه وتسير بحسبه ام لا؟



حق العودة هو مثال ذو مكانة مشابهة، بالنسبة إليه. إنه مبدأ رمزي أكثر مما هو هدف قابل للتحقيق. وهو يقتبس في هذا السياق من يطلق عليه اسم « معلّمي »، إبراهيم أبو لغد، الذي عرف أن العودة إلى الوطن لا يمكن ان تشكّل قاعدة للنضال على فلسطين[٣٥].

كيف يمكن الانتصار في النضال على فلسطين دون أن يعود اللاجئون الذين طُردوا منها؟ بالنسبة لسعيد، الانتصار لن يتحقق عبر طرد من قام بالطرد، بل عبر معرفة كيفية العيش معه، لصالحه وصالحنا. يجب القيام بكل ما من شأنه أن يؤدي إلى المصالحة، أو على الاقل إلى خلق الشروط السابقة لها. برأيه، أسلوب عرفات، بما في ذلك الثياب العسكرية التي يرتديها، خطاباته التي لم تقترح ولو مؤشراً خفيفًا على التعايش بسلام بين الشعبين – لا تدفع بهدف المصالحة. سعيد طالب بالإعتراف بالشعب الفلسطيني كضحية، ولكن ليس من اجل جعله ملاحقًا لضحايا. لقد أراد الحق في نسيان كل ما يكرّس الالم. ولكن ليس من دون الإعتراف – ولو الرمزي – بمعاناة الفلسطينيين. فبدون الإعتراف لا يوجد نسيان، او، كما قيل، هوية قومية مهددة لا يمكنها ان تخلي موقعها لهوية فردية.

هناك قاعدة للمصالحة وهي الإنسانية. سعيد أراد إنقاذ هذا المفهوم من أيدي ما بعد

الحداثة المحكمة التي تدوسه، كما يقول. باسم الإنسانية يدرك أنه يجب أولاً إزالة «القيود التي هي ثمرة الوعي» التي يتحدث عنها وليام بليك[٣٦]. يجب إنقاذ الوعي بمساعدة الوعي الشمولي الذي يسمح لكل إنسان بدخوله، بكونه إنساناً[٣٧]. بمقدور الإنسان التحرّر من قيود الانتماء والتفكير النمطي، مما تفرضه الذاكرة افتراضاً، عبر نقد الوعي، المشترك للجميع.

في مقدمة الطبعة الصادرة عن «بنجوين» من كتابه «الإستشراق»، يدعو سعيد إلى الاعتدال والتفكير النقدي، وهما جزء من ميراثه. متأثراً بعالم الألسنية اليهودي إريك أورباخ Mimesis[٣٨] يقول سعيد عن ذلك الكتاب:

لقد كان هذا قصيدة حنين إلى عهد استطاع فيه البشر تفسير نصوص بشكل السني، محدّد، بحساسية وحدس، من خلال دراسة ودراية، وتحكّم ممتاز في لغات مختلفة، من اجل دعم نفس نوع الفهم الذي دافع غوته من خلاله عن فهمه للأدب الإسلامي[٣٩].

سعيد يحن هنا إلى الفترة التي رأى فيها أنه كان من المعتاد اجتياز الحدود الثقافية، وليس الابتذال الزائد في رسمها؛ أيام كان بدلاً من تحديد الإختلاف كمصادر للمواجهة، مثلما يتصرفون اليوم، فإنهم حاولوا الحوار. وهو يشير إلى أن أورباخ رأى أهمية «التقاليد الإنسانية بالمشاركة في ثقافة قومية أو أدب ليس لك»[٤٠].

هل قام هنتنغتون – الذي يعلن أن غوته في صفه – بقراءة غوته أصلاً؟ هل حاول قراءة غوته كما حاول الأخير قراءة الأدب الإسلامي؟

## نقد عرفات وحكمه

نقد سعيد لعرفات خالٍ من الرحمة. النقد الذي يكيله لحكومات اسرائيل المختلفة ليس أقلّ حدّة، ولكن يجب الإشارة إلى الفرق الحاسم بين الأمرين: خلافاً للأسلوب الذي ينتقد فيه السلطة، فحين يوجه نقده إلى إسرائيل، لا يدخل التفاصيل أبداً، لا يقيم فروقات بين أنواع سياسات، ولا يطرح اقتراحات عملية. يبدو أنه يلمّح إلى أنه لا يهمه سؤال من هو الحاكم في اسرائيل وما هي دربه السياسية. إنه يوجه ادعاءاته ضد إسرائيل ككتلة واحدة تعاني من خلل منطقي ويذمّ كل سياسي إسرائيلي بشكل حازم ولكن مجرّد. صحيح أنه يطالب اسرائيل بالإنسحاب غير المشروط من المناطق المحتلة، ولكنه لا يدخل مسائل محددة، مثلاً، في ضوء تأييده الحازم للتعاون المتبادل، فهل يتوجّب على إسرائيل وحدها تحديد خطوط، شكل وكيفية الانسحاب، ام ان هناك أموراً يجب ان تحدّد باتفاق؟ هكذا هو الأمر بالنسبة لمسائل عديدة إضافية. لا يُعقل أنه تنقصه المعلومات حول إسرائيل،

وأيضاً لا يجب الإفتراض إنه لم يقل رأيه بسياستها وسياسييها . يبدو أن سعيد يريد بشكل واع الخوض في الصراع من وجهة نظر فلسطينية . من ناحيته فإن وجهة النظر الفلسطينية ليست بمثابة شرعنة للسياسة والقيادة الفلسطينية وكيل الاتهامات لإسرائيل فقط ، بل إنها الإنشغال المفصّل بالمشاكل الداخلية والخارجية للسلطة . إنه يريد عرض بديل النقد المدني الحر في دولة دمقراطية ، كما رأى فلسطين المثالية .

إسرائيل ليست في أعلى سلّم اهتماماته . حين يذكر في نقده إسرائيل فإنه يتعاطى معها كمعطى ، يمكن التأثير عليه عبر تغيير السياسة الفلسطينية : اللعب بما يخدم هذا المعطى ، أو تغييره عبر سياسة لا تقدّم لاسرائيل على طبق من فضة أسباباً للسلوك العنيف . إسرائيل ليست عنوانه . بكلمات أخرى - إنه لا يتحدّث مع الإسرائيليين ، بل إن أقواله موجهة للفلسطينيين . أعود وأكرر انني لا ادّعي انه لم يكن لديه نقد قاسٍ تجاه السياسة الاسرائيلية ، ولكنه لم يعبّر عنه بشكل مفصّل ومحدّد ، بحيث تُشتق منه استنتاجات عملية .

في تعاطيه هذا مع إسرائيل يحترس أيضاً من « معانقة » طرف فلسطيني كان يمكن أن يفسّر نقده لعرفات كاعتراف بالسياسة الإسرائيلية ، وهكذا فهو يصدّ النقد غير الموضوعي في الجانب الفلسطيني .



بما أن سعيد اختار ، بشكل مفهوم ، العمل في النقد المفصّل وتحديد سياسة للسلطة الفلسطينية ، وليس لإسرائيل ، وبما انني التزمت بإظهار مواقفه العملية ، أعرض فيما يلي مواقفه في الشأن الفلسطيني . كنت سأعرض مواقفه العملية في شأن سياسة إسرائيل ، ولكن ليس هناك مواقف كهذه ، كالمذكور .

حين اتّجه سعيد للبحث في سياسة السلطة الفلسطينية - قام بذلك بشكل واضح وفظ . يبدو أن هذا الأسلوب هو طريقه للدفاع عن الدمقراطية وحرية التعبير التي يطالب بها لأجل المواطنين الفلسطينيين . هناك حالات يتحدث فيها سعيد بحدةً متطرفة إلى درجة يبدو فيها أنه يقوم بذلك للدفاع عن حق التعبير أكثر مما هو للإقناع . كان في الأمر تحدياً لدكتاتورية عرفات التي لا تسود فيها برأيه حرية تعبير[41] .

إنه يهاجم حكم عرفات في كل الجبهات : التعليم ، الاقتصاد ، قوى الأمن ، غياب حرية التعبير ، غياب الدمقراطية . كل هذه برأيه ، لا علاقة لها بسياسة إسرائيل ، فهو لا ينظر إلى القيادة الفلسطينية كعنصر خامل يرد على سياسة إسرائيل ، بل يتّهمها ، وفي أولها عرفات ، على دورهما في مصير شعبه المرّ .

حول التعليم الإبتدائي يقول سعيد إنه في وضع مؤسف بكونه يفتقر للمنهجية . في

أساسه، حسب أقواله، إرتجال يقوم على أجزاء مقتطعة من القرآن وتكرار نصوص انتهى عهدها منذ خمسين سنة. الصفوف مكتظة، التجهيزات غير ملائمة، والجهاز لا ينمّي التفكير النقدي. وبإضافة التعليم العسكري، فإن هذا الجهاز التعليمي الذي تقادم عليه الزمن يخلق خللاً منطقيًا مستهجنًا في مضمار الأخلاق، يتجسّد بانعدام القدرة على تقدير الحياة إيجابيًا. هذا الدمج بين تلك المركبات أدّى إلى تهيّج ديني من الصنف الأدنى، أو الخضوع بخنوع للقوة السياسية»[٤٢].

بالنسبة لأجهزة الأمن يعتقد سعيد أن أكثر ما يثير الشكوك هو أنه بدلاً من التعاطي مع الإحتلال الإسرائيلي، فإنه «يسمح لجماعات من الناشطين، مجموعات من «م. ت. ف.» وقوى الأمن بالتسيّب في المجال المدني»[٤٣]. خلق جماعات عسكرية، قوى شبه عسكرية، جماعات مصغرة وقوى أمن مختلفة (من ١٢ إلى ١٤ جماعة، كما يقول)، كان نتيجة للتخطيط الواعي والمقصود لدى عرفات. هذا الوضع أدى إلى صراعات بين الجماعات المسلّحة، إلى جانب ترك الشعب يفتقر للحماية في وجه التدمير المتواصل للبنى التحتية، ومعرّضًا للاحتلالات المتكررة من جانب إسرائيل في تلك المواقع التي سبق وخرجت منها. إنه يعتقد إذن أن عرفات «يلعب في صالح «الاسرائيليين»[٤٤].



سعيد يهاجم عرفات على أدائه: «نمط حكمه يقوم على القمع بشكل مطلق» (كتلميذ صدام حسين)[٤٥]. وكذلك:

فإن فساد وعنف السلطة يتناميان بسبب أداء عرفات، ولكنهما عمليًا محسوبان جيدًا، فهذا هو طريقه للحفاظ على الجميع متعلّقين بسخاء يده: يتحكم في الميزانية ويقرر وحده ما الذي يُنشر في الصفحات الأولى للصحف اليومية الخمس[٤٦].

كل جماعة لديها ولاء مضاعف: لقيادتها ولعرفات في نفس الوقت[٤٧]. لقد أسّس عرفات حكمًا مؤلفًا من تقديس الشخصية لا ديمقراطي في أساسه. وهو يتم عبر جماعات وتنظيمات ومشاغبين صغار. يحيط نفسه بمريدي الولاء وبواشين يقولون له ما يودّ سماعه. بعد حكم كهذا لمدة ثلاثين سنة لا يوجد اي احتمال لان يغيّر سياسته فجاة[٤٨].

سعيد يعرض إحدى المسائل التي تجسّد الأسلوب الذي يعمل به النظام. في ١١/١٢/٩٩ اعتدت مجموعة مشاغبين بالضرب على عبد الجواد صالح. كان عضوًا سابقًا في اللجنة التنفيذية لـم. ت. ف. وضابطًا ذا رتبة عالية ووزيرًا للزراعة وعضوًا في المجلس التشريعي. سعيد رأى فيه شخصًا ذا جراة ثقافية، وكل ذنبه كان أنه تجرّأ على التذمّر علانية من الفساد واستغلال السلطة بشكل سلبي ممن سيطروا على الشأن الفلسطيني

وقادوه إلى الفشل.

عمليًا، ليس في السلطة دمقراطية:

> لقد فاز الفلسطينيون في النهاية بنظام قمع خاص بهم. لا يوجد قانون حقيقي تحت حكم السلطة. ولا إجراء نزيه. لا توجد حريات وحقوق دمقراطية حقيقية[٤٩].

طالب سعيد بتشريعات من قبل هيئة تأسيسية، بدستور يضع حدوداً ومحاسبة جماهيرية لعسف السلطة، رغم الفيتو من عرفات الذي تلهى بفكرة تشريع قانون أساس فقط[٥٠].

من الصعب جداً في هذا الوضع، رؤية بديل للسلطة القائمة. لقد نجح عرفات بإغلاق الباب امام بديل لحكمه.

حتى أنه نجح بجعل مواقع فشله مصدراً للتأييد والاحترام المتزايد من قبل مقربيه.

> الاشخاص الذين أحضرهم من تونس، الذين قاموا بما كانوا يقومون به في بيروت قبل تونس، لم يمكّنوه من سماع شيء سوى كلام النفاق والموافقة. وهذا لان وظائفهم كانت متعلقة بإرادته وليس بأدائهم الموضوعي[٥١].

يعتقد سعيد أنه في هذا الوضع القمعي، هناك دور تاريخي من الدرجة الأولى للفلسطينيين الإسرائيليين، لأنه في داخل السلطة تخضع غالبية السكان لحالة الفساد، وقلة فقط هي التي تتذمّر، ومن يمكنه انقاذ الوضع هم الفلسطينيون في الشتات والفلسطينيون في إسرائيل. أفضلية المجموعتين، إذا عرفتا كيف تستغلان الفرصة، هي انهما لا تعيشان في القمع الداخلي الذي يفرضه عرفات، ولان لديهما تقاليد النضال من اجل حقوق المواطن[٥٢].

أسلوب إدارة عرفات لا يلائم المطالب الراهنة، يقر سعيد:

> لم تتم دراسة اي شيء مسبقًا، لا يوجد اي إعداد، اشخاص يهمسون في أذنه وهو يسيطر على كل شيء بحكم محفظته. في حين كان يمكن فهم هذا في لبنان، فلا علاقة للامر بالقدرة على إدارة المفاوضات مع الإسرائيليين أو، الاهم، إقامة البنية التحتية للدولة[٥٣].

شركاؤه، خلافًا للسكان المحليين، هم مجموعة من السياسيين والمتجولين، لم يعيشوا أبداً حياة مدنية سليمة.

اعتادوا السفر مع جوازات دبلوماسية في الدرجة الأولى، لديهم إمكانية الاستفادة من اموال لم يعملوا لاجلها، وهم لا يطيعون سوى عرفات[٥٤].

وعرفات أيضاً لم يعش بالمرة حياة منظمة، يقول سعيد:

في حياته لم يرافق أطفاله إلى المدرسة صباحاً، لم يدفع الضرائب، لم يكن عليه أن يعيش حسب القانون، لم يكن قلقاً على وظيفته أو دفع إيجار داره - أي القيام بكل ما يتوجب على المواطن العادي في مجتمع مستقر. في هذا الوضع، الذي استمر ٣٥ عاماً، تعوّد عرفات ورجاله على الحياة خارج القانون، حيث يجب الاستناد إلى المؤسسات، القوانين والهموم اليومية، هذه أمور لم تؤخذ بالحسبان بالمرة.. النتيجة هي الفوضى في كل ما يتعلق ببناء مجتمع مدني ومؤسسات مدنية. عرفات لا يعي بالمرة ما هي هذه الأمور(٣٠).

ما هي وظيفة عرفات، يسأل سعيد ويجيب:

يظلّ بشكل بعيد عن الواقع في الفاتيكان، في لاغوس وغيرها، يناشد دون كرامة وحتى بلا عقل الحصول على مراقبين خياليين، دعم عربي، مساعدة دولية، بدلاً من الإلتقاء مع أبناء شعبه ومحاولة مساعدتهم في الحصول على تجهيزات طبية ورفع معنوياتهم.. ما نحتاجه هو قيادة موحدة من الشخصيات الميدانية، الذين يعملون فعلاً في المقاومة، ممن هم من الشعب حقاً وجزء منه، وليس بيروقراطيين من مدخني السيجار، الذين يسعون فقط للحفاظ على أشغالهم وتجديد بطاقات VIP خاصتهم، وقد فقدوا كل أثر للاستقامة والنزاهة(٣١).

كل مؤسسات الحكم، بمشاركة المعارضة، تلعب الواحدة في صالح الأخرى، وكلها معاً في صالح «الدواليب عديمة الرحمة» للدعاية الإسرائيلية. الإنتحاريون يغذّون الدعاية، والصراعات الداخلية تغذي الدكتاتورية. يتلقون الشرعية الداخلية ويمنحون الشرعية للعنف الاسرائيلي(٣٢). عرفات يعرف كيف يعتصر الحسنات من ضعفه(٣٣). انه يظهر كبطل في تراجيديا وهو يصرخ بزهو. وهكذا، لا يشك أحد في قيادته. لقد نجح بوضع نفسه في موقع يسامَح فيه على «الضعف والخطأ»، فالاسرائيليون يعاقبونه ويهينونه لانه القائد الفلسطيني. انتصاره على السياسة الاسرائيلية هو سر انتصار دكتاتوريته، وهي نفسها انتصار للسياسة الإسرائيلية. في هذه الدائرة يحوّل عرفات ضعفه إلى قوة، والقمع الى رهينته.

وفعلاً، يعتقد سعيد، أن امتياز عرفات هو السياسة الإسرائيلية التي لاءمته دوماً، لانه بالإمكان اتهامها دوماً بالمصيبة المستمرة التي نماها بنفسه. كلما كانت السلطة الاسرائيلية أكثر عنفاً فالأمر يخدم مصالحه أكثر. كيف سار ذلك حسب سعيد؟ لقد عرف عرفات بشكل واعٍ كيف يحقّق الشرعية الضرورية حتى يشخصن السياسة الفلسطينية. لقد خلق وضعاً سياسياً فيه:

وحده اتخذ القرارات بشأن ما يجب على الفلسطينيين عمله أم لا. لم يقل لهم مرة واحدة

« هذا افضل ما يمكننا القيام به الآن، قولوا لي إذا ما كان الامر مقبولاً عليكم ام لا، إذا كان كذلك سأواصل وإلا سأستقيل » . لقد عرض الأمر دومًا كحقيقة ناجزة، ترك شعبه يغوص في الوحل، وبعد ذلك تنصّل من المسؤولية وقال: « هذا هو الواقع، الإسرائيليون هم قساة » . كان عليه ان يتحمّل مسؤولية، فهذه كانت مسؤوليته. لقد شعرت انه كان يجب ان يقول له أحدهم: « كفى. لا يمكنك ان تستمر بالقيام بهذا باسم الفلسطينيين وباسم التضامن » . حسنًا، سمعت الجوقة طبعًا، وبحسبها انتهكت ولاء المخلصين. بالطبع، من المهم القيام بذلك، وإلا سنواصل الإنتقال من مصيبة إلى أخرى(٥٩).

لقد حكم عرفات، يقول سعيد، خلال عشر سنوات منذ جاء من تونس، والأمر الوحيد الذي حقّقه هو العار والإستهتار به وبطاقمه: السلطة الفلسطينية صارت رديفًا للفظاظة، للحكم الإنفرادي، والفساد الذي يصعب تخيّله. « إذا كان هناك من يصدّق ولو للحظة، انه ( عرفات / ع. ب. ) في هذه المرحلة قادر على شيء آخر، ان يقوم بإصلاح حقيقي، فإنه ببساطة يستفز الفهم »(٦٠).

عمليًا، فقد استقدم العقاب الإسرائيلي على شعبه، حين أعطى إسرائيل سببا لمعاقبة كل الشعب على انه لم يعتقل « حماس » و« الجهاد الإسلامي » ومرسلي الإنتحاريين بانعدام وعي وحساسية، وتسميتهم بعد ذلك شهداء(٦١).

سعيد يقتبس موافقًا اقوال سعيد ابو ريش الذي يعرّف حكمه كـ « خليط من الإرتجال والإهمال وانعدام الدراسة والتحضير والسرية » . حيث « استبعد كل ما اعترض طريقه »(٦٢).

لقد تجرأ سعيد على قول أمور يعرفها آخرون، ولكنهم يعتقدون ان قولها قد يضرّ بالشان الفلسطيني:

> عرفات هو الوحيد الذي يطيعه الجميع، هو الذي يحدّد الخط ويموّل. كل من تبقى يخضع، مع ان عددًا منهم يحتج بصوتٍ عالٍ جدًا، وينتقد دون هوادة شكل إدارته غير المنظّم. رغم ذلك فإنهم يواصلون خدمته من خلال الحفاظ على مكانتهم في طواقم المفاوضات، كبيروقراطيين، وزراء، وشاة، ورجال امن، وهكذا يساهمون في الماكينة التي فرضها عرفات.. يعلم الجميع أنه سواء كان الحديث عن قرار بشأن عملية السلام، بطلب لتصليح سيارة او بطلبٍ لعطلة فإن عرفات هو الذي يجب ان يوقّع، او ان يعطي موافقته المباشرة. لا احد غيره يعرف اين الاموال، من اين جاءت وعلى ماذا تُصرف؟! ربما يعرف الآخرون شيئًا، لكن الرئيس وحده يملك صورة كاملة، وبالتالي سيطرة كاملة(٦٣).

وهذا سرى، حسب سعيد، ليس على فترة ما بعد أوسلو فقط، بل ايضًا على الفترة

السابقة لها، حين كان عرفات لا يزال يرمز للمقاومة. اليوم لا يرمز حتى لهذا.

ولكن الإتهام الأكثر خطورة هو سؤال سعيد:

> لماذا يجب خلق حرب، ضحاياها بمعظمهم من الابرياء، وحين لا توجد لديك القدرة العسكرية على إدارة ولو معركة واحدة، ولا القدرة الدبلوماسية على إنهائها؟[٦٤].

عرفات يقترح سلام الشجعان، اي، بين مقاتلين لا يخلعون بزّاتهم العسكرية، في حين يقترح سعيد سلامًا مدنيًا من التعايش والمصالحة. سعيد كان يتحلّى بجرأة أُخرى، جرأة المثقف، الذي تجرّأ على التفكير وقول ما يفكّر به حين كان ضمن أقلية، على الأقل أقلية من المتحدثين. هذه هي جرأة أن تكون متباين الاعتقادات ومعرّضًا للخطأ، كما كان يقترح هيجل على المثقفين الحقيقيين.

## الأندلس، المصالحة والمثال ثنائي – القومية

قمة الثقافة العربية «كان في الاندلس، حيث التعدُّد الثقافي، واختلاف العقائد والخليط الإثني فيها». الاندلس هي «المثال الذي يجب أن يحرّك جهودنا اليوم، مقابل ضعف أُوسلو محنّط وميّت، ومقابل فكرة الرفض التي لفظت انفاسها هي الأُخرى»، يقول سعيد[٦٥].

حسب سعيد فإن الدمقراطية ضرورية للمصالحة مع إسرائيل. وهو يربط الإرهاب بالدكتاتورية، كما بيّنت. لفهم هذا، يجب ان نسأل: كيف تساعد الدمقراطية على محاربة الإرهاب؟ الدمقراطية ستسمح لعديد الأفكار في المعسكر الفلسطيني بأن تتجسّد في أحزاب سياسية، وليس في جماعات مسلّحة. ولكن فخ الإرهاب، هو انه في المكان الذي توجد فيه جماعات مسلّحة، وبعضها قد يطلّ برأسه يوميًا، هناك شرعية لنظام دكتاتوري صارم يتحكّم بها. في الدمقراطيات، يجب ان يُعالَج الإرهاب بالطرق القانونية. كثرة الجماعات المسلّحة يتطلّب علاج طوارئ. هذا أشبه بحالة طوارئ مستمرة من الصعب فيها أن تصمد المبادئ الدمقراطية الليبرالية. هذا الوضع لا يترك فرصة لبناء مجتمع دمقراطي وتعدّدي. توجّه قانوني إزاء الإرهاب قد يكون مُجديًا في دمقراطيات قويّة، حيث يمكن لمقاومة الإرهاب أن تنعكس في الإنتخابات والإعلام[٦٦]. الدكتاتورية والإرهاب ليسا خصمين، بل أن أحدهما يكمّل الآخر. الدكتاتورية بحاجة إلى الإرهاب لتنال منه شرعيتها، والإرهاب بحاجة إلى سلطة دكتاتورية مؤيدة، فيها عدد الجماعات المسلّحة ومدى نشاطها متعلّقان بحاجات الحكم وليس بقوانين أو مبادئ فوق الحكم. حالة دكتاتورية تعتمد على جماعات مسلّحة في السلطة الفلسطينية، هي حالة تقوّي العناصر غير الدمقراطية في إسرائيل، والنشاطات الملائمة لحالة الطوارئ، والتي تقوّي النظام

الحسم. هذه هي الطريقة التي تدعم بها الدكتاتوريات النزاعات وحتى الحروب بين الدول.

بعد إلغاء سياسة الإرهاب يبدأ النضال على الدمقراطية والمساواة في الحقوق مع إسرائيل. المثال الكونفدرالي، الأشبه بمثال الأندلس لدى سعيد، هو الذي يرى في ضوئه تقدّم هذا النضال. «الرؤية الكبرى» المثاليّة لدى سعيد هي دولة فيها لكل المواطنين من كل القوميات والأديان، حقوق متساوية دون أي «جوهر أسطوري» يستمد قوته من الماضي البعيد «سواء كان الماضي يهودياً، مسيحياً أو إسلامياً»[٦٧]. لاحقاً أفسّر كيف أن تطبيق هذه الرؤيا لا يعني إقامة دولة ثنائية - القومية اليوم، وحتى ليس معارضة دولتين، ولكن من غير التنازل عن المثال.

لقد أراد سعيد دفع الوعي العلماني. وهو لا يرى نفسه وحيداً في هذه المعركة، حتى أنه اعتقد أن هذا التوجّه يزداد قوّة في المجتمع الفلسطيني. شركاؤه هم مجموعة بارزة من المثقفين، لا يشكّلون حتى الآن حزباً، ولكن سعيد لا يلغي هذا الإحتمال. ويذكر منهم: د. حيدر عبد الشافي، د. أحمد حرب، زياد أبو عمرو، إبراهيم الدقّاق، مصطفى البرغوثي، فؤاد مغربي، د. علي الجرباوي، راوية الشوا، كمال الشرقي وكُتّاب مثل حسن خضر، نصير عاروري، غسان الخطيب، ريما الترزي، رجا شحادة، محمود درويش وإيليا زريق[٦٨]. هؤلاء أيضاً عارضوا اتفاق أوسلو.

ولكن سعيد تحدّث إلى الطلائعيين رغم جهوده للتحدث إلى كل الشعب. بالنسبة للشعب كان ولا يزال رمزاً وبروفيسوراً بلا جمهور من جامعة كولومبيا.

العلمانية، حسب سعيد لا تناقض بطبيعتها الوعي القومي. لهذا الموقف لم يحظ بالاستيعاب في وعي الكثيرين، لأنه عُرف كمَن أراد المساهمة في النضال الفلسطيني للاستقلال. ما لم يُعرف عنه بنفس القدر، مع أنه عاد وكرره، أن نفس الاستقلال برأيه، يتحقّق فقط بالاندماج مع دولة إسرائيل، وليس بالإنفصال.

لم يرفض سعيد الوعي القومي، ولكنه أكد أنه ليس بالضرورة دافعاً للنشاط السياسي؛ وهو لا يجب أن يكون بالضرورة أيديولوجيا للفصل بين الشعوب. نحن نعيش في عالم من «الهجرة والاختلاط» وليس من «الشعوب المتوطّنة»[٦٩]. (وهذا مثال على المبالغات الأيديولوجية لدى سعيد، مقولات هدفها خدمة بلاغه). وهكذا آمن بحل النزاعات بالوسائل السلمية، «ليس على أساس إخراج الغير من السور، بل على أساس استيعابه»[٧٠].

هذا هو الأساس لرفضه اتفاق أوسلو ومفتاح فهم رفضه التنازل عن حق العودة. لقد اعتقد أنه من الممكن جعل هذا الحق رافعة تدعم الدمج بين الشعبين. أوسلو أقفل الباب أمام المصالحة الحقيقية، «التي يجب أن تحلّ إذا كانت حرب المئة عام بين الصهيونية

والشعب الفلسطيني يجب أن تنتهي»[٧١].

كما اشرت، ففي أحيان كثيرة، أفكار سعيد لم تُفهم، بسبب النزعة لنسب مواقف عملية له، تقوم فقط على أجزاء من أقواله. وهكذا فإن تأييده لحق العودة وضعه في الطرف الراديكالي من الخارطة السياسية كمن يرفض التنازل مقابل السلام. وبالفعل، فهناك من يطالب بتحقيق حق العودة بشكل يُبعد السلام. ولكن سعيد يؤكد المعنى الرمزي لهذا الحق، أي، أنه لا يطالب بالعودة الفعلية، بل بالحق فقط. وهذا على أساس موقف أنه ممنوع إصلاح غبن تاريخي عبر خَلق غبن آخر. بالنسبة إليه، التنازل عن الحق كالتنازل مسبقاً عن التعايش، إضافة إلى ذلك فإنه يشير، موافقاً، إلى قرار الأمم المتحدة ١٩٤، الذي يتحدّث عن عودة أو تعويض[٧٢]. على أية حال، حسب أقواله، القضية يجب أن تطرح فقط في إطار محاولة حقيقية للمصالحة والحوار. في إطار كهذا، يمكن لهذا الحق أن يتحقّق جزئياً، ولكن فقط بمقدار ما يخدم المصالحة، وليس كخلق مشكلة جديدة، أو طريق لتغذية الكراهية.

في المعسكر الصهيوني تسمع أصوات شبيهة، وهي التي تتحدث عن الحق في العيش في كل مكان من الأرض المقدّسة، أرض إسرائيل (خلافاً لدولة إسرائيل). وزيرة في حكومة إسرائيل سُئلت مرّة كيف توفّق بين دعمها لحق الاستيطان في كل أرض إسرائيل وبين استعدادها لتنازلات. فأجابت: «ممنوع التنازل عن الحق بالاستيطان في كل أرض إسرائيل، لا يمكن المطالبة بالتنازل عن الأحلام». أي أنه ممنوع التنازل عن الحلم كحلم، ولكن تحقيقه ليس حلماً، وعنه يمكن التنازل. أولئك الذين يطالبون بالتطبيق الفعلي لكامل العودة، وأولئك الذين يريدون ممارسة فعلية للاستيطان «في كل أجزاء أرض إسرائيل»، يُبعدون السلام الاندماجي على نمط «الأندلس». ولكن من يؤيد الحق كرمز، بما في ذلك تحقيقه الجزئي في إطار مفاوضات تفضي إلى مقاربة بين الطرفين، فهم يقرّبون سلام المصالحة والتعايش. وهذا أيضاً لأن روح هذا الرمز تفترض إمكانية التعايش مقابل بديل إغلاق الحدود وبناء الجدران. هدف التعايش هو الذي يجب أن يحدد الخطوات المحددة للسياسيين. حق العودة يتّفق مع هذا الهدف، ولذلك ممنوع التنازل عنه. هكذا يجب تفسير موقف سعيد.

وبالفعل، فالتعايش هو الهدف الأهم لديه، ووسائل تحقيقه يجب أن تراعي الوضع المحدد:

المشكلة هي أن تحقيق المصير الفلسطيني في دولة منفصلة غير قابل للتطبيق، مثلما أنه غير قابل لتطبيق مبدأ الفصل بين مجموعات سكّانية مختلطة من ناحية ديموغرافية، السكان الفلسطينيين عديمي السيادة والسكان اليهود أصحاب السيادة. أنا أؤمن أن السؤال ليس في كيفية تحديد الوسائل للتعتّت والفصل بينهما، بل مسألة قدرتهما على العيش معاً بشكل نزيه ومستقرّ قدر الإمكان[٧٣].

اليوم، قال في كانون الثاني ١٩٩٩، يسود انفراج مثير للياس، إن لم نقل دموياً، في سياق التقدّم. يبدو ان الصهيونيين ليسوا مستعدين للتنازل عن دولة يهودية منفصلة، والفلسطينيين يطلبون الشيء ذاته لانفسهم. المطالبة بدولة فلسطينية مستقلة تعني ببساطة الرهان خلافًا للحقائق. ودولة يهودية نقيّة من الفلسطينيين هي أمر لن يستطيع اليهود تحقيقه بالمرّة، إلاّ عبر تطهير عرقي أو ترانسفير جماعي. لن يتمكّن اليهود من التخلّص من الفلسطينيين، والفلسطينيون لا يستطيعون جعل اليهود يختفون. لا يوجد لاي طرف خيار عسكري ضد جاره[٧٤].

خلال سنوات إسرائيل الـ ( ٥٠ )، لم تكن الصهيونية الكلاسيكية قادرة على عرض حل للحضور الفلسطيني ولا لحلم الحضور اليهودي الحصري. لم يبقَ سوى المباشرة بحوار حول إمكانية تقسيم البلاد بشكل دمقراطي حقيقي، من خلال المساواة في الحقوق لكل المواطنين. لن تكون مصالحة، يقول، طالما ان الشعبين، الجماعتين اللتين سئمتا من المعاناة، لا يعترفان بأن وجودهما المشترك هو حقيقة ناجزة، حقيقة علمانية وقائمة، لا يمكن إلغاؤها[٧٥].

لقد كان سعيد منهجياً ومثابراً في أنه فحص كل خطوة استناداً إلى مثال التعايش، لقد ناقش المثقفين المصريين الذين اقترحوا مقاطعة نقاط الفحص العسكرية الإسرائيلية في المناطق. اقترحوا عدم الإقتراب من الحواجز، عدم طلب تأشيرات دخول، عدم السماح للإسرائيليين بختم الجوازات وعدم إظهار أي مؤشر على التطبيع طالما استمر الإحتلال. سعيد رفض بكل قوة تسويغات هذا النوع من الرفض: عدم استغلال الحواجز يضمن تكريسها، مقاطعتها لن تجعلها اكثر طبيعية من استعمالها. اليست مقاطعة المعابر سوى شرعنة لإغلاق الحدود، الذي يكرّس النزاع؟ بالإضافة، فإن هذه المقاطعة تتجاهل تماماً السكان الفلسطينيين الإسرائيليين. أليس للعرب في إسرائيل الحق في أن يُسمعوا ويُشاهدوا؟[٧٦] مقاطعة الفلسطينيين ومؤيدي السلام في إسرائيل تؤدي إلى مقاطعة من الطرف الآخر، وتكرّس الانفصال. نتيجة هذه المقاطعة ستكون إبقاء الفلسطينيين محتجزين في مقاطعاتهم. الا يعني هذا تشجيع الأپرتهايد؟ الغبن الذي لحق بالفلسطيني لا يمكن ان يشكّل ذريعة لتكريسه مستقبلاً. يجب أن يكون جزءاً من الماضي، من التاريخ. يجب ان ينضم إلى الماضي السياسي أسوة مع الكارثة اليهودية والحرب[٧٧].

لقد حوّل الصهيونيون بانفسهم فكرة الفصل الإثني إلى هدف غير قابل للتحقيق منذ قيام الدولة، وخاصة منذ بداية المشروع الإستيطاني في المناطق التي احتلّت عام ١٩٦٧، تداخلت حياة اليهود بحياة غير اليهود دون انفصال[٧٨].

الدمج ثنائي القومية كان بالنسبة إليه مثالاً منظّماً، أي قاعدة توجّه النشاط السياسي

المحدّد، إن شئتم، استراتيجية عامة، تخضع إليها الخطوات التكتيكية المحدّدة. هذا المثال يشكّل بالنسبة إليه مقياساً لرفض كل فكرة تبعد ما بين الشعبين وتأييد كل ما يقربهما.

لذلك فمن غير المبرر ذلك النقد الذي يوجهه إليه انطوني تيرادو تشيس، بقوله إن سعيد:

مثل رفضيين آخرين، أوضح في مرحلة مبكرة عدم استعداده لان يكون شريكًا في مرحلة انتقالية قاسية وتدريجية نحو التعايش الذي حدده أوسلو[٧٩]. وأيضاً ان « سعيد ينضم إلى تاريخ الرفضيين الفلسطينيين الذين جعلوا مبدأ من رفض التفاوض الجوهري الذي يأخذ بالحسبان وقائع سياسية، ومفهوم التقدم خطوة فخطوة »[٨٠].

يفترض تشيس أن سعيد واتفاق أوسلو يسعيان إلى الأهداف نفسها. للوهلة الأولى هكذا هو الأمر: كلاهما يريدان سلامًا واستقلالاً للفلسطينيين. استناداً إلى هذه الفرضية، يدّعي الناقد بحق أن سعيد يرفض الخطوات الاولية في المسيرة لانها غير كافية للوصول إلى الهدف. ولكن بما ان هذه الفرضية مخطوءة، فإن الاستنتاج، النقد، ايضًا مخطوء. ربما ان اتفاق أوسلو تدريجيّ، ولكنه لا يسعى للهدف الذي حدده سعيد. أي ان اتفاق أوسلو لا يلائم مُثله، ليس لانه جزئي، بل لانه يتقدّم نحو هدف نقيض: إتفاق أوسلو يخلق شروطًا للفصل مستقبلاً، وليس للتعاون. هذا هو السبب الوحيد لرفض سعيد أوسلو. تشيس يخطئ في تفسير سعيد، هدف سعيد ليس الاستقلال بحد ذاته، بل طابع ونوعيّة الإستقلال. فالإستقلال الذي يُبعد التعاون يجب رفضه، بينما الإستقلال الذي يقرّبه – يجب دفعه. ليس التدريجية والصعوبة هما ما يخيف سعيد، بل طابع المثال الذي يحرّك أوسلو، وهو فصل الشعبين.



دمج الشعبين، الذي آمن سعيد انه من الافضل أن يتحوّل إلى استراتيجية عامة، توجّه الخطوات التكتيكية للطرفين، لا يعني تقليص الحياة اليهودية بحد ذاتها، ولا يعني التنازل عن المطامح السياسية للفلسطينيين. بالعكس، فالحديث هو عن حق تقرير مصير مشترك لصالح الشعبين. التعايش لا يهدف إلى إضعاف، تقليل وفي النهاية إلغاء المطامح الثقافية للشعب الواحد على حساب الآخر. قانون العودة لليهود، وحق العودة للاجئين الفلسطينيين، يجب ان يمرّا عملية مشتركة:

> المفهومان، ارض إسرائيل الكاملة كارض اليهود، التي اعطاهم إياها الله، والارض العربية التي لا يمكن فصلها عن الوطن العربي، يجب أن يمرّا اختزالاً في الدرجة وفي الحصرية[٨١].

هذا الإعتراف المتبادل، ليس بدولتين لشعبين، بل بشعبين في البلاد نفسها ليس حلاً ما بعد صهيوني. بالعكس، معناه اعتراف الفلسطينيين بالصهيونية، بما في ذلك حق العودة،

وأيضاً اعتراف الإسرائيليين بحق العودة للفلسطينيين. أي أن اليهود يعترفون بالمعاناة التي سببوها للفلسطينيين، والأخيرين يعترفون بالكارثة اليهودية، وبالحاجة إلى دولة للملاحَقين، التي تشتق منها. لا توجد أهمية اليوم لاتهامات الماضي. يجب التعافي من «مؤشر فونس» بشأن الذاكرة المشلولة.

تاريخ آلاف السنين في فلسطين، أكثر من أي مكان آخر في العالم، يوفّر فرصاً غير مسبوقة، يمكن استناداً إليها التفكير بتواضع وبتسامح علماني:

إن فلسطين، كما كانت دائماً، هي بلاد لأكثر من تاريخ، وسيكون في الأمر الكثير من الاستسهال أن نراها يهودية منذ البداية، أو عربية بشكل حصري. ورغم أن التواجد اليهودي فيها عديد السنين، فإنها ليست حصرية بأي شكل. سكانها الآخرون هم: الكنعانيون، المؤآبيون، اليبوسيون، الفلسطينيون في العهد القديم، الرومان، العثمانيون، البيزنطيون والصليبيون في العهد الحديث. فلسطين متعددة ثقافياً، متعددة إثنياً ومتعددة دينياً. هناك تبرير تاريخي ضعيف للهيمنات، كما أن هناك تبريراً ضعيفاً، اليوم، لمفاهيم مثل نقاء قومي، إثني، أو ديني[٨٢].

الحل العلماني يعني خلق أمر غائب عن أفق الطرفين اليوم. بدلاً من التقسيمات السائدة اليوم، التي تميّز بين الجماعات الإثنية، أو العرقية، من الأفضل أن ننشأ نظرية وممارسة بديلتان: المواطنة كبديل وحيد لأجل التعايش. في الدولة الحديثة كل المواطنين هم أصحاب لنفس الحقوق والموارد، ونفس الواجبات. ولذلك هناك حاجة في دستور يمنح قوننة لوضعية أن يكون لكل مجموعة الحق في تقرير المصير. ولكن هذا ليس المفهوم الذائع اليوم لتقرير المصير، الذي يوجب الفصل بواسطة الحدود. تقرير المصير يفترض اعترافاً بحق كل جماعة بإدارة حياتها بنفسها. كخطوة أولى ربما يمكن الحديث عن كانتونات، عن حقوق قضائية علمانية، عن عاصمة مشتركة في القدس، بدلاً من مدينة مقسّمة. هناك شرط واحد له الأفضلية الأولى: الا يكون أي من الطرفين رهينة بيد التطرف الديني (أو غيره) لدى الآخر[٨٣].

يجب خلق الشروط كيلا تشكّل إحدى الهويتين، وفي أية حالة، تهديداً للأخرى. هوية أي من الطرفين يجب أن تشكّل بالنسبة للآخر شرطاً يجب أخذه بالحسبان من أجل تقرير المصير، وليس ككيان خلف الحدود، يجب تجاهله. لا توجد أية هوية قائمة لوحدها في العالم، يقول سعيد. الهوية الفرنسية محاطة بالهويات الألمانية، الإنجليزية، السويدية، الإسبانية وغيرها. الفرنسي هو فرنسي لأنه ليس سويدي، وليس لأنه يماثل نفسه، إنه يكتشف جوهره ليس من خلال التدقيق في المرآة، بل من خلال النظر للآخر. عبر هذه

النظرة يعرّض نفسه كمختلف. بدون الآخر، سيظلّ وحيداً مع المرآة النرجسية. كل هوية تشكل طرفًا من التاريخ الإنساني الكوني. وإذا كان هذا الامر صحيحًا بالنسبة للإنسانية عامة، فإنه صحيح بما يفوق ذلك، بالنسبة لهذه الارض ذات الهويّات العديدة. سعيد يقول إن إسرائيل بالذات، حسب أشدّ قومجييها على الأقل، هي تلك التي تريد العيش:

وحيدة، مختلفة ومنفصلة عن بقية الهويات، التي يجب طردها من الزمان والمكان حتى تتمكن إسرائيل من احتلال كل المناطق ذات الصلة وطرد كل شيء آخر[84].

بناء عليه، يمكن فهم معارضته لإرسال قوات دولية أو قوات مراقبة لأنها فقط «ستعقّد الأوضاع»[85]، لأنها ستعمّق الفصل وتكرّسه كحقيقة غير قابلة للتغيير.

سياسة عرفات تعارض موقف سعيد في هذه القضية أيضًا: إنه يستغل كل مناسبة كذريعة للمطالبة بتواجد قوات دولية من اجل الدفاع عن الشعب الفلسطيني. ولهذا، لا مكان للاستغراب أيضًا من أن عرفات لا يُبدي موشّرات قلق على السور الذي تبنيه إسرائيل. ولكن الخطر الاكبر هو مستقبل الانفصالية بكل ما تعنيه على الطرفين. «مسادا» كهذه ليست مسادا في طرف واحد، بل حصنين يبغيان تجاهل الواحد للآخر، عبثًا، لأنهما ملزمان بالتعرّف الواحد على الآخر خلال الإحتراب المستمر.

لقد كان أوسلو بالنسبة لعرفات والانفصاليين الصهيونيين، الاتفاق الأفضل لخلق شروط للفصل. الفصل وبناء السور مطلوبان بإلحاح في فترة من الإرهاب والعنف المتواصلين، عديمة الأفق لاي حل. اي ان العنف يمنح شرعية للفصل. العنف والفصل مطلوبان الواحد للآخر، ويدفعان الواحد الآخر. اتفاق أوسلو هو مثال جيّد على أنه ليس كل اتفاق يوقّع من أجل تطبيقه، بل ان هناك اتفاقات توقّع لتطبيق الشروط التي تفرضها، أي لضمان عدم تطبيقها. سأوضح ذلك بتفصيل أوسع في سياق البحث في رفض سعيد لاتفاق أوسلو، وتأييده لمحادثات واشنطن بالمقابل.

سواء كان بقصد سابق، أو بسبب دهاء التاريخ[86] - فإن الارهاب يساعد سياسة عرفات والصهاينة الانفصاليين معًا. سعيد يلخص رفضه للإرهاب بالقول إنه «لا يوجد ايمان، ولا رب، ولا فكرة مجردة، قادر على تبرير القتل الجماعي للابرياء»[87]. المشكلة، يضيف، هي أن جماعة محدودة من الأفراد تتحمّل المسؤولية عن تلك الاعمال، وهم يعيّنون أنفسهم ممثلين عن المجهود القومي، دون ان يكونوا انتخبوا بشكل دمقراطي للقيام بذلك.

الإسلام ليس حصريًا سياسيًا، ولذلك يجب التحدث عنه بصيغة الجمع. «ولكن» يقول سعيد:

داخل الإسلام التعددي، هناك جهد دائم من جهة مسلمين، منذ الخلفاء المباشرين للنبي، وحتى أسامة بن لادن، للتحدث باسم الإيمان الحقيقي[٨٨].

المشكلة مع الأصولية الدينية أو الاخلاقية هي أن «الشر المطلق لإرهابها»، آراءها المتخلّفة و«شرّها الدموي»[٨٩] بما في ذلك الاستعداد للقتل والموت، تنضاف إلى دراية تكنولوجية، وفوائد يحققها الارهابيون عبر ممارسات «الوحشية الرمزية المخيفة»[٩٠].

## المثال وتطبيقه العملي

في نقده وفي مقترحاته العملية، حاول سعيد تقديم مثال للتعايش في دولة واحدة أو في كونفدرالية فلسطينية – إسرائيلية. بما في ذلك كل الخطوات المحددة التي من شأنها أن تؤدي إلى تطبيقه.

سعيد رفع راية الدولة ثنائية القومية. ولكن هذا المفهوم، في عُرفه، كما أشرت، لديه مكانة المثال المنظَّم فقط. كان واضحاً بالنسبة له أنه لا يوجد شريك لإقامة دولة ثنائية القومية، هنا والآن، لا في الطرف الإسرائيلي ولا الفلسطيني، ثنائية القومية كانت مثالاً موجِّهاً، كان لديه معيار للحسم: يجب اختيار القرار الذي يلائم المثال، ورفض ما لا يلائمه. هذا هو المفهوم التطبيقي لثنائية القومية.

مثال واضح على الشكل الذي ساهمت فيه مُثُل سعيد في قراراته العملية، هو الموقف الذي اتخذه من أوسلو، خلافًا لما عبّر عنه بالنسبة لمؤتمر مدريد ومحادثات واشنطن. وبالفعل، فكيف يمكن لمعارض بهذه الحدة لأوسلو، أن يؤيد مؤتمر مدريد[٩١]، (مع تسحاق شمير اليميني المتطرف، كرئيس لحكومة إسرائيل!)، ومحادثات واشنطن لاحقًا؟

محادثات واشنطن كانت الثمرة المباشرة لمؤتمر مدريد. الهدف الأساسي كان كيفية إيجاد ضمانة لسلام مع حدود مفتوحة، سلام يناقض ما خلقه اتفاق أوسلو بشكل جوهري. لهذا السبب أيّد سعيد محادثات واشنطن وعارض المحادثات في أوسلو. محادثات واشنطن جاءت لتوفير إطار لمفاوضات ثنائية، من خلال تحديد مرحلتين بوضوح: مرحلة الاتفاقات المؤقتة ومرحلة الحل الدائم. وظيفة الاتفاقات المؤقتة كانت توفير الفترة الملائمة للطرفين لخلق الثقة، من خلال الحياة بتعايش حقيقي بين فلسطينيين وإسرائيليين، قبل أن تبدأ المحادثات على الحل الدائم. كانت الخطة تقضي بالتوصُّل إلى سلام مع مصالحة مستقبلية، مع أفق لمستقبل واعد. هذه المرحلة كان يفترض أن تشكّل التطبيق الجزئي لمثال

المصالحة، كما ورد بوضوح في الدعوة إلى مؤتمر مدريد.

كانت المرحلة الإنتقالية موجّهة لتوفير فرصة لكل طرف من أجل فحص حسن نوايا الطرف الثاني، في الظروف التي تشكّل مقترحاً سهلاً للنوايا الحسنة. هذه الأمور مشتقة من الوضع الانتقالي، الذي يتعلّم فيه الشعبان العيش معاً في البلاد نفسها. إضافة إلى ذلك، فهذه المرحلة كانت مخططة بشكل لا يتم فيه الحسم في قضايا تحمل في طياتها احتمالاً لخلافات حادة، بكلمات أخرى - لقد حاذر لئلا «ينكأ الجروح». وهكذا منع نفسه من مخاطر الإنفجار والجهود الزائدة في مرحلة مبكرة. وعليه، مثلاً، فإن هذه المرحلة لا تقترب، وبالتالي لا تمسّ، بالمكانة النهائية للمناطق ولقضية اللاجئين. هذه قضايا تأجّلت لمرحلة التفاوض النهائي. كان من المهم لواضعي الإتفاق إبقاء قضايا هامة كهذه مفتوحة، لئلا تُقفل الأبواب في وجه إمكانية حل من التعاون مستقبلاً. كانت الفرضية أنه بعد أن تحقق المرحلة الانتقالية هدوءاً، وتحاصر المتطرفين في الهامش، وتحقق دعماً أوسع في المرحلة القادمة، فإن الخلافات ستخفّ. لقد خمّنوا أيضاً أن الطرفين لن يتنازلا بسهولة عن الإنجاز، ولذلك فإن الاستعداد لحل المشاكل المؤلمة سيكون أكبر.

الاتفاق ذو الميزات المناقضة كان ذلك الذي أبرم بين يوسي بيلين وأبو مازن، ولذلك أثار رفض سعيد. أكثر ما أزعجه في هذا الاتفاق، كان عرضه كاتفاق نهائي، يبقي المستقبل لتكريس النزاع[٩٢]. إتفاق نهائي يجب إبرامه في إحدى الحالتين:

١) حين يكون التعايش مضموناً، ولا يوجد ما يقلقه لفشل نجاح الإتفاقات الإنتقالية التي يفترض أن يسود خلالها تعايش فعلي.

٢) حين تحوّل الاتفاقات الانتقالية الحل النهائي إلى أمر زائد أو تقادم عليه الزمن، بفعل ديناميكية المصالحة التي تخلقها.

لقد أيدّ سعيد بالفعل اتفاقات انتقالية تستغرق وقتاً طويلاً. في هذا الوضع تندرج الاتفاقات النهائية تدريجياً بالإجراءات الانتقالية. وهكذا تفقد طابعها المهدّد والحاسم، الذي يمكن أن يؤدي إلى تحصّن مجدّد للطرفين، كل في مواقفه. عملياً، فهي تفقد بهذا الشكل مكانتها «النهائية»[٩٣].

عرفات ويوسي بيلين وشمعون بيرس، أدّوا إلى فشل المحادثات في واشنطن، لأنهم أداروا مفاوضات سريّة في أوسلو، كبديل لواشنطن. عرفات لم يهتم، يقول سعيد، إن هناك تقدماً في واشنطن. سعيد اعتبر الممثلين الفلسطينيين في واشنطن كـ«بعثة جيّدة»، على رأسها د. حيدر عبد الشافي، وفيها د. حنان عشراوي ناطقة[٩٤].

يجب التأكيد أن سعيد لم يعارض استمرار وجود إسرائيل كدولة يهودية، ولا إقامة دولة

فلسطينية . الصراع ليس بين مؤيدي حل دولتين لشعبين وبين مؤيدي حل الدولة الواحدة المشتركة . لقد عارض فقط ( فقط؟! ) هذا النوع من اتفاقات السلام، الذي بدلاً من أن يقارب ما بين الطرفين، فإنه يبعدهما بواسطة اتفاقات تقفل الحدود، أو اتفاقات تتجاهل هذه القضية . برأيه، هناك مصالح مشتركة بين الفلسطينيين والإسرائيليين، أكثر مما هناك أسباب للخلاف .

بعد أوسلو بدأ براك يدفع فكرة الفصل، كنتيجة مباشرة لاتفاق أوسلو . لقد اعترف سعيد أن الفصل حاليًا ليس سوى خلق الشروط السهلة للفصل لاحقًا ( فالمستقبل، كما هو معروف، هو النتيجة للحاضر ) . هذا الموقف الانفصالي لإسرائيل، أسوة مع المنطق الإنفصالي للقومية الفلسطينية، ليسا خطوة باتجاه التعايش، بل إنهما تبعدانه . الإنفصالية تعني، إضافة للإنفصال عن إسرائيل، فصلاً بين الفلسطينيين وبين أنفسهم، لأنه بعد الفصل سيكونون مشتتين في ثلاث دول . أكثر من مليون فلسطيني مواطنون في دولة إسرائيل، ومليونان في الأردن . هذه الحقيقة تنسف الأرضية تحت منطق الفصل[٩٥] .

خلافًا لما بدر من ذم وجّهه سعيد لعديد من الأشخاص، فإن السلام التدريجي، الذي يتمحور حول التقارب والمصالحة، ليس بعهدة من يجمعهم نفس نمط التفكير، ونفس اللغة الايديولوجية . سعيد قادر على العثور على شركاء حتى بين هؤلاء الذين يذمّهم بحدّة، مثل هنري كسينجر، الذي اعتبر أنه « نذل كبير »[٩٦] . ففي مقال كتبه كيسنجر في ذكرى يتسحاق رابين، يفرّق بين شكلين للسلام في الشرق الأوسط : سلام الجيتوهات وسلام المصالحة[٩٧] . أليست هذه خلاصة فكرة سعيد، فيما يتجاوز الالتزام الايديولوجي لدى الاول لليسار والثاني لليمين؟ ألم تكن هذه فكرة رابين، حين اقترح اتفاقات مرحلية، من شأنها أن تؤدي إلى كونفدرالية أردنية - فلسطينية - إسرائيلية؟ أليست هذه هي روح كتابات سعيد السياسية؟ بل أكثر من مجرد روحها . هذا هو هيكل فكرته . في مقابلة معه أجراها مارك ليفين ( ١٩٩٩ )، قال سعيد :

> كل واحد سيفاجأ عندما يكتشف أن هناك كثيرين ممن يؤمنون اليوم بإمكانية هذا النوع من التعايش، سواء أسميته ثنائي القومية، كانتونية، كونفدرالية، ولكن شرط أن يأخذ بالحسبان بجدية حضور « الآخر » كمركب من فلسطين / إسرائيل، أو إسرائيل / فلسطين الجديدة . أنا لا أومن أن هناك بديلاً سياسيًا جديًا آخر في متناول أيدينا[٩٨] .

ولكن يمكن الفصل بين الشعوب لأنه :

أينما تتوجه في فلسطين / إسرائيل، فإن المجموعتين متداخلتان الواحدة داخل

الأخرى، إلى حد ما بفضل الجدوى الرهيبة لسياسة الاستيطان الإسرائيلية منذ ١٩٦٧[٩٩].

كل محاولة للفصل تؤدي إلى عنف فقط. برأيه، الحلم الانفصالي الإسرائيلي بلائم المطلب الفلسطيني بالعيش في بلاد يوتوبية (بلاد ليست بلاداً)، بدون التواجد الإشكالي ليهود إسرائيل. الأمر الوحيد القابل للتطبيق في مقترحات الإنفصاليين، هو «عقود من العنف المستقبلي»[١٠٠].

هذه هي النقطة التي تتجلّى فيها قدرة سعيد على التفكير العملي، مقابل المعاهدات، على مختلف أشكالها، القادرة باسم الخير السماوي على خلق جهنم على الأرض:

> يمكنني أن أفهم، وبمفاهيم عدة أن ادعم، فكرة الإستقلال الفلسطيني، لو كان قابلاً للتحقيق.
>
> ولكن كيف نقتلع ٣٥٠ ألف إسرائيلي. كيف يمكننا إفراغ كل الأجزاء اليهودية في القدس الشرقية التي بنيت مؤخراً؟ كيف نفكك المستوطنات؟ كيف نهزم هؤلاء المستوطنين، وبالطبع فإن المفاوضات لن تؤدي لذلك.. الفلسطينيون والإسرائيليون غير قادرين على خلق مسافة بينهما. في المنطقة بين رام الله شمالاً وبيت لحم جنوباً، يعيش ٨٠٠ ألف إسرائيلي وفلسطيني، الواحد على رأس الثاني، ومن غير الممكن فصلهم. هذه هي الحقيقة[١٠١].





يجب إنزال الجهود من السماء إلى الأرض، ولكن هذا ممكن فقط بالتعاون مع الطرف الثاني. لا أعتقد أن اهتمام سعيد هو بالتعاون فقط مع طالبي السلام في الطرف الإسرائيلي. فهناك بينهم من يحلم بالفصل (أنظروا معارضته لاتفاق أوسلو واتفاق بيلين – أبو مازن). إنه يرسم خطوطاً لمشروع دمقراطي للأمد البعيد، يطالب، كشرط سابق، بإقامة دمقراطية حقيقية (ممكنة، لكنها لا تزال غائبة) في إسرائيل، وأيضاً في فلسطين. روح الدمقراطية لا تسمح بـ:

> رسم حدود تفصل بين شعوب، ثقافتها وتاريخها وقربها الجغرافي غير قابلة للفصل. الفصل السياسي في أحسن الأحوال هو خطوة مؤقتة. التقسيم هي موروث الإمبريالية، مثل الحالات المؤسفة في الباكستان، الهند، إيرلندا، قبرص. البلقان تثبت بشكل اوسع، ومصائب القرن العشرين التي أصابت إفريقيا، تبرهن بأكثر الأشكال مأساوية. لذلك، علينا أن نفكر بمفاهيم التعايش، بعد الفصل، رغم التقسيم[١٠٢].

التقسيم هو الجهد الذي يبعث اليأس في أيديولوجيات تتلاشى، والتي مسّت

بالصهيونية وبالقومية العربية، كما يؤكد. لم يحل الطرفان بعد مشكلة «الآخر»، لم يتعلما بعد:

كيف يعيشان مع (خلافًا لـ «رغم») الآخر. حين يجري الحديث عن الفساد، التمييز العنصري أو الديني، الفقر والبطالة، التعذيب والرقابة، فإن الآخر دائمًا واحد منّا، وليس بعيدًا عنا. هذه الأشكال من التنكيل تعترف فقط بضحايا القوة غير العادلة، وهؤلاء الضحايا ملزمون بمعارضة كل جهد للتسبب بمعاناة إضافية لهم. هذا هو مقترح المستقبل[١٠٣].

إن مدى الإلحاح الذي التزم به سعيد بالسياسة، مصدره انه فهم مدى إلحاح الظروف. هذه هي السنوات الحاسمة، التي بها تتبلور وتُطبّق الشروط التي ترفع أو تهدم احتمال التعايش الاخوي. هذا هو الوضع الذي حرّك سعيد لان يكون معارضاً شديداً للاتفاقات التي تُغلق الباب امام ذلك الشريك. ومن أجل ضمان مستقبل أفضل، يدعي سعيد: «إننا بحاجة إلى سياسة أفراد محدّدين وليس مقولات مجرّدة وعموميّة»[١٠٤]. الترجمة التطبيقية لهذه الكلمات هي، حسب قراءتي «فقط إتفاقات مرحلية» وليس اتفاقات نهائية بالمعنى الذي وُضّح اعلاه.



لا أدري إن كان سعيد ادّعى ان الإنفصالية هي أيديولوجية تتلاشى وتقادم عليها الزمن، بدافع حلمه أو انه يؤمن بذلك، ولكن من المؤكد انه اعتقد ان أيديولوجيات كهذه تهيّئ لمستقبل خالٍ من العنف والمعاناة الإضافيين.

في نقطة واحدة يتحوّل نقده للسلطة الفلسطينية إلى نقد ذاتي، تحمل معها اقتراحاً عمليًا: إنه يعترف انه لم يكن قادراً بالمرّة، ومثله بقية الفلسطينيين، على التوجه إلى إسرائيل مباشرةً، كما توجّه المؤتمر الوطني الإفريقي (ANC) إلى البيض في جنوب إفريقيا، كجزء من سياسة الانضمام والاحترام المتبادل. كانت هذه مبادرة المقموعين. التعايش، يقول سعيد، يجب أن يكون رد الفلسطينيين على الحربجية والمطالب الإنفرادية لإسرائيل[١٠٥].

النموذج الجنوب إفريقي هو خلق لجان مصالحة هدفها تحقيق تعايش بعد فظائع الأبرتهايد. هذا هو الحل الملائم للشرق الأوسط – حل التعايش وليس تقسيم فلسطين[١٠٦].

ليس فقط أنه لا مكان للانتقام من القامع، يقول سعيد، وإنما يجب ان يقوم الفلسطينيون بما لم يعرف الصهيونيون القيام به، وتربيتهم من خلاله، ممنوع التعلّم من الصهيونية الحاكمة، الأمر الوحيد الذي عرضوه هو العنف، التقسيم بالقوة، وإخضاع الفلسطينيين

بشكل مستديم للاستعلاء اليهودي(١٠٧).

محاربة المستوطنين لا تتم عبر طردهم من مواقعهم ولا قتلهم، بل يجب مقاومتهم في جبهتين: عبر مظاهرات شعبية غير عنيفة تمنع مصادرة الاراضي، وعبر بناء مستشفيات، عيادات، مدارس، جامعات، مشاريع لتطوير البنى التحتية لصالح الحياة اليومية - باختصار، عبر خلق مؤسسات مدنية مستقرّة ودمقراطية(١٠٨). هذه تجعلهم يتعلمون كيفية العيش المشترك تحت سلطة القانون والرفاه المتبادل.

من هنا جاءت أيضاً معارضته لإعلان احادي الجانب عن دولة فلسطينية. فالإعلان في الظروف الراهنة عن دولة فلسطينية، معناه قبول فكرة التقسيم على غرار الأبرتهايد، هذا ليس سلاماً ولا تحقيق مصير(١٠٩). لا يوجد تقرير مصير حقيقي دون اعتراف بالآخر ودون اعتراف الآخر بآخره.

لقد تصادم سعيد مع مَن آمنوا بان إعلان الاستقلال في الظروف الراهنة من شانه أن يشكل خطوة أولى كخلق دولة حقيقية مع سيادة حقيقية. من يطالب بهذا فإنه يخدع نفسه، برايه، هذا التفكير يتضمن خطأً منطقياً اساسه التفكير السحري. الأمر يشبه الأمل «باستخراج الشمس من الخيار، على أساس فرضية أن الشمس سبق واخترقته»(١١٠). هذا انشغال بالمستحيل، الذي يتم من خلاله إيصاد الباب أمام الممكن.





يتوجّه سعيد إلى أبناء شعبه باقتراح الاعتراف بتاريخ المعاناة اليهودية، من أجل دفع مستقبل ممكن من المصالحة:

> لماذا نتوقع من العالم أن يقتنع بمعاناتنا كعرب إذا (أ) كنّا غير قادرين على الاعتراف بمعاناة الآخرين، حتى أولئك الذين يقمعوننا، وإذا (ب) كنّا غير قادرين على التعاطي مع حقائق تصعب على الافكار المستسهلة من النوع الذي يروج له مثقفون محافظون، ممن يرفضون رؤية العلاقة بين الكارثة وإسرائيل.. لا يمكنني تقبّل فكرة ان الكارثة تبرّر ما قامت به الصهيونية بحق الفلسطينيين: انا بعيد عن هذا. وأقول العكس تماماً، أي أنه عبر الاعتراف بالكارثة كإبادة شعب جنونية، كما هي فعلاً، بإمكاننا مطالبة الإسرائيليين واليهود بحث ربط الكارثة بالغبن الذي الحقته الصهيونية بالفلسطينيين(١١١).

خلافاً للشخصية المرتسمة لسعيد لدى كثيرين، فإن فكره السياسي كان إيجابياً، أي أنه عرض مثالاً مفصلاً جداً، وخطوات محددة لتطبيقه، وليس مجرد اقتراحات مختلفة. لقد اصرّ بتحمّس على أن الصراع التاريخي مع الصهيونية يجب ان يُحَل عبر تحقيق المزيد من العدالة، وليس من خلال أشكال جديدة من العقاب، المقاطعة والانتقام غير المبررة(١١٢).

*

من يسعى إلى فهم السياسة عليه أن يعرف قبل كل شيء أنها تصيب بالشلل فالصراعات كثيرة جداً، ومثلها المتمرسون في كل موقع، ممن يصعب عليّ فهم كيف أن من يدخلها لا يفقد الأمل. إدوارد سعيد يذهب بعيداً في الأمل المُصرّ على حل عبر التعايش. فالتعايش بالنسبة إليه ليس شعاراً فارغاً، يتم إطلاقه بصراخ أمام المنابر الشعبية، بل إنه مفهوم في الحياة المدنية اليومية، حيث تعود الفروقات القومية التي تغذيها الانفصالية القومية، إلى حجمها الطبيعي.

أنا أعيش في حيفا، في حيّ مختلط يعيش فيه فلسطينيون مسلمون ومسيحيون، ولبنانيون يلاحقهم شعبهم على تعاونهم مع الصهيونية، فلسطينيون ويهود علمانيون، يهود متديّنون من مختلف الطوائف، مهاجرون جدد بهذا الشكل أو ذاك (ويمكن تقسيمهم أيضاً إلى مجموعات أصغر)، وأيضاً بهائيون يأتون لفترات محددة لخدمة مركزهم الديني في حيفا. البناية التي أسكنها تعيش فيها عائلة يهودية رومانية الأصل (يهود أشكناز علمانيون)، عائلة يهودية تقليدية عراقية الأصل (يهود شرقيون)، وزوج فلسطيني، وفي الطابق الأرضي هناك كنيس صغير للطوائف الأشكنازية. لا يسود السكان انسجام دائم. الخلاف الأقسى نشب في أعقاب إصرار أحد الجيران على السيطرة على مبنى هزيل في الساحة المشتركة. احتجنا للتوجه إلى القضاء حتى يخلي المقتحم ذلك المبنى.

ولكن ما علاقة هذا الخلاف، وغيره، بالهويات والجذور التاريخية، التي وصفتُ السكان بحسبها؟ التعايش هو العلاج لمرض فونس صاحب الذاكرة. الجار العربي، وهو آخر من سكن البناية، أدى بمجيئه إلى تهدئة الخواطر (بشكل نسبي، برأيي) في هذه المجموعة الصغيرة. وهو يتباهى بأنه قادر على حل النزاعات. أنا أصدّقه.





هوامش

١. Said, Edward, "Between Worlds," London Review of Books, Vol. 20 No. 9, 7 May 1998.

٢. Said, Edward, "Impossible Histories," Harper's Magazine, July. 2002, Vol. 305, Issue 1826, pp. 69-75.

٣. Said, Edward, "Between Worlds," London Review of Books, Vol. 20 No. 9, 7 May 1998.

٤. Said, Edward, "A desolation, and they called it peace," Al-Ahram Weekly, 25 June - 1 July 1998.

٥. م.ن.

٦. Said, Edward, "What Price Oslo?," Al-Ahram Weekly, No. 577, 14 -20 March 2002.

٧. Said, Edward, "The Only Alternative," Al-Ahram Weekly, No. 523, 1 - 7 March 2001.

٨. Said, Edward, "Collective Passion," Al-Ahram Weekly, No. 552, Thursday, 20 September 2001.

٩. Swift, Jonathan, A Tale of a Tub, Sec. I, Introduction.

١٠. Said, Edward, "Palestinian Elections Now," Al-Ahram Weekly, No. 590, 13-19 June 2002.

١١. Said, Edward, "Low Point of Powerlessness," Al-Ahram Weekly, No. 605, 26 Sept.-2 October 2002.

١٢. قارن: Said, Edward, "Thinking Ahead," Al-Ahram Weekly, No. 580, April 6, 2002.

١٣. ن م بالنسبة لكون عرفات يلعب في صالح الإسرائيليين، أنظر: Said, Edward, "Post Elections Realities," Al-Hayat, March 1, 1996.

١٤. سعيد يقتبس من: Susan P. Silsby, Antonius: Palestine, Zionism, and British Imperialism, 1929-1939 (Ph.D. diss., Georgetown University, 1985), p. 184. أنظر: Said, Edward, Culture and Imperialism, New York: Vintagge Books, 1994, p. 257. بحث سلسبي صدر عام ٢٠٠١: Boyle, Susan Silsby, Betrayal of Palestine: the story of George Antonius, Boulder, Colo.: Westview Press, 2001.

١٥. هذا نص محاضرة سعيد: Said, Edward, "The politics of partition," Progressive (12/99):16-19 والتي عقدت في: Amherst, Massachusetts, on September 17, 1999 في ذكرى المثقف الباكستاني إقبال أحمد الذي توفي في أيار ١٩٩٩. اسم المحاضرة «جغرافيا غير محلولة – فضاءات مهددة».

١٦. Said, Edward, "The politics of partition," Progressive (12/99): 16-19.

١٧. ن م.

١٨. المذكور لـ: Christopher Hitchens في مقاله "My Friend Edward," The Observer, sept. 28, 2003.

١٩. Borges, Jorge Luis, "Funes the Memorious," in Ficciones, Grove Press, 1962, pp. 107-117, transl from Spanish.

٢٠. Said, Edward, "The politics of partition", Progressive (12/99): 16-19.

٢١. Said, Edward, Orientalism, New York: Vintage Books, 1978.

٢٢. Said, Edward, "Impossible Histories," Harper's Magazine, July 2002, Vol. 305, Issue 1826, pp. 69-75.

٢٣. Said, Edward, Orientalism, New York: Vintage Books, 1978, pp. 132.

٢٤. ن م.

٢٥. ن م، pp. 132, p. 98-99. سعيد اقتبس مقاطع استخفاف من: Schlegel, F., Uber die Sprache und Weisheit der Indier: Ein Beitrag zur Begrundung der Altertumstunde, Heidelberg: Mohr & Zimmer, 1888, pp. 44-59.

٢٦. Said, Edward, "Israel, Iraq, and the United States," Al-Ahram Weekly, No. 607, 10-16 October 2002.

٢٧. Said, Edward, Orientalism, pp. 5, 22, 203.

٢٨. ن م ص ٥٤.

٢٩. See Said, Edward, "The politics of partition," Progressive (12/99): 16-19.

٣٠. Said, Edward, "Between Worlds," London Review of Books, Vol. 20 No. 9, 7 May 1998.

٣١. أنظر Said, Edward, "The politics of partition," Progressive (12/99) :16-19.

٣٢. Huntington, Samuel P., Foreign Affairs, 1993, Vol. 72, Issue 3. See also The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order, New York: Simon & Schuster, 1996.

٣٣. Said, Edward, "The Clash of Ignorance," Nation, October 22, Vol. 273 Issue 12.

٣٤. Said, Edward: "A Window on the World," The Guardian, aug. 5, 2003.

٣٥. Said, Edward, "A Living Idea," Al-Ahram Weekly, No. 566, 27 Dec. 2001 - 2 Jan. 2002.

٣٦. Blake, William, "London," in Songs of Experience, song no. 46, 1789

سعيد يقتبس من قصيدة «لندن» LONDON:



I wander thro' each charter'd street,
Near where the charter'd Thames does flow.
And mark in every face I meet
Marks of weakness, marks of woe.



In every cry of every Man,
In every Infants cry of fear,
In every voice: in every ban,
The mind-forg'd manacles I hear

How the Chimney-sweepers cry
Every blackning Church appalls,
And the hapless Soldiers sigh
Runs in blood down Palace walls

But most thro' midnight streets I hear
How the youthful Harlots curse
Blasts the new-born Infants tear
And blights with plagues the Marriage hearse

٣٧. See Said, Edward: "A Window on the World," The Guardian, aug. 5, 2003.

٣٨. سعيد ترجم أيضاً مقالة أورباخ: "Philology and Weltliteratur," together with Marie Said, Centennial Review 13 [1969].

٣٩. يتطرق إلى كتاب أورباخ Said, Edward: "A Window on the World," The Guardian, aug. 5, 2003. Mimesis: The representation of reality in Western Literature, Translated from the German by Willard R. Trask ; with a new

introduction by Edward W. Said. Princeton, NJ : Princeton University Press, c2003 بالنسبة لغوته فإنه يتطرق إلى مجموعة قصائد كتبها عام ١٨١٩ تحت تأثيرالأدب الإيراني – العربي. of persian-islamic literature
Goethe, Johann Wolfgang von, West-östlicher Divan = Goethe's West-Eastern divan, translation & commentary by A. Page; drawings by L. Baskin, Northampton, Mass.: Gehenna Press, 1970.

٤٠. Said, Edward, Orientalism, New York: Vintage Books, 1979, p. 259.

٤١. أنظر تفسيره لاستعمال أسلوب فظ في "Where Do We Go From Here," Al-Hayat, November 8, 1995.

٤٢. Said, Edward, "A Vision to Lift the Spirit," Al-Ahram weekly, No. 557, 25-31 October 2001.

٤٣. Said, Edward, "One-way street," Al-Ahram Weekly, No. 594, 11-17 July 2002.

٤٤. Said, Edward, "Disunity and factionalism," Al-Ahram Weekly, No. 599, 15 - 21 August 2002.

٤٥. Said, Edward, "Modernity, Information and Governance," Al-Hayat, July 3, 1996.

٤٦. Said, Edward, "Is Israel more secure now?," London Review of Books, Vol. 24, No. 1, January 3, 2002.

٤٧. ن.م.

٤٨. Said, Edward, "What can separation mean?," Al-Ahram Weekly, No. 455, 11-17 November 1999.

٤٩. Said, Edward, "Where Negotiatons Have Led," Al-Hayat, October 1, 1995.

٥٠. Said, Edward, "One-way Street," Al-Ahram weekly, No. 594, 11-17 July 2002.

٥١. Said, Edward, "What cabinet reshuffle?,"Al-Ahram Weekly, No. 391, 20 - 26 August 1998.

٥٢. ن.م.

٥٣. ن.م.

٥٤. ن.م.

٥٥. ن.م.

٥٦. Said, Edward, "Occupation is the atrocity," Al-Ahram Weekly, No. 547, 16 - 22 August 2001.

٥٧. أنظر Said, Edward, "Emerging alternatives in Palestine,"Al-Ahram Weekly, No. 568, 10 - 16 January 2002.

٥٨. قارنوا مع ملاحظات مادلين أولبرايت، وزيرة الخارجية الأمريكية للرئيس كلنتون: «عرفات يجب أن يكون ضحية. واليوم يطور فكرة إنهاء دوره كقديس معذب». هذه الأقوال جاءت خلال مقابلة مع صدور كتابها "Madame Secretary" Random House, 2003, Herald Sun and Weekly Times, september 16, 2003.

٥٩. Said, Edward, "Where I'm coming from," من نص مقابلة لـ Anthony Barnett في BBC Radio 3's Nightwaves, 4 December 2002 نشرت في صفحة إنترنت OpenDemocracy <http://www.opendemocracy.net/themes/article-10-1508.jsp> في ٢ اكتوبر ٢٠٠٣. وأيضاً أنظر Said, E., "On visiting Wadie," London Review of Books, September 5, 1996.

٦٠. Said, Edward, "Disunity and factionalism," Al-Ahram Weekly, No. 599, 15-21 August 2002.

٦١. Said, Edward, "Palestinian Elections Now," Al-Ahram, No. 590, 13-19 June 2002.

٦٢. Said, Edward, "Paying the price for personal politics," Al-Ahram Weekly, No. 449, 30 Sep. - 6 Oct. 1999. سعيد بقيس Said K. Aburish, Said K., Arafat: From Defender to Dictator, Bloomsbury Paperbacks, London, UK, 1999. Aburish من يقترح في كتابه كبديل عن حكم عرفات مسؤولي مفاوضات واشنطن حسب اتفاق أوسلو، الثلاثي "triumvirate of Heidar Abdel Shafi, Faisal Husseini and Hanan Ashrawi," كقادر على «تحقيق اتفاق أفضل مع إسرائيل».

٦٣. ن م. تفاصيل إضافية في Said, Edward, "Are there No Limits to Corruption?," Al-Hayat, July 2, 1997.

٦٤. Said, Edward, "Palestinian Elections Now," Al-Ahram Weekly, No. 590, 13-19 June 2002.

٦٥. Said, Edward, "A desolation, and they called it peace," Al-Ahram Weekly, 25 June - 1 July 1998.



٦٦. أنظر مثلاً كيف تتعاطى الحكومة الإسبانية مع الإرهاب الباسكي بقيادة القاضي Baltasar Garzon.

٦٧. Said, Edward, "A desolation, and they called it peace," Al-Ahram Weekly, 25 June - 1 July 1998.

٦٨. Said, Edward, "Emerging alternatives in Palestine," Al-Ahram Weekly, No. 568, 10-16 January 2002.

٦٩. Said, Edward, "The politics of partition," Progressive (12/99):16-19.

٧٠. من كلمته في حفل نال فيه (مع الموسيقي دانييل بارنبويم) الجائزة السنوية «أستوريس» للسلام برعاية ملك إسبانيا في أوبيادو في إسبانيا في تشرين الأول ٢٠٠٢، اقتبسه Tejada, Armando G., "Dónde está la justicia?," La Jornada, October 27, 2002.

٧١. Said, Edward, "Truth and Reconciliation," Al-Ahram Weekly, No. 412, 14-20 January 1999. أنظر أيضاً Said, Edward, "Breaking the Deaqdlock: A Third Way," Al-Hayat, June 30, 1998.

٧٢. Said, Edward, "The right of return, at last," Al-Ahram Weekly, No. 468, 10-16 February 2000. أنظر أيضاً Said, Edward, A final summit?, Al-Hayat, July 25, 2000.

٧٣. Said, Edward, "Truth and Reconciliation," Al-Ahram Weekly, No. 412, 14-20 January 1999.

٧٤. ن م.

٧٥. ن.م.

٧٦. Said, Edward, "Unoccupied Territory," London Review of Books, Vol. 21 No. 1, January 7, 1999.

٧٧. ن.م.

٧٨. Said, Edward, "Truth and Reconciliation," Al-Ahram Weekly, No. 412, 14-20 January 1999.

٧٩. Chase, Anthony B. Tirado, "Edward Said's Anti-Oslo Writings," Middle East Quarterly, Vol. 4, No. 1, March 1997, he quotes said: "Where Do We Go from Here?" Al-Ahram Weekly (Cairo), Nov. 9-15, 1995.

٨٠. ن.م.

٨١. Said, Edward, "Truth and Reconciliation," Al-Ahram Weekly, No. 412, 14-20 January 1999.

٨٢. ن.م.

٨٣. أنظر ن.م.

٨٤. Said, Edward, "A truly fragile identity," Al-Ahram Weekly, No. 474, 23-29 March 2000.

٨٥. Said, Edward, "Sharpening the axe," Al-Ahram Weekly, No. 541, 5-11 July 2001.

٨٦. «دهاء الوعي» مفهوم وضعه هيجل، وهو القوة الفاعلة بواسطة إرادة ونشاط البشر، ولكن كنتيجة غير مرغوب بها لأفعالهم. إنه كـ«انتقام» أحد طرفي النشاط، لأنه لا يؤخذ بالحسبان. «انتقام» على قلة الوعي بالنتائج المرافقة للنشاط. لأن النتائج غير المرغوب فيها للنشاط من شأنها التمثل فعلاً بالذات. هيجل يرى في هذه القوة عاملاً هامًا في صنع التاريخ. أنظر Hegel, Lectures on the Philosophy of World History: Introduction, trans. H. R. Nisbet, Cambridge: Cambridge University Press, 1975, p. 89.

٨٧. Said, Edward, "Collective Passion," Al-Ahram Weekly, No.552, Thursday, 20 September 2001.

٨٨. Said, Edward, "Impossible Histories," Harper's Magazine, July. 2002, Vol. 305, Issue 1826, pp. 69-75.

٨٩. Said, Edward, "Suicidal Ignorance," Al-Ahram Weekly, No. 560, 15-21 November 2001. أنظر أيضا Said, Edward, "The Clash of Ignorance," Nation, October 22, Vol. 273 Issue 12.

٩٠. Said, Edward, "Suicidal Ignorance, Al-Ahram Weekly, No. 560, 15 November 2001, وأنظر Said, Edward, "Collective Passion," Al-Ahram Weekly, No.552, 20 September 2001.

٩١. مؤتمر مدريد افتتح في ٣٠ تشرين الأول ١٩٩١.

٩٢. أنظر Said, Edward, "The right of return, at last," Al-Ahram Weekly, 10-16 February 2000.

٩٣. أنظر Said, Edward, "Strategies of Hope," Al-Hayat, September 25, 1997.

٩٤. Said, Edward, "One-way Street," Al-Ahram Weekly, No. 594, 11-17 July 2002.

٩٥. Said, Edward, "What can separation mean?,"Al-Ahram Weekly, No. 455, 11-17 November 1999.

٩٦. Said, Edward, "Arrogance and Amnesia," Al-Ahram Weekly, No. 385, 9-15 July 1998.

٩٧. Henry A. Kissinger, "The Soldier Behind the Peace," Los Angeles Times Sunday, November 12, 1995. Cf. My "Causes and Results of Political Assassination: On Rabin's Legacy," in Cohen-Almagor, Raphael (ed.), Challenges to Democracy: Essays in Honour and Memory of Isaiah Berlin, Ashgate, Aldershot, England, 2000, pp. 245-258.

٩٨. LeVine, Mark, "An Interview with Edward Said," Tikkun, Mar/Apr 1999. أنظر أيضا Said, Edward, "What can separation mean?," Al-Ahram Weekly, No. 455, 11-17 November 1999.

٩٩. Said, Edward, "What can separation mean?,"Al-Ahram Weekly, No. 455, 11-17 November 1999.

١٠٠. ن.م.

١٠١. ن.م.

١٠٢. ن.م.

١٠٣. ن.م.



١٠٤. Said, Edward, "Strategies of Hope," Al-Hayat, September 25, 1997.

١٠٥. Said, Edward, "Thinking ahead," Al-Ahram Weekly, No. 580, 4 - 10 April 2002.

١٠٦. Said, Edward, "The politics of partition," Progressive (12/99): 16-19.

١٠٧. Said, Edward, "Palestinian Elections Now," Al-Ahram Weekly, No. 590, 13 - 19 June 2002.

١٠٨. أنظر Said, Edward, "A desolation, and they called it peace,"Al-Ahram Weekly, 25 June - 1 July 1998.

١٠٩. Said, Edward, "A real state means real work," Al-Ahram Weekly, No. 397, 1 - 7 October 1998.

١١٠. ن.م.

١١١. Said, Edward, "A desolation, and they called it peace,"Al-Ahram Weekly, 25 June - 1 July 1998.

١١٢. ن.م.

من العبرية: هشام نفاع

باحث إسرائيلي، محاضر بدرجة بروفيسور في موضوع الفلسفة، جامعة حيفا